

العلاقات الدولية في ضوء الغزو الأمريكي للعراق ....(الجزء الأول)

- **توازن القوى في إطار النظام العالمي الجديد** .... د. مصطفى عبد الله أبو خشيم
- **مستقبل الأمم المتحدة في ضوء الصياغة الأمريكية لمفهوم الأمن والسلم الدوليين** .... د. عبد الله الحبيب عمار
- **أزمة الأخلاقيات في ظل النظام العالمي الجديد** .... د. زايد عبيد الله مصباح
- **العولمة والأمركة: المفاهيم والآثار** .... أ. موسى الأشخم

السنة الرابعة . العدد الثالث عشر .. الصيف 1371 و.ر 2003 ف

13





دراسات

مجلة فصلية محكمة ، يصدرها المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر في الشهر الثالث والسادس والتاسع والثاني عشر من كل عام، وتعنى المجلة بكافة القضايا التي تقع ضمن دائرة العلوم الاجتماعية والإنسانية وخاصة ما كان ذا صلة بالتنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي ومشكلاته المختلفة ، كما يمكن للمجلة نشر ما يعنى بالإنسان من الدراسات العلمية التطبيقية .

ليس للمجلة من قيود تفرضها سوى تلك الخاصة بمعايير الموضوعية والمستوى العلمي والتوثيق المناسب .

ترحب المجلة بإسهامات الباحثين في المجالات المذكورة وذلك في الأبواب الخاصة بالمقالات والدراسات والرؤى العلمية والفكرية، ومراجعات الكتب والتقارير عن الندوات والمؤتمرات العلمية .

قواعد النشر بالمجلة

1- تقبل المجلة موادّ للنشر باللغتين العربية والإنجليزية شريطة ألا يكون قد تم نشرها أو أن تكون مقدمة للنشر بإصدارات أخرى ويقدم الكاتب إقراراً بذلك في خطاب للمجلة .

2- يجب ألا تزيد كلمات المقال عن 4000 كلمة والدراسة أو البحث عن 8000 كلمة وأن تكون المادة مطبوعة على الحاسب الآلي ببرنامج MS Word مع ضرورة إرسال نسخة على قرص ممغنط Floppy Disk أو CD وأن تقدم مطبوعة على ورق بمساحة مناسبة بين الأسطر .

3- أن تتم الإشارة إلى الهوامش والمراجع في المتن بأرقام، وترد قائمتها بترتيب ورودها في المتن في نهاية النص.

4- ينبغي التقيد بالأسلوب التالي في التوثيق :

* بالنسبة للكتب: اسم المؤلف، عنوان الكتاب وتحته خط، (مكان النشر، اسم الناشر، تاريخ الناشر)،رقم الصفحات.
* بالنسبة للمجلات: اسم كاتب المقال، عنوان المقال، اسم المجلة وتحته خط، رقم العدد وتاريخه، رقم الصفحة أو الصفحات.

5- تطبع الجداول والرسوم البيانية في صفحات مستقلة مع بيان رقم وعنوان كل منها، ويشار في أسفل الجدول إلى مصدره، ويشار إلى المكان المحدد للجدول ضمن النص .

6- إرسال ملخص لا يقل عن 500 كلمة ولا يتجاوز 1000 كلمة باللغة الإنجليزية للنص المكتوب باللغة العربية والعكس على أن يتناول الملخص الهدف ونتائج الدراسة أو المقالة .

7- تقبل المجلة عروض ومراجعات الكتب على ألا يزيد حجمها عن 2000 كلمة وألا يتجاوز تاريخ صدور الكتاب سنتين وأن يتناول عرضاً وتحليلاً ونقداً للكتاب مع ذكر معلومات وافية عن مؤلفه ومكان ودار وزمان نشره وعدد صفحاته .

8- ترحب المجلة بنشر التقارير عن المؤتمرات والمنتديات العلمية والنشاطات الأكاديمية على أن يذكر فيها مكان النشاط وزمانه وأبرز المشاركين فيه وأهم ما جاء في الأوراق والتعقيبات فيما لا يزيد عن 2000 كلمة.

9- أن يقدم الراغب في النشر بالمجلة بياناً بسيرته العلمية وعنوانه ووسيلة الاتصال به .

10- تخضع جميع المواد لتقييم محكّمين مختصين تختارهم المجلة التي تُعلم صاحب المادة في غضون ثلاثة أشهر من تاريخ استلام مساهمته بقرارها في قبول نشرها من عدمه .

11- تحتفظ المجلة بكافة حقوق النشر وترحب بالتعليقات على ما ينشر بها وكذلك الردود عليها ، كما تحتفظ بحقها في نشر المادة المجازة وفق خطة التحرير .

12- تقدم للباحث مكافأة تحددها لائحة النشر بالمركز .

يمكنكم مكاتبتنا أو الاتصال بنا على العنوان التالي :

مجلة دراسات

المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

طريق الشط - قرب مقر إذاعة الجماهيرية العظمى - طرابلس

8021 مكتب أمحمد المقريف - طرابلس 3403693

كما يمكنكم زيارة موقع المجلة على الإنترنيت WWW.DIRSAAT.COM

دراسات

مجلة فصلية علمية محكّمة تصدر عن المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

السنة الرابعة - العدد الثالث عشر (الصيف) - 1371 و.ر (2003 ف)

المراسلات باسم أمين التحرير - المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر
طرابلس - الجماهيرية العظمى - ص.ب/ 8021 قاعة امحمد المقريف / طرابلس
هاتف و فاكس (مباشر) / 3403693 بـــدالة : 3403611 - 3403612

موقع المجلة على شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) w w w . dirasaat. Com

التجهيز الفني مكتب البعد الثالث لتصميم وتنفيذ الأعمال الفنية - هاتف وفاكس : 3600506


دراسات
مجلة فصلية علمية محكّمة تصدر عن المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

المحتويات

محسن يوسف اللموشي

دراسات

متابعات ثقافية

اللغة

الافتتاحية

النظام الدولي قبل وبعد غزو العراق

أدى انهيار الاتحاد السوفيتي وخروجه من دائرة التأثير الدولي إلى حدوث خلل مفاجئ في التوازن الدولي أو إلى ما يمكن أن نطلق عليه الفوضى الدولية، وساهم عدم ظهور بوادر استقطاب جديد في تباطؤ إعادة التوازن للعلاقات الدولية، ومر قطار النظام الدولي مذ ذاك بعدة محطات أساسية كانت أولاها الحرب الأولى على العراق عام 1991 ف وبدا العالم آنذاك راضيا أو منصاعا للأوضاع الجديدة التي ترتبت على اختلال التوازن الدولي كما بدا الغرب متماسكا ومنتشياً من خمرة النصر على المعسكر الشرقي والأيديولوجية الشيوعية تحت الزعامة الأمريكية حيث لم تظهر أية بوادر لخلافات غربية غربية، وتمكنت الولايات المتحدة من قيادة تحالف عريض من الغربيين وغيرهم لم تتخلف عنه حتى بعض البلدان العربية لتحرير الكويت وبدعم من المؤسسات الدولية والقانون الدولي وكان ثمة غطاء أخلاقي لتلك الحرب التى شنت باسم تحرير الكويت من الغزو العراقي ولم تتجاوز تلك الحرب أهدافها المعلنة وهي تحرير الكويت إلى غزو العراق أو تغيير حكومته، وظهر الأمر كما لو أن التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة يحترم سيادة الدول بما في ذلك سيادة العراق الدولة الغازية.

المحطة الثانية لقطار الفوضى الدولية كانت الحرب التي شنت على يوغسلافيا بحجة إنقاذ الأقلية الألبانية المسلمة من الإبادة الجماعية والتطهير العرقي اللذين كانا يمارسان من قبل الصرب في يوغسلافيا ضد غيرهم من الأعراق والطوائف. وحتى في تلك الحرب بدا الحلفاء الغربيون متماسكين ويقومون بدور أخلاقي حتى وإن قاموا بذلك دون تفويض من الأمم المتحدة ودون غطاء دولي . بينما بدأت بوادر التصدع في التحالف الغربي في المحطة الثالثة من محطات الفوضى الدولية عند غزو الولايات المتحدة لأفغانستان حيث انفردت الولايات المتحدة بأعمال الغزو ورفضت مشاركة الحلفاء الأوروبيين في تلك الحرب التى شنتها أمريكا باسم الحرب على الإرهاب ومع ذلك أعطت اعتداءات 11 ستيمبر غطاء أخلاقيا كافياً لغزو أفغانستان ولانفراد الولايات المتحدة بالحرب على حكومة طالبان التى بدت في نظر العالم خارجة عن القانون الدولي وعضوا مشاغباً في الأسرة الدولية قد لا تأمن بقية دول العالم شرورها وآثامها . أما الغزو الأمريكي للعراق فهو بحق المحطة الأهم في التاريخ المعاصر للعلاقات الدولية والتوازن الدولي ويعد النقطة المفصلية التى تؤرخ لنهاية عصر وبداية آخر حيث أرخ هذا الحدث ليس لمجرد انفراد الولايات المتحدة بإدارة دفة السياسة الدولية وإنما أيضاً أظهر أن الولايات المتحدة صارت تعاني من إفراط القوة الأمر الذي جعلها تعلى من شأن

أدى انهيار الاتحـاد السـوفيتي وخروجه من دائرة التأثير الدولي إلى حـدوث خلل مفاجئ في التوازن الدولي أو إلى ما يمكن أن نطلق عليه الفوضى الدولية، وسـاهم عدم ظهور بوادر استقطاب جديد في تباطؤ إعادة التوازن للعلاقات الدولية، ومر قطار النظام الدولي مذ ذاك بـعدة محـطات أساسـية كانت أولاها الحـرب الأولى على العراق عام 1991 ف وبـدا العالم آنذاك راضيا أو منصاعا للأوضاع الجديدة التي ترتبـت على اختلال التوازن الدولي كما بدا الغرب متماسكا ومنتشيا من خمرة النصر على المعسكر الشرقي والأيديولوجية الشيوعية تحت الزعامة الأمريكية حيث لم تظهر أية بـوادر لخلافات غربية غربية، وتمكنت الولايات المتحدة من قيادة تحالف عريض من الغربيين وغيرهم لم تتخلف عنه حتى بعض البلدان العربية لتحرير الكويت وبدعم من المؤسسات الدولية والقانون الدولي وكان ثمة غطاء أخلاقي لتلك الحـرب التى شنت باسم تحرير الكويت من الغزو العراقي ولم تتجاوز تلك الحـرب أهدافها المعلنة وهي تحرير الكويت إلى غزو العراق أو تغيير حكومته، وظهر الأمر كما لو أن التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة يحترم سيادة الدول بما في ذلك سيادة العراق الدولة الغازية.

المحطة الثانية لقطار الفوضى الدولية كانت الحرب التي شنت على يوغسلافيا بحجة إنقاذ الأقلية الألبانية المسلمة من الإبادة الجماعية والتطهير العرقي اللذين كانا يمارسان من قبل الصرب في يوغسلافيا ضد غيرهم من الأعراق والطوائف. وحتى في تلك الحرب بدا الحلفاء الغربيون متماسكين ويقومون بدور أخلاقي حتى وإن قاموا بذلك دون تفويض من الأمم المتحدة ودون غطاء دولي . بينما بدأت بوادر التصدع في التحالف الغربي في المحطة الثالثة من محطات الفوضى الدولية عند غزو الولايات المتحدة لأفغانستان حيث انفردت الولايات المتحدة بأعمال الغزو ورفضت مشاركة الحلفاء الأوروبيين في تلك الحرب التى شنتها أمريكا باسم الحرب على الإرهاب ومع ذلك أعطت اعتداءات 11 ستبمبر غطاء أخلاقيا كافيا لغزو أفغانستان ولانفراد الولايات المتحدة بالحرب على حكومة طالبان التى بدت في نظر العالم خارجة عن القانون الدولي وعضوا مشاغبا في الأسرة الدولية قد لا تأمن بقية دول العالم شرورها وأثامها . أما الغزو الأمريكي للعراق فهو بحق المحطة الأهم في التاريخ المعاصر للعلاقات الدولية والتوازن الدولي ويعد النقطة المفصلية التى تؤرخ لنهاية عصر وبداية آخر حيث أرخ هذا الحدث ليس لمجرد انفراد الولايات المتحدة بإدارة دفة السياسة الدولية وإنما أيضاً أظهر أن الولايات المتحدة صارت تعاني من إفراط القوة الأمر الذي جعلها تعلى من شأن إرادتها المنفردة على حساب إرادة غيرها من البلدان الأخرى بما في ذلك حلفاؤها الغربيون بل وتصل إلى حد الاستهانة بهم حيث صاحب الغزو الأمريكي للعراق عدة سمات نذكر منها:

وإلى اللقاء..

المحرر

يعلن

برنامج الدراسات والبحوث السياسية
بالمركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر
أنه وتنفيذاً للخطة السنوية للمركز للعام1371 و.ر (2003ف)
وفي إطار المساهمة في نشر المعرفة
ودعم حركة النشاط الفكري والعلمي في المجتمع الجماهيري

يعتزم الآتي

أ) نشر مخطوطات
ب) المساعدة في إنجاز رسائل الماجستير والدكتوراه وذلك في الموضوعات التالية:

1- التعليم والتنمية في عصر العولمة
2- التبادل غير المتكافئ في التجارة الدولية
3- الضرائب في المجتمع الجماهيري
4- الدولة والنشاط الاقتصادي في المجتمع الجماهيري
5- أنماط الملكية والنشاط الاقتصادي
6- منظمة التجارة العالمية واقتصادات الدول النامية
7- تقييم الأداء في الإدارة الشعبية
8- التكامل الاقتصادي والتجارب المعاصر في أفريقيا
9- قضايا التخلف والتبعية في الوطن العربي وأفريقيا
10- الديمقراطية والتنمية الاقتصادية

على الأخوة

الباحثين والمتخصصين الراغبين في نشر إنتاجهم العلمي
وطلبة الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه)
الاتصال ببرنامج الدراسات والبحوث الاقتصادية

كما يعتزم

برنامج الدراسات والبحوث الاقتصادية
بالمركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر
نشر سلسلة كتيبات تتناول المفاهيم التالية:

1- الخدمة العامة في المجتمع الجماهيري
2- التخلف الاقتصادي
3- التخطيط في المجتمع الجماهيري
4- منظمة التجارة العالمية
5- العولمة
6- هجرة العقول
7- الملكية في الفكر الجماهيري
8- الديمقراطية والتنمية الاقتصادية
9- التكامل الاقتصادي

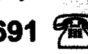
على الأخوة

الباحثين والمتخصصين الراغبين في الكتابة حول هذه المفاهيم
المبادرة بالاتصال ببرنامج الدراسات والبحوث الاقتصادية

علماً بأنه..

سيتم معاملة المخطوطات المقبولة للنشر
حسب لائحة التأليف والنشر والترجمة المعتمدة بالمركز وهي لائحة حديثة ومجزية

المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر
إدارة الدراسات والبحوث والتأليف،برنامج الدراسات والبحوث السياسية


3403691 3403585 80984 زاوية الدهماني - طرابلس

Info@greenbookstudies.Net

توازن القوى في إطار النظام العالمي الجديد

د. مصطفى عبد الله أبو القاسم خشيم
أستاذ علم السياسة
بجامعتي الفاتح والسابع من إبريل

دراسة تحليلية - مقارنة

بحث مقدم إلى ندوة

" مستقبل النظام العالمي "

التي ينظمها المركز العالمي لدراسات وأبحاث

الكتاب الأخضر

خلال يومي 17-18 من شهر الماء (مايو) 2003

The Balance of Power Within the Framework of The New World Order: Theory and Practice.

Abstract

The focus of this study is upon the contemporary balance of power system both in theory and practice. It is being argued that the current balance of power system is more oriented towards a hegemonic system rather than multi-polar system, and that the USA is the dominant power within the framework of the New World Order. This study rejects such a proposition, and on the contrary it argues that despite the contemporary balance of power system is

still in a stage of development and crystallization, it is more oriented towards a multi-polar system .

The data of this study indicate that the New World Order reflects, by and large, the existence of various influential powers besides the USA, e.g., Russia, France, China, Germany, and Japan. Furthermore, the USA does not fulfill the conditions underlying the literature of international relations regarding a hegemonic dominance system . The structures of what we might call a traditional hegemonic dominance are as followings:

1) The dominant power creates and enforces rules and dominates military and economic instruments.
2) The central power has the maximum influence and capabilities in order to settle disputes between subordinates units.
3) The hegemonic power resists attempts by subordinate allies to achieve independence or greater autonomy, and it will do watever it can in order to diffuse or eliminate any attempts taken by its allies.

It is obvious that the USA does not fulfill such conditions, since it lacks the absolute influential powers upon its allies, e.g., The position of France and Germany towards the Iraqi war of 2003, and the growing feelings of anti-Americanism around the world, the deterioration and malfunction of the American economy, debts, and the continued negative balance of trade records. Thus, the findings

of this study support, to a large extent, the underlying hypothesis, therefore, one might conclude that the current balance of power system could be described as a system in a continuing process of formation since 1990. Furthermore, the balance of power system is expected to reflect, by and large, a multi-polar system rather than a unipolar system.

بالرغم من أن البعض يؤكد على أن حداثة موضوع توازن القوة تحظى باهتمام القادة السياسيين والباحثين على حد سواء منذ استخدام الولايات المتحدة للسلاح النووي في نهاية الحرب العالمية الثانية ضد اليابان[1] ، إلا أن أدبيات الموضوع تشير إلى أن علاقات القوى لفتت انتباه الفلاسفة السياسيين منذ الحضارات القديمة [2] إذن ، فعلاقات القوى عرفت منذ أقدم الحضارات القديمة الأمر الذي يؤكد أن علاقات التنافس والصراع كانت ولا تزال وستظل السمة المميزة للعلاقات الدولية . فعلم العلاقات الدولية ، مثله في ذلك مثل بقية فروع العلوم الاجتماعية الأخرى ، يهتم بدراسة إشكالية محددة تجسد علاقات التفاعل والصراع بين أطراف العلاقات الدولية[3] .

وإذا كانت علاقات القوى في الماضي قد حظيت باهتمام ملحوظ من قبل الباحثين لا سيما الباحثين في الدول المتقدمة ، فإن علاقات القوى منذ بروز ما يعرف بالنظام العالمي الجديد تحظى بدورها باهتمام الجميع سواء كانوا في الدول المتقدمة أو النامية . فالعلاقات الدولية أصبحت أكثر تعقيداً وخطورة نظراً لقيام ثورات متتالية في مجالات : المواصلات ، الاتصالات ، المعلومات والتسلح ، عليه فإن أهمية هذه الدراسات مستمدة من ندرة الأدبيات المهتمة بعلاقات القوى في الألفية الثالثة ، حيث إن هذه المرحلة التي يعيشها عالمنا المعاصر مازالت في طور التشكل والبلورة .

منهجية الدراسة :

مادامت المنهجية لصيقة بكل دراسة علمية جادة ، عليه يمكن التأكيد على أن هذه الدراسة لا تشذ عن القاعدة المتعارف عليها بين الباحثين في مجال علم العلاقات الدولية . وتتمثل إشكالية هذه الدراسة في أن بروز النظام العالمي الجديد منذ بداية

التسعينيات من القرن العشرين لم يؤد إلى اختفاء التنافس والصراع بين أطراف النظام العالمي ، حيث يلاحظ في هذا الشأن أن تفكك الاتحاد السوفييتي لم يؤد إلى انفراد الولايات المتحدة بالهيمنة المطلقة كما يحلو للبعض أن يقول . إذن ، فإشكالية هذه الدراسة تتمثل في محاولة الإجابة عن الأسئلة التالية :

- إذا كانت الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة في العالم بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وانشغال جمهورية روسيا الاتحادية بمشاكلها الداخلية ، فلماذا لم تنفرد بالهيمنة المطلقة على النظام العالمي الجديد الذي أعلن عن قيامه الرئيس السابق جورج بوش الأب؟
- وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية مهيمنة بالفعل على النظام العالمي الجديد ، فلماذا تلجأ إلى تشكيل التحالفات السياسية والاقتصادية والعسكرية ؟
- وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك أكبر قوة عسكرية في العالم ، فلماذا لا تنفرد بالهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية ؟

وسنحاول في هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة التالية المثارة ، وبالتالي فإنه سيتم البحث في مدى مصداقية الفرضية التالية :

كلما زاد مستوى الصراع وتباين المصالح بين القوى الفاعلة في إطار النظام العالمي الجديد ، أدى ذلك إلى بروز وتشكل نظام عالمي متعدد الأقطاب . وكلما قل مستوى الصراع وحدث توافق في مصالح القوى الفاعلة ، دعم ذلك من إمكانية بروز نظام القطب الواحد المهيمن .

ويلاحظ على هذه الفرضية ما يلي :

1- بينما يعتبر الصراع في مستوياته المختلفة المتغير المستقل ، يلاحظ أن النظام العالمي يعتبر المتغير التابع .
2- أن العلاقة المتوقعة بين المتغيرين المستقل والتابع هي علاقة طردية ، حيث إن زيادة مستوى الصراع والتنافس ستؤدي إلى بروز نظام التعددية القطبية ، وأن تضييق هوة الصراع بين القوة الفاعلة سيؤدي بدوره إلى بروز ما يعرف بنظام القطب الواحد أو المهيمن .

3- أن العلاقات المتوقعة بين المتغيرين المستقل والتابع هي أيضاً علاقة سببية ، على اعتبار أن زيادة حدة الصراع والتباين في المصالح ستقود حتماً إلى بروز نظام متعدد الأقطاب ، والعكس صحيح .

وبناء على الفرضية السابقة ، فإن محاور هذه الدراسة ستكون على النحو التالي :

أولاً - النظام العالمي الجديد : المبادئ والأهداف .

ثانياً - فواعل النظام العالمي الجديد : المركز والأطراف .

ثالثاً - توازن القوى في إطار النظام العالمي الجديد .

رابعاً- توازن المصالح في إطار النظام العالمي الجديد .

خامساً- مستقبل النظام العالمي الجديد : هيمنة أو تعددية .

سادساً- الخلاصة والنتائج .

النظام العالمي الجديد المبادئ والأهداف

بالرغم من أن الإعلان عن قيام نظام عالمي جديد يعود إلى أواخر عام 1990 عندما دعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تشكيل تحالف دولي ضد العراق ، إلا أن أدبيات العلاقات الدولية تشير إلى وجود واستمرار الجدل حول هذا النظام [6] . فبينما يرفض البعض وجود مثل هذا النظام العالمي الجديد على أساس أن علاقات الظلم واللا مساواة والعدوان كانت وما زالت السمة المميزة للعلاقات الدولية [7] . وأن البعض يؤكد بدوره على حقيقة وجود هذا النظام بزعامة وتفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالهيمنة ، يلاحظ أن البعض الآخر يشير إلى أن النظام العالمي الجديد يشهد بالفعل تغيرات ملحوظة منذ بداية عقد التسعينيات ، ولكنهم يؤكدون في نفس الوقت إلى أن مثل هذا النظام مازال في طور التشكيل والبلورة وأن معالمه لم تتضح بعد . ومع أن الولايات المتحدة قد أعلنت عن المبادئ التي يستند إليها النظام العالمي الجديد ، والتي من أبرزها : الحرية ، والمساواة ، ونشر الديمقراطية ، ومراعاة حقوق الإنسان ، والالتزام بالشرعية والمبادئ وقواعد القانون الدولي ، وتفعيل دور الأمم المتحدة بشكل عام ومجلس الأمن بشكل خاص ، إلا أن واقع الحال يشير إلى أن الهدف الأمريكي يختلف ، إلى حد كبير ، عن تلك المبادئ ، حيث يلاحظ مثلاً أن

الولايات المتحدة تتدخل في شؤون الدول الأخرى تارة باسم حماية حقوق الإنسان ، وتارة أخرى باسم التعددية والديمقراطية والحرية . وما يمكن قوله عن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن قوله أيضاً عن القوى الفاعلة الأخرى في إطار النظام العالمي الجديد، ففرنسا وبريطانيا بالاشتراك مع بقية الدول الأوروبية قد شكلت مثلاً ما يعرف بقوات التدخل السريع لاستخدامها في الشمال الأفريقي متى تعرض أمنها القومي للخطر[10] .

كما أن روسيا تستخدم القوة المفرطة ضد الشعب الشيشاني ، الذي يطالب بحريته واستقلاله .

يتضح مما سبق أن الأهداف التي تسعى القوى الفاعلة إلى تحقيقها تتناقض والمبادئ المعلن عنها في إطار ما يعرف بالنظام العالمي الجديد[11] . عليه، فإن مبادئ وأهداف النظام العالمي الجديد تشير إلى وجود مجموعة من الخصائص يمكن إضفاؤها عليه ، وبالتالي يمكن تلخيص هذه الخصائص على النحو التالي[12]:

1 - نشر وتطبيق الليبرالية والرأسمالية ، مثل التعددية الحزبية ، نظام السوق والمجتمع المدني .
2 - الالتزام بالمبادئ وقواعد القانون الدولي ، خاصة القواعد العرفية التي تعكس المصالح الغربية بشكل عام .
3 - التأكيد على ضرورة فض المنازعات بالطرق السلمية وإدارة الأزمات الدولية تمشياً مع ما ينص عليه الفصل السادس والفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة على التوالي .
4 - اللجوء إلى سياسات التحالف والتعاون ، وذلك على غرار ما تقوم به الولايات المتحدة أثناء الأزمات الدولية ، مثل أزمة الخليج الثانية وأزمة كوسفو وأزمة الخليج الثالثة .
5 - المحافظة على التفوق الغربي ، خاصة ما يتعلق بدعم مثل هذا التفوق في المجالات الاقتصادية والعسكرية والتقنية .
6 - نزع السلاح والرقابة على التسلح ، خاصة عندما يتعلق الأمر بالدول النامية التي لها برامج تسلح نووي أو كيماوي أو بيولوجي .
7 - بروز تكتلات دولية كبرى في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية .

8- دعم إسرائيل والمحافظة على أمنها والعمل على دمجها في النظام الإقليمي العربي.

فواعل النظام العالمي الجديد

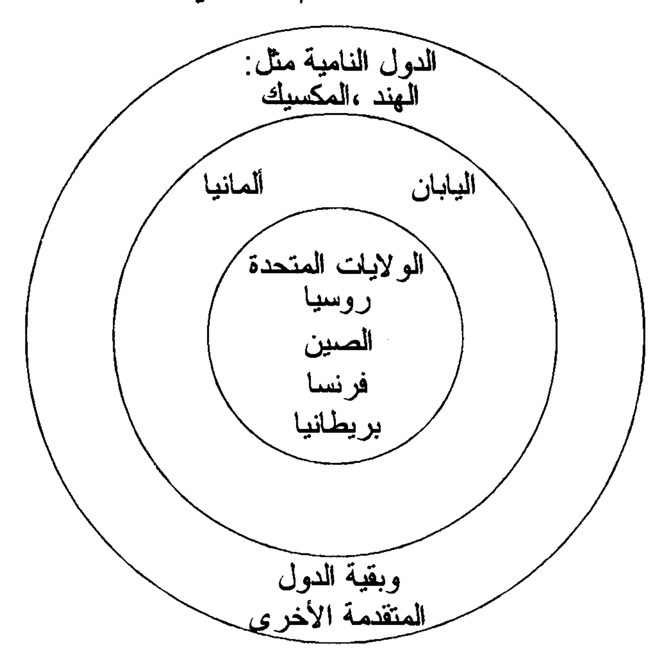
إن التسليم بوجود قطب واحد مهيمن لا يعني بأي حال من الأحوال عدم وجود فواعل أخرى في إطار أي نظام عالمي. فحتى أنصارَ وجود قطب واحد مهيمن على النظام العالمي الجديد لا يمكنهم تجاهل وجود دول أخرى فاعلة على مستوى العلاقات الدولية. لكن الخلاف الذي يمكن أن يثار في هذا السياق يمكن أن يتعلق بالمركز أو المكانة التي تحتلها القوى الفاعلة في إطار النظام العالمي الجديد.

ويشير الشكل: 1 إلى المكانة التي تحظى بها القوى الفاعلة في إطار النظام العالمي الجديد، حيث يلاحظ أن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر أقرب إلى مركز هذا النظام بينما تتبوأ القوى النووية الكبرى الأخرى، متمثلة في جمهورية روسيا والصين وفرنسا والمملكة المتحدة إلى جانب القوى الاقتصادية الكبرى متجسدة في اليابان وألمانيا، أماكن قريبة من المركز المشار إليه في الشكل المذكور. كما تحتل القوى الاقتصادية الأخرى، خاصة إيطاليا وكندا إلى جانب القوى النووية الصاعدة، مثل الهند وباكستان وإسرائيل والبرازيل مكانات أبعد من المركز[13]. فالقوة العسكرية والاقتصادية والسياسية هي التي تؤهل الدول إلى أن تكون في مركز النظام أو بعيداً عنه، وبالتالي يلاحظ أن الدول التي تحتل مركز النظام العالمي الجديد يفترض أن تكون الأقوى اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وثقافياً. وبالرغم من أن الولايات المتحدة تمتلك أكبر قوة عسكرية ويعد اقتصادها أكبر اقتصاد عالمي على مستوى الدولة The state Level، إلا أنها مازالت تفتقر إلى بعض عناصر القوى الأخرى، خاصة ما يتعلق بقدرتها في التأثير على الآخرين نتيجة لتنامي المشاعر المعادية ضدها في العديد من دول عالمنا المعاصر (Anti-Americanism)[14].

كما تفتقر القوى الفاعلة الأخرى إلى العناصر الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية لكي تكون في مركز النظام

العالمي، حيث يلاحظ في هذا السياق مثلاً أن الاتحاد الأوروبي على مستوى النظام الإقليمي " The Regional Level " يمثل ثقلاً اقتصادياً ملحوظاً في العالم، ولكنه يفتقر في نفس الوقت إلى وجود سياسة خارجية موحدة وقوى عسكرية فاعلة[15]. ويمكن قول نفس الشيء بالنسبة لليابان التي يعتبر اقتصادها ثاني أكبر اقتصاد في العالم، ولكنها تفتقر في نفس الوقت إلى التأثير السياسي والعسكري.

شكل (1)
مركز وأطراف النظام العالمي الجديد



إن وجود قطب واحد مهيمن على النظام العالمي الجديد يعني بالضرورة تحقق التالي[1] :

1- الهيمنة على القواعد والترتيبات التي تحكم العلاقات الدولية، بحيث إنه بإمكان القطب المهيمن في هذه الحالة أن يجعل الأطراف الأخرى في النظام العالمي تفعل ما يريده دون الحاجة إلى استخدام القوة المسلحة.

2- السيطرة على الاقتصاد العالمي بحيث إن اقتصاد القطب الواحد يكون في هذه الحالة محورياً أو مركزياً بالنسبة للاقتصادات الأخرى.

3- الهيمنة العسكرية على العالم حيث يتطلب الأمر من القطب الواحد في هذه الحالة أن تكون له قوات هائلة منتشرة في العالم من ناحية، وإمكانات استخدام هذه القوات في أي لحظة وبدون مساعدة من الآخرين من ناحية أخرى.

4- السيطرة الثقافية على العالم، بحيث إن أطراف النظام العالمي الأخرى تقبل وبدون تحفظ ثقافة القطب المهيمن نظراً لتنوعها وجاذبيتها. فالثقافة المهيمنة في هذه الحالة لا تفرض بالقوة على بقية أطراف النظام العالمي، ولكن الأخذ بها والتحمس لها يكون بمحض الإرادة على أساس أنها الأفضل المتاح للبشرية جمعاء.

يتضح مما سبق أن أنماط الهيمنة أو السيطرة الأربعة لا تتوفر في أي دولة من دول عالمنا المعاصر بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية التي يعتقد الكثير أنها القطب المهيمن على عالمنا المعاصر، وبالتالي يؤكد البعض أن مصالح القوة العظمى Superpower لا تتمشى مع نظام عالمي تتعدد أقطابه[19]. فبالرغم من التفوق الأمريكي في المجالات السياسية والعسكرية والتقنية، إلا أن الاقتصاد الأمريكي يعاني من العديد من المشاكل المزمنة، متمثلة في ارتفاع معدلات الديون، وضعف معدلات النمو الاقتصادي، واستمرار العجز في ميزان المدفوعات، وتدني معدلات الادخار ومستويات الاستثمار ونوعية التعليم، والموارد المخصصة لعملية البحث والتطوير التقني[20].

ومع تحقيق الدول الأوروبية الخمس عشرة الأعضاء في الجماعة الأوروبية للوحدة الاقتصادية والنقدية في نهاية القرن الماضي، فقد أصبح الاتحاد الأوروبي أكبر قوة اقتصادية في العالم، وبالتالي يلاحظ أن أوروبا الموحدة تحتل الآن مركز الثقل العالمي في المجال الاقتصادي. إذن، فقد تم إبعاد الولايات المتحدة من مركز الثقل الاقتصادي في إطار النظام العالمي الجديد، حيث إن الاتحاد الأوروبي يعتبر الآن أكبر سوق اقتصادية في العالم، نتيجة لارتفاع متوسط دخل الفرد ومعدلات النمو الاقتصادي[21].

إذن، فضعف الأداء في الاقتصاد الأمريكي مقارنة بالاقتصاد الأوروبي والياباني سيضعف حتماً المكانة العالمية للولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذي يعني وجود تعددية قطبية على مستوى العلاقات الدولية، فالاقتصاد الأمريكي قد تحول من اقتصاد صناعي إلى اقتصاد خدمي، وبالتالي أصبحت تجارة الخدمات (Service Trade) تساهم بالنصيب الأكبر في الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة. فمعظم الواردات الأمريكية من اليابان مثلاً تتمثل في سلع ذات تقنية متقدمة، الأمر الذي يقوى من مركز اليابان اتجاه الولايات المتحدة الأمريكية. لكن نمو قطاع الخدمات لم يمكن الولايات المتحدة من أن تصحح ميزانها التجاري، وإن كان قد صحح بعض الشيء من هذا الميزان. ففي علم 1997 بلغ العجز في الميزان التجاري الأمريكي ما قيمته 197 بليون دولار. لكن الصادرات الأمريكية في مجال تجارة الخدمات وصلت في نفس العام إلى 87 بليون دولار، الأمر الذي يعني أن تجارة الخدمات قد خفضت العجز في الميزان التجاري الأمريكي إلى 110 بليون دولار، وهذا يعتبر بطبيعة الحال عجزاً يؤثر في المكانة العالمية للولايات المتحدة ليس فقط على المستوى الاقتصادي ولكن يؤثر أيضاً على الصعيدين السياسي والعسكري.

وإذا كانت أوروبا تمثل ثقل النظام الاقتصادي العالمي فإن الجدول (1) يشير إلى المكانة التي تحظى بها الأطراف المختلفة للنظام العالمي الجديد في مجال إنتاج الأسلحة، حيث يمكن ملاحظة الآتي على هذا الجدول :

1- إن المكانة التي تحظى بها القوى الفاعلة في النظام العالمي قبل وبعد بروز النظام العالمي الجديد تتم - إلى حد كبير - بالاستقرار حيث يلاحظ أن الدول الست الأولى التي كانت تعتبر أكبر منتج للأسلحة خلال عام 1980 هي نفس الدول الأكثر إنتاجاً للأسلحة في عام 1993، وهي : الولايات المتحدة، روسيا، بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، واليابان.

2- إن مجموعة الدول التي تهيمن على الاقتصاد العالمي والمعروفة بمجموعة الثمانية " G-8 "، هي في نفس الوقت أكبر الدول المنتجة للأسلحة، الأمر الذي يعني أن تأثير هذه الدول لا يقتصر على المجال الاقتصادي والسياسي ولكن يمتد ليشمل مجال التسلح والأمن.

3- بالرغم من أن الصين ليست عضواً في مجموعة الثمانية ، إلا أنها حققت تقدماً ملموساً في إنتاج الأسلحة ، وبالتالي يلاحظ أن مركزها في إنتاج الأسلحة قد تحول من المركز السادس عشر عام 1980 إلى المركز السابع عام 1993 . فالصين تعتبر قوة نووية إلى جانب أنها قوة اقتصادية صاعدة ، خاصة بعد ضمها إلى هونغ كونغ في نهاية القرن الماضي .

4- لا يقتصر استحواذ دول الشمال المتقدمة على الثروة والاقتصاد ، ولكنها تأتي على رأس قائمة الدول المنتجة للأسلحة ، وعليه يلاحظ أن الدول الخمس عشرة الأولى المنتجة للأسلحة عام 1980 هي نفسها خلال عام 1993 . أما بقية الدول الأخرى المنتجة للأسلحة فهي في معظمها دول نامية صاعدة مثل ، الهند ، جنوب أفريقيا ، البرازيل ، كوريا الجنوبية ، إسرائيل .

توازن القوى في إطار النظام العالمي الجديد

بالرغم من أن تفكك الاتحاد السوفيتي عام 1991 ، وبروز جمهورية روسيا الاتحادية كوارث للتركة السوفيتية من الأسلحة النووية ، إلا أن روسيا انكبت على حل مشاكلها السياسية والاقتصادية ولم تستمر في لعب دور القوى العظمى المنافسة . فروسيا تملك بالفعل ترسانة أسلحة نووية وهيدروجينية قادرة على تدمير أعدائها ، وبالتالي فإنها قادرة على أن تلعب دوراً أكثر فاعلية متى توفرت لها الإرادة السياسية والقوة الاقتصادية اللازمة لذلك . وبدلاً من أسلوب المجابهة المباشرة الذي كان يلجأ إليه الاتحاد السوفيتي سابقاً ، فإن جمهورية روسيا الاتحادية تعطي أولوية للمجال السياسي والدبلوماسي في إطار علاقتها مع أطراف النظام العالمي الجديد ، فالتناقضات لا توجد فقط بين روسيا والولايات المتحدة ، ولكنها توجد أيضاً بين الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين . وتشير أحداث أزمة وحرب الخليج الثالثة عام 2003 إلى بروز مثل هذه التناقضات في المصالح بين الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا من ناحية ، وكل من روسيا وفرنسا وألمانيا من ناحية أخرى .

جدول (1)
هيكلية الإنتاج العالمي للأسلحة حسب ترتيب الدول

المركز الأول في إنتاج الأسلحة	الولايات المتحدة الأمريكية، الاتحاد السوفيتي	الولايات المتحدة الأمريكية، جمهورية روسيا الاتحادية
المركز الثاني في إنتاج الأسلحة	بريطانيا	بريطانيا
	فرنسا	فرنسا
	ألمانيا	ألمانيا
	اليابان	اليابان
	بولندا	الصين
	إيطاليا	إيطاليا
	كندا	كندا
	تشيكوسلوفاكيا	السويد
	هولندا	إسبانيا
	إسبانيا	بلجيكا
	السويد	سويسرا
	سويسرا	جمهورية تشيك
	بلجيكا	بولندا
		هولندا
المركز الثالث في إنتاج الأسلحة	الصين	الهند
	الهند	إسرائيل
	إسرائيل	البرازيل
	يوغوسلافيا	كوريا الجنوبية
	جنوب أفريقيا	الأرجنتين
	البرازيل	تايوان
	كوريا الجنوبية	تركيا
	الأرجنتين	باكستان
	تايوان	اليونان
	تركيا	سنغافورة
	مصر	جنوب أفريقيا
	باكستان	مصر
	كوريا الشمالية	كوريا الشمالية
	سنغافورة	صربيا
	اليونان	إيران
	العراق	العراق

Source: David Held, et al., Global Transformation: Politics, Economics and Culture. (Cambridge: Polity Press, 2000), p, 118 .

إن معارضة القوى التقليدية الأوروبية للهيمنة الأمريكية في العالم العربي والعالم ككل جعلها تشكل تحالفاً سياسياً أثناء أزمة وحرب الخليج الثالثة ، حيث عارضت هذه الدول الثلاث استخدام القوة المسلحة ضد العراق إلا في إطار الشرعية الدولية ووفقاً لنصوص الباب السابع من ميثاق الأمم المتحدة . صحيح أن التحالف الروسي الفرنسي الألماني لا يرقى إلى مستوى التحالف العسكري ، ولكنه يعني بما لا يدع مجالاً للشك إمكانية وقوف القوى الكبرى ضد الهيمنة التي تتعارض ومصالحها .

وقد يكون التحالف الروسي - الفرنسي- الألماني ذا صبغة مؤقتة ، ولا يرقى إلى مستوى التحالف العسكري حيث إن لهذه الدول مصالح قوية مع الولايات المتحدة الأمريكية في الوقت الحالي ، ولكنه يذكرنا بتشكل وقيام التحالفات المضادة خلال فترة ما يعرف بتوازن القوى التقليدي (1648 - 1945) . إذن ، فالحجج التي يستند إليها أنصار وجود القطب الواحد ليس لها ما يؤيدها على أرض الواقع ، حيث إن الولايات المتحدة لا تعمل كقوة منفردة أثناء تورطها في العديد من الأزمات والحروب الإقليمية والدولية .

فالولايات المتحدة الأمريكية تتحالف باستمرار مع بريطانيا وغيرها من الدول الحليفة الأخرى خلال الحروب والأزمات التي اندلعت منذ قيام النظام العالمي الجديد ، ومن أمثلة ذلك أزمة وحرب الخليج الثانية ، أزمة وحرب البوسنة والهرسك وكوسفو ، أزمة وحرب الخليج الثالثة . ولتحديد عما إذا كان النظام العالمي الجديد يعكس وجود نظام القطب الواحد أو الأقطاب المتعددة، فإنه يمكن مقارنة الأوضاع الحالية بالنماذج النظرية المشار إليهما في أدبيات العلاقات الدولية . ويشير شكل (2) إلى الأسس التي يقوم عليها نظام القطب الواحد ، حيث يلاحظ أن هذا النمط من أنماط توازن القوى يقوم على مجموعة المبادئ الثلاثة التالية :

1- إن القطب المهيمن هو الذي يضع القواعد أولاً ، ثم يلزم الآخرين بها ثانياً ، الأمر الذي يعني أن القطب الواحد يتمتع بتأثير غير محدود على

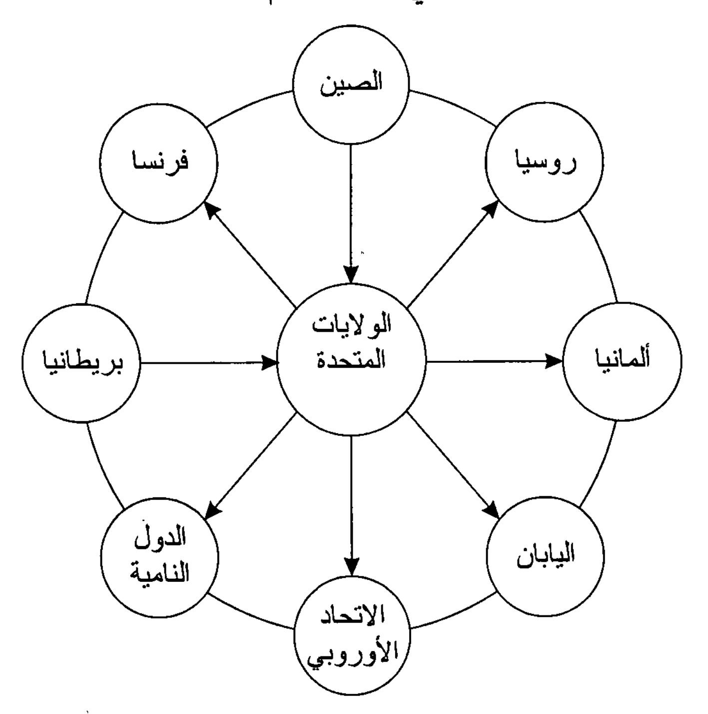
بقية أطراف النظام العالمي . وقد لاحظنا أن الولايات المتحدة الأمريكية ليس لها هذا القدر من التأثير على فواعل النظام العالمي الحالي ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك فشلها في جعل مجلس الأمن يصدر قراراً يخولها ويضفي الشرعية على عدوانها على العراق ، إلى جانب فشلها في إقناع حلفائها على طرد الدبلوماسيين العراقيين ومن أمثلة ذلك رفض اليابان للمطالب الأمريكية في هذا الشأن .

2- التفوق الاقتصادي والعسكري للقطب الواحد مقارنة ببقية الأطراف الأخرى الفاعلة في النظام العالمي ، ويلاحظ في هذا السياق أن الاتحاد الأوروبي قد احتل المركز الاقتصادي العالمي منذ الإعلان عن الوحدة الاقتصادية النقدية في نهاية العقد الأخير من القرن العشرين فالاقتصاد الأمريكي يعاني من مشاكل متعددة ولم يحقق معدلات النمو المتوقعة نظراً لاستمرار العجز في ميزان المدفوعات .

3- قدرة الطرف المهيمن على فض الخلافات التي تنشأ بين أطراف النظام العالمي الجديد بالطرق السلمية ، ويلاحظ في هذا الشأن لجوء الولايات المتحدة المفرط إلى استخدام القوة المسلحة منذ بروز النظام العالمي الجديد ، حيث إن القوات الأمريكية قد تدخلت عسكرياً في : الخليج ، الصومال ، البوسنة والهرسك ، كوسفو ، والعراق أخيراً . كما أن الإدارة الأمريكية لم تنجح في دفع العملية السلمية في فلسطين المحتلة ، ويرجع ذلك إلى ازدواجية المعايير في الموقف الأمريكي في هذا السياق .

4- مقاومة الطرف المهيمن لأي محاولات استقلالية من قبل الأطراف الأخرى في النظام العالمي ، حيث إن الهيمنة تعني السيطرة على سياسات وسلوك الآخرين ، ولكن هذا ليس بمقدور الولايات المتحدة في إطار النظام العالمي الجديد . فروسيا وفرنسا والصين ليست تابعة للولايات المتحدة ، وإن كانت تربطها علاقات مصالح ، ولذلك يلاحظ أن القوى الفاعلة في إطار النظام العالمي الجديد تتعامل على أساس المساواة لا التبعية .

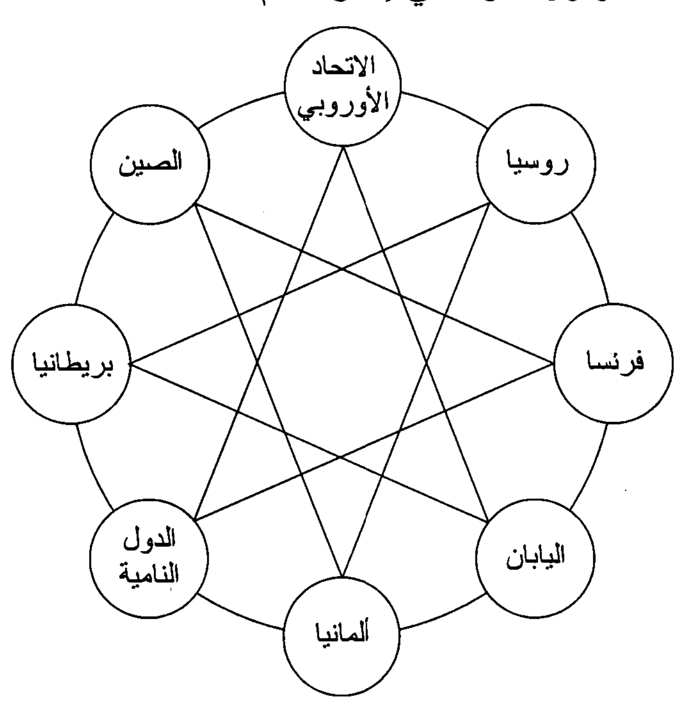
شكل (2)
توازن القوى في إطار نظام القطب الواحد



أما الشكل(3) فيشير بدوره إلى المبادئ التي يقوم عليها أي نظام لتعدد الأقطاب ، حيث يلاحظ في هذا السياق أن مثل هذا النظام يقوم على الأسس التالية :

1- معارضة قيام أي طرف أو تحالف يسعى إلى الهيمنة ، حيث إن الأطراف المعارضة تشكل بدورها تحالفاً مضاداً لمنع أي محاولة أو الحد منها للسيطرة على النظام العالمي . ويلاحظ في هذا السياق ، أن القوى العاملة في النظام العالمي الجديد تعارض المساعي الأمريكية للهيمنة ، إما في إطار مجلس الأمن أو على صعيد تشكيل تحالفات سياسية ، مثل : التحالف الروسي - الصيني ، أو التحالف الروسي - الفرنسي - الألماني المعارض لقيام الولايات المتحدة بشن حرب على العراق بدون تفويض من مجلس الأمن ، أو معارضة الإدارة الأمريكية المنفردة لعراق ما بعد الحرب .

شكل (3)
توازن القوى في إطار نظام تعدد الأقطاب



2- العمل على زيادة مستوى القوى ، أو على الأقل المحافظة على الحد الأدنى من القوى بقصد المحافظة على توازن للقوى يمنع هيمنة طرف ما على النظام العالمي. ولكي يتحقق التوازن المنشود للقوى ، يتحتم على القوى الفاعلة أن تنخرط في النظام العالمي . فالقوى الفاعلة في النظام العالم الجديد تحافظ بالفعل على توازن القوى بينها، حيث إنها تحافظ وتطور ترساناتها النووية باستمرار ولديها قوات مسلحة تقليدية تمكنها من المحافظة على الأوضاع القائمة .

3- في حالة قيام حرب بين الأطراف الفاعلة في إطار نظام توازن القوى ، فإن مثل هذه الحرب يجب ألا تقوض النظام القائم على التوازن . فالحرب في هذه الحالة لا تعني القضاء التام على الخصم ، انطلاقاً من مقولة أن عدو اليوم قد يكون حليف الغد . وبالرغم من مرور عقد من الزمان

على النظام العالمي الجديد ، إلا أن القوى الفاعلة فيه لم تصل إلى حد الانخراط في حروب مضادة ، وهذا يعكس بطبيعة الحال توافق مصالحها من ناحية ، وإدراكها لخطورة الحرب النووية من ناحية أخرى . فتوازن القوى بين الدول الفاعلة في إطار النظام العالمي الجديد ليس مجرد توازن قوى تقليدي يسمح بقيام حروب محدودة أو حتى شاملة ، ولكنه يعكس أيضاً وجود توازن رعب نووي قد تكون الحروب في إطاره مدمرة بمعنى الكلمة . فالقوى الفاعلة في إطار النظام العالمي الجديد تدرك إذن خطورة المواجهة بينها على الصعيد العسكري ، ولذلك فهي تنخرط في خلافات سياسية ومعارك دبلوماسية حامية .

توازن المصالح في إطار النظام العالمي الجديد

إن بروز النظام العالمي الجديد في بداية عقد التسعينيات من القرن العشرين دفع بالبعض إلى تأكيد أن نظام توازن القوى قد ولى وأن مخاطر الحرب لم تعد موجودة ، وبالتالي فإنهم يؤكدون على إحلال نظام توازن القوى بنظام توازن المصالح " The Balance of Interests " . لكن مرور ما يزيد عن عقد من الزمان على بروز النظام العالمي الجديد ، أوضح أن الحروب لم تختف من على سطح الكرة الأرضية ، وبالتالي فقد ساد نمط جديد لعلاقات القوى بين الأطراف الفاعلة في إطار هذا النظام .

وإذا كانت الأطراف الفاعلة في إطار النظام العالمي الجديد تتبادل مصالح مشتركة ، فإن ذلك لا يعني اختفاء الصراع والتنافس بينها حول العديد من القضايا ذات الاهتمام الخاص أو الحيوي ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك اختلاف وجهات النظر والمواقف تجاه قرار مجلس الأمن رقم 1441 بشأن العراق .

ويشير الجدول (2) إلى تحليل مضمون القرار رقم 1441 ، حيث يمكن ملاحظة التالي :

1- استحواذ الكلمات الخمس الأولى متمثلة في:

الوكالة الدولية للطاقة النووية

(15.21%) ، العراق(13.82%)، يونموفيك (12.90%) ، قـــرارات مجلس الأمن بشـــأن الأزمة العراقــية (11.98%) وأسلحـة الدمار الشــامل العراقـــية (6.0%)، على معدلات تكرار فاقت النصف، أي (59.90%). أما لو أضفنا الكلمات الخمس الأخرى، فـإن معـدلات التكــرار تصــل إلـــى (81.56%) . فمن الواضح أن محور اهتمام القـــرار 1441 قـــد انصب إذن على أسلحة الدمار الشامل العراقية وما يرتبط بها من قضايا أخرى ذات علاقة ، وبـالتالي فإن الكلمات العشــر الأولى في الجدول (2) تصل معدلات تكرارها إلى حوالي 80% .

وبـالرغم من أن قـرار مجلس الأمن يركز في المقام الأول على ضرورة نزع أسلحــة الدمار الشــامل ، إلا أن واقع الحال يشير إلى سعي الولايات المتحـــدة الأمريكية إلى تحقـــيق مصالح استراتيجية يمكن الإشــارة إليها في التالي :

(أ) العمل على إسقـاط أي نظام حـكم غير موال للولايات المتحدة سـواء كان ذلك عن طريق الشـــرعية الدوليـة ، أو عـن طريــق التدخــل المنفرد . فعندما فشـــلت الولايات المتحدة في استصدار قرار يخولها استخدام القـوة ضد العراق ، فإنها لجأت إلى شـــن حـــرب عدوانية تفتقر إلى الشرعية الدولية . بـل إن الولايات المتحـدة خالفت مبـــادئ القـــانون الدولي للحـــرب ، حـــيث قـــصفت المدنيين ، وقـــتلت الصحــافيين ، واسـتخدمت أسلحــة محرمة دولياً .

(ب) الاســتيلاء على مصادر النفط العراقية، بحيث تضمن الهيمنة على أكبـــر احـــتياطي للنفط العالمـــي. فالهيمنـــة الأمريكيـــة على مصادر النفط فـي الجزيـرة العربية والعراق تجعلها تسيطر على أكبر مخزون عالمي للنفط. لكن ذلك يثير بطبـــيعة الحـــال مخاوف الدول الكبرى الأخرى، خاصة روســيا وفرنســا اللتين لهما مصالح اســـتراتيجية في العراق وبـــــالتالي فإن هاتين الدولتين قـــد عارضتا التدخل الأمريكي في العراق .

جدول (2)
تحليل مضمون قرار مجلس الأمن رقم 1441 لعام 2002

الوكالة الدولية للطاقة النووية	33	15.21	استخدام كافة الوسائل	1	0.46
العراق	30	13.82	الإرهاب	1	0.46
يونموفيك r kj l sf`	28	12.90	المساعدات الإنسانية	1	0.46
قرارات مجلس الأمن	26	11.90	الأسرى الكويتيون	1	0.46
أسلحة الدمار الشامل	13	6.00	الممتلكات الكويتية	1	0.46
حرية التفتيش	11	5.06	وقف إطلاق النار	1	0.46
التعاون العراقي الكامل	11	5.06	السيادة	1	0.46
مجلس الأمن	11	5.06	الوحدة الترابية	1	0.46
الحكومة العراقية	8	3.68	الفصل السابع	1	0.46
مقابلات	6	2.76	تدمير الأسلحة	1	0.46
صواريخ بعيدة المدى	5	2.30	إجراء أو عمل معادي	1	0.46
يونسكوم r kp` l j	5	2.30	جمع بيانات	1	0.46
السلم والأمن الدوليان	4	1.85	عواقب وخيمة	1	0.46
عدم التعاون	3	1.40			
الأمين العام للأمم المتحدة	3	1.40			
الشعب العراقي	3	1.40			
الجامعة العربية	2	.92			
البحث والتطوير	2	.92			
			المجموع	217	%100.0

Source: David Held, et al., Global Transformation: UN Security Council Resolution 1441 on Iraq < http:// www. guardian.co.ukLIraqLstory.htm>

(ج) إعادة تقسيم العراق والجزيرة العربية بما يتمشى والمصالح الاستراتيجية الأمريكية ، عليه يلاحظ أن الولايات المتحدة قد وضعت خطة لعراق ما بعد الحرب حيث شكلت حكومة عسكرية انتقالية أمريكية بريطانية مشتركة .

(د) القضاء على أسلحة الدمار الشامل في المنطقة ، الأمر الذي يعني أن الولايات المتحدة تستهدف دولاً أخرى لديها مثل هذه التقنية ، ولذلك فإن إيران وسوريا قد تكونان الهدف التالي لما تطلق عليه الإدارة الأمريكية الحرب ضد الإرهاب .

(هـ) حماية وضمان الأمن القومي لإسرائيل ، على اعتبار أن التفوق الإسرائيلي يتطلب القضاء على أية دولة إقليمية قوية معادية ، ولذلك يلاحظ أن الإدارة الأمريكية توجه الاتهامات إلى كل من إيران وسوريا تارة بحجة مساعدة العراق أثناء الحرب ، وتارة أخرى بحجة إيواء الإرهاب أو امتلاك أسلحة الدمار الشامل .

2- التأكيد على أن القرار 1441 يعتمد في تطبيقه على القرارات السابقة التي اتخذها مجلس الأمن منذ اندلاع أزمة الخليج الثانية عام 1990 ، وبالتالي يلاحظ أن معدل تكرار قرارات مجلس الأمن يصل إلى 11.98% . فمجلس الأمن قد أصدر العديد من القرارات منذ اندلاع أزمة الخليج الثانية عام ، 1990 حيث يلاحظ أن هذه القرارات تتعامل مع الأبعاد المختلفة لأزمة وحرب الخليج ، بما في ذلك إمكانية استخدام كافة الوسائل المتاحة أو الحرب على العراق (القرار 678 لعام 1990) في حالة عدم انسحاب القوات العراقية من الكويت . فالقرار 1441 قد صدر إذاً نظراً لعدم امتثال العراق الكامل لقرارات الأمم المتحدة، وبالتالي تطلب الأمر الإشارة إلى القرارات الصادرة من مجلس الأمن بالخصوص .

3- تمحور معظم الكلمات المشار إليها في الجدول (2) حول أسلحة الدمار الشامل ، حيث يلاحظ في هذا السياق أن معدلات كلمات مثل ، أسلحة الدمار 6.0% ، الوكالة الدولية للطاقة

النووية 15.21% ، اليونموفيك 12.90% حرية التفتيش 5.06% ، التعاون العراقي الكامل 5.06% ، الصواريخ بعيدة المدى 2.30% ، واليونسكوم 2.30% تصل إلى حوالي نصف معدل التكرارات ، أي 48.80% .

4- يميز القرار 1441 بين العراق كدولة عليها التزامات محددة تجاه الجماعة الدولية ، والعراق كحكومة تسيطر على الأوضاع القائمة بحيث يمكنها المساعدة في تنفيذ بنود القرار المشار إليه ، وبالتالي يلاحظ أنه بينما وصل معدل تكرار كلمة العراق إلى 13.82% ، فإن معدل تكرار الحكومة العراقية يصل بدوره إلى 3.68% . فالعراق سواء كان دولة أو حكومة عليه التزامات محددة تجاه القرار رقم 1441 ، ولذلك فإن عملية الإخلال بمثل هذه الالتزامات ستطال العراق كدولة أو حكومة .

5- تأكيد القرار 1441 على أهمية عملية اكتساب التقنية المتعلقة بتطوير أسلحة الدمار الشامل ووسائل نقل أو توزيع مثل هذه الأسلحة ، عليه فإن القرار قد أكد على كلمات مثل : ضرورة إجراء مقابلات مع العلماء العراقيين (2.76%) ، التعاون العراقي الكامل فيما يتعلق بتسهيل مهمة لجان التفتيش بما في ذلك تسهيل عملية مقابلة العلماء العراقيين (5.06%) ، وعلى وضع قيود على عملية البحث والتطوير العراقي (0.92%) وعدم قيام السلطات العراقية بأية أعمال عدائية تعوق لجان التفتيش من إجراء المقابلات اللازمة مع هؤلاء العلماء (0.46%) ، وأهمية عملية جمع البيانات والوثائق اللازمة عن برنامج التسلح العراقي (0.46%) .

6- عدم إعطاء القرار المشار إليه أهمية ملحوظة لمعاناة الشعب العراقي ، حيث لم يرد ذكر هذه الكلمة إلا ثلاث مرات (1.40%) ، مع العلم بأن معاناة هذا الشعب قد وصلت ذروتها نتيجة لارتفاع الوفيات بين الأطفال ، وعدم وصول المواد الغذائية بالشكل المطلوب ، وضرورة توفير المساعدات الإنسانية (0.46%) .

7- ربط الأزمة العراقية بمسألة تهديد السلم والأمن الدوليين (1.85%) ،

الأمر الذي يعني ضرورة تطبيق الباب السابع من ميثاق هيئة الأمم المتحدة (0.46%) على الأزمة العراقية ، وما قد يترتب على ذلك من استخدام القوة المسلحة وزيادة معاناة الشعب العراقي . ويلاحظ في هذا السياق مدى التأثير الأمريكي - البريطاني في صياغة القرار ، حيث إن بقية أعضاء مجلس الأمن كانوا يفضلون تطبيق الباب السادس من الميثاق المذكور والمتعلق بفض الخلافات بالطرق السلمية مع إعطاء فرصة كافية للمفتشين الدوليين .

8- بالرغم من التأثير الأمريكي - البريطاني الملحوظ على صياغة القرار رقم 1441 ، إلا أنه يلاحظ أن القرار يشتمل على كلمات تجسد التأثير الملحوظ لبقية أعضاء مجلس الأمن ، لاسيما الدول دائمة العضوية الأخرى مثل : روسيا ، فرنسا ، والصين . فالتأكيد على الوحدة الترابية (0.46%) والسيادة (0.46%) تعكس إلى حد كبير الموقف الروسي - الفرنسي - الصيني الرافض لأي محاولة لتقسيم العراق .

9- أهمية الدور الذي يلعبه مجلس الأمن في إدارة الأزمات الدولية ، ولذلك يلاحظ أن بيانات الجدول (2) تشير إلى ارتفاع معدل تكرار مجلس الأمن (5.06%) ، وضرورة انصياع العراق لتطبيق كافة القرارات التي أصدرها مجلس الأمن منذ عام 1990 (11.98%) . فمجلس الأمن قد أصدر العديد من القرارات منذ اندلاع أزمة الخليج الثانية في أغسطس 1990 ، الأمر الذي يعني تلاقي مصالح الدول الخمس دائمة العضوية في إطار النظام العالمي الجديد . فبعد أن كان مجلس الأمن شبه معطل بسبب إسراف القوتين العظميين في استخدام حق النقض أو الفيتو خلال ما يعرف بفترة الحرب الباردة (1945 - 1990) ، فقد دبت الحيوية من جديد في هذه المؤسسة الدولية التي أوكل إليها الميثاق الأممي مهمة المحافظة على السلم والأمن الدوليين ، وأصبحت بذلك تصدر القرار تلو القرار تجاه أزمة الخليج وغيرها من الأزمات الدولية الأخرى .

ويشير رقم القرار محل الوصف والتحليل إلى أن مجلس الأمن قد أصدر قرارات خلال السنوات (1990 - 2002) تزيد عما أصدره من قرارات خلال الأعوام (1945 - 1990)، فبينما وصل معدل إصدار مجلس الأمن للقرارات خلال الفترة (1945 - 1990) حوالي 15 قراراً سنوياً، يلاحظ أن المعدل السنوي لإصدار القرارات خلال الأعوام 1990 - 2002 قد وصل إلى 65 قراراً، وبالتالي يلاحظ أن إصدار مجلس الأمن للقرارات قد تضاعف إلى حوالي أربع مرات أو معدل 411%. ولا يعني ذلك أن القرارات التي يصدرها مجلس الأمن سواء كانت في الفترة الأولى أو الفترة الثانية المشار إليها أعلاه كلها تتعلق بإدارة الأزمات الدولية وحفظ السلم والأمن الدوليين، ولكن ما يمكن التأكيد عليه في هذا السياق أن الحيوية والنشاط قد عادت إلى مجلس الأمن بسبب حالة الاتفاق بين القوى الفاعلة في إطار النظام العالمي الجديد.

10- بالرغم من تدني معدل تكرار كلمة العواقب الوخيمة " Serious Consequences " حيث وصل معدل تكرارها مرة واحدة فقط في إطار الفقرة الثالثة عشرة من القرار 1441 أو (0.46%)، إلا أن هذه الكلمة كانت ولا تزال مثار خلاف بين كل من الولايات المتحدة وبريطانيا من ناحية، وروسيا وفرنسا والصين من ناحية أخرى. فبينما يصر المنظور الأمريكي - البريطاني على إعطاء المجلس الحق في استخدام القوة العسكرية الفورية، يلاحظ أن المنظور الروسي - الفرنسي يؤكد على أن استخدام القوة المسلحة كان ومازال يعتبر الخيار الأخير وأن الأمر يحتاج بالتالي إلى ضرورة استنزاف كافة الوسائل الدبلوماسية والسياسية. وبالرغم من أن العديد من الأدبيات تؤكد على وجود توافق تام في المصالح بين الدول الخمس دائمة العضوية في إطار مجلس الأمن، إلا أن بعض الدراسات الأخرى تؤكد على استمرار وجود هامش من الصراع داخل وخارج مجلس الأمن . ولقد زادت حدة هذا

الخلاف في إطار القرار رقم 1441 أو ما تلاه من قيام الولايات المتحدة وبريطانيا بشن حرب عدوانية على العراق 2003/3/17.

مستقبل النظام العالمي الجديد: هيمنة أم تعددية

يعكس مستقبل النظام العالمي الجديد ثلاثة سيناريوهات تتراوح ما بين التشاؤم والتفاؤل. ولكي يتم استشراف مستقبل النظام العالمي الجديد، فإنه سنتناول في هذا المحور من محاور هذه الدراسة السيناريوهات الثلاثة التالية على التوالي:

1- سيناريو بقاء الأوضاع على ما هي عليه، أو سيناريو استمرار حالة السيولة الدولية.

2- سيناريو بروز القطب الواحد المهيمن.

3- سيناريو بروز عالم متعدد الأقطاب.

1- سيناريو بقاء الأوضاع على ما هي عليه:

لاشك أن النظام العالمي الجديد مازال يعيش في حالة سيولة تعكس حالة المخاض المستمر التي يعيشها عالمنا المعاصر منذ انهيار الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى. فعلامات التفاعل بين أطراف النظام العالمي لم تحسم لصالح الولايات المتحدة، حتى يمكن القول بأن ما يوجد الآن هو نظام القطب الواحد. فكما لاحظنا لم تتوفر شروط نظام القطب المهيمن على النظام العالمي المعاصر، ولذلك يتوقع أن تستمر حالة السيولة الدولية دون أن يحسم الأمر لصالح قوة بعينها لكي تهيمن على النظام العالمي الجديد. وبالرغم من أن روسيا تملك قوة عسكرية موازية للولايات المتحدة، إلا أنها ستستمر وفقاً لمنظور هذا السيناريو في محاولاتها للتغلب على مشاكلها الاقتصادية والسياسية والأثنية. كما أن انشغال الصين بمشاكلها الداخلية والإقليمية وخصوصية علاقتها الاقتصادية والتجارية مع الولايات المتحدة سيعوق عملية تحولها إلى قوة عالمية مهيمنة. وبالرغم من نزعة فرنسا الاستقلالية، إلا أن علاقتها الاستراتيجية مع الولايات المتحدة في إطار حلف شمال الأطلسي يتوقع أن تكون عاملاً مؤثراً في سياستها المستقبلية. باختصار، إن استقراء مستقبل النظام العالمي الجديد

وفق منظور هذا السيناريو يشير إلى استمرار حالة السيولة الدولية دون حسم الأمر لقوة فاعلة بعينها ، نظراً لعدم توفر شروط نظام القطب المهيمن في أي من دول عالمنا المعاصر بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية .

2- سيناريو القطب الواحد المهيمن :

ستستمر الولايات المتحدة وفقاً لهذا السيناريو في بسط نفوذها العالمي وفرض سيطرتها على القوى الفاعلة بحيث تتمكن في نهاية المطاف من أن تصبح في مركز النظام العالمي الجديد بدون منازع . ومادامت تملك مقومات القوة المهيمنة ، فإن الدول الأخرى ستقر لها بالهيمنة واحتلال مركز النظام العالمي . فالولايات المتحدة الأمريكية وفقاً لتوقعات هذا السيناريو ستملك القدرة الملائمة ، سواء كانت عسكرية أو اقتصادية أو ثقافية ، إلى جانب امتلاكها لقوة التأثير على الآخرين بحيث تجعل الجميع يفعل ما تراه مناسباً ومتمشياً مع مصالحها . عليه ، فإن احتلال الولايات المتحدة الأمريكية لمركز النظام العالمي سيكون على حساب قوة بقية فواعل النظام العالمي الأخرى ، ولذلك يتوقع أن تصبح مثل هذه القوى في هامش النظام العالمي الجديد .

فالولايات المتحدة الأمريكية ستتوفر فيها شروط نظام القطب الواحد المهيمن على مستوى توفر القدرات المادية ، سواء كانت اقتصادية أو عسكرية أو لوجستية . فالاقتصاد الأمريكي يمكن أن يتعافى ويتغلب على كل المشاكل التي تواجهه الآن ، ولذلك يبقى في مركز النظام الاقتصادي العالمي . كما أن القوة العسكرية الأمريكية ستحافظ على تفوقها الكمي والنوعي على المستويين النووي والتقليدي ، لاسيما بعد الحصول على قواعد عسكرية في مناطق جديدة ، مثل القوقاز والعراق . ونتيجة للقوة الاقتصادية والعسكرية ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية ستستمر في فرض ثقافتها وأيديولوجياتها على بقية دول العالم تارة عن طريق الترغيب ، وتارة أخرى عن طريق التهديد .

كما يتوقع أن يزداد التأثير الأمريكي نظراً لوجود القوة المادية المطلوبة .

فالهيمنة والتأثير الأمريكي لن يقتصرا وفق منظور هذا السيناريو على الحلفاء التقليديين ولكنهما سيمتدان ليشملا أيضاً دولاً منافسة ، مثل جمهورية روسيا الاتحادية وجمهورية الصين الشعبية والدول الأخرى المعارضة لسياسات الولايات المتحدة الأمريكية المعروفة بالدول المارقة . وبالطبع ستستغل الولايات المتحدة الأمريكية انتصارها العسكري في العراق ضد الدول المعارضة لسياساتها العدوانية وفق المقولة الشهيرة للرئيس جورج بوش الإبن :

" من ليس معنا فهو عدونا ".

3- سيناريو بروز نظام متعدد الأقطاب:

إذا أمكننا أن نصف السيناريو الأول الذي يتوقع استمرار حالة السيولة الدولية بالمشهد المعتدل ، وأن السيناريو الثاني يمكن وصفه بالمتشائم ، فإن المشهد الثالث يمكن وصفه بالسيناريو المتفائل . ففي إطار هذا المشهد يتوقع أن تستمر كافة أطراف النظام العالمي المعاصر في زيادة قواتها ، وأن تتغلب على مشاكلها الاقتصادية والسياسية ، وبالتالي تصبح نداً للولايات المتحدة ، وأن تتوفر لها الإرادة السياسية في أن تصبح قوى دولية فاعلة . كما يتوقع في إطار هذا السيناريو أن تكثر عملية اللجوء إلى بناء التحالفات السياسية والعسكرية لمواجهة القوى الأكثر فاعلية في إطار النظام العالمي الجديد، ولذلك فإن تطبيق قواعد نظام تعدد الأقطاب ستصبح أمراً ميسراً .

ولا يعني ما سبق أن الحرب كوسيلة متاحة لتحقيق التوازن ستكون على غرار ما كان موجوداً في إطار نظام توازن القوى التقليدي ، نظراً لخطورة مفهوم الحرب الشاملة في العصر النووي . ولكن سيسمح نظام توازن القوى في هذا الإطار باستخدام أسلحة تقليدية متطورة وأخرى نووية ذات طابع تكتيكي . وستتحول روسيا وفق هذا السيناريو إلى قوة دولية بدلاً من قوة إقليمية ، لاسيما وأنها تملك ترسانة نووية توازي ما لدى الولايات المتحدة . كما أن الصين ، وفرنسا ، وألمانيا ، واليابان يتوقع أن

تتحول إلى قوى أكثر فاعلية في إطار هذا السيناريو .

عليه ، فإن سماح مشهد نظام توازن القوى بقيام التحالفات سيؤدي إلى بروز محاور قادرة على مجابهة الطرف الأقوى ، ومن أمثلة ذلك قيام تحالف روسي - ألماني أو صيني - ياباني . فالقوة الاقتصادية لألمانيا أو اليابان في حالة تحالفها مع القوة العسكرية لروسيا أو الصين أو فرنسا سينتج عنها بروز تحالفين قادرين على مواجهة الولايات المتحدة ، وهذا يعني بروز نظام متعدد الأقطاب . كما أن تحقق الوحدة الاقتصادية والنقدية لدول الاتحاد الأوروبي ، وبروز النزعة الاستقلالية لدول أوروبية فاعلة ، مثل فرنسا وألمانيا وبلجيكا ، واستمرار اتساع الهوة بين الرأي العام الأوروبي الرافض للهيمنة الأمريكية والمواقف الأوروبية الرسمية الموالية للسياسة الأمريكية لدول مثل بريطانيا وأسبانيا وإيطاليا سيساهم في نهاية المطاف في بروز قطب دولي فاعل يمكنه مواجهة الهيمنة الأمريكية التي تتعارض والمصالح الأوروبية .

الخلاصة والنتائج

لقد مر العالم بنماذج مختلفة لتوازن القوى عبر التاريخ ، حيث إن أدبيات العلاقات الدولية تشير إلى بروز أربعة نظم مختلفة هي على التوالي :

1- نظام القطب المهيمن .
2- نظام القطبين المهيمنين .
3- نظام الأقطاب الثلاثة .
4- نظام تعدد الأقطاب .

ويلاحظ أن النظام العالمي الجديد لا يعكس أياً من الأنماط الأربعة السالفة الذكر الأمر الذي يعني أنه مازال في طور التشكل والبلورة . فالولايات المتحدة ليست القطب المهيمن ، حيث يلاحظ أن قواعد نظام القطب المهيمن لا تتوفر فيها سواء من حيث عامل القدرة أو من حيث متغير التأثير والنفوذ على القوى الأخرى الفاعلة في إطار النظام العالمي الجديد .

كما أن تفكك الاتحاد السوفيتي عام 1991 وانشغال جمهورية روسيا الاتحادية بهمومها الداخلية أنهى ما كان يسمى بنظام القطبين ، حيث أصبحت الولايات المتحدة قوة عظمى وحيدة . لكن يلاحظ أيضاً أن الولايات المتحدة

الأمريكية ليست القوة الفاعلة الوحيدة في إطار النظام العالمي الجديد ، حيث لا يمكن في هذا السياق تجاهل دور قوى فاعلة أخرى ، خاصة روسيا ، الصين ، فرنسا ، بريطانيا ، اليابان ، وألمانيا . فهذه القوى الفاعلة يمكنها أن تمنع أية هيمنة أمريكية عن طريق تشكيلها لتحالفات سياسية أو عسكرية متى تعرضت مصالحها للخطر . فالحرب الأخيرة في الخليج أظهرت مثلاً إمكانية تشكل تحالف سياسي ضد التدخل الأمريكي - البريطاني في العراق حيث عارضت كل من روسيا وفرنسا وألمانيا صراحة الهيمنة الأمريكية . وبالرغم من أن البعض يشكك في مدى جدية التحالف الروسي - الفرنسي - الألماني ، نظراً لتوافق مصالح هذه الدول مع الولايات المتحدة ، إلا أنه يمكن التأكيد على أن مجرد بروز مثل هذا التحالف ورفض العديد من دول العالم للمطالب الأمريكية بخصوص طرد الدبلوماسيين العراقيين إلى جانب المعارضة الرسمية والشعبية للعدوان الأمريكي على العراق يؤكد على عدم توفر معطيات نظام القطب الواحد من ناحية ، ويؤكد على عدم تشكل نظام متكامل لتعدد القوى من ناحية أخرى .

إذن ، فما نشهده اليوم بالفعل يعكس وجود حالة سيولة دولية هي أقرب إلى نظام تعدد القوى منها إلى نظام القطب الواحد المهيمن ، وبالتالي فإن نتائج هذه الدراسة تميل إلى الأخذ بمقولات المشهد الثالث المتسم بالتفاؤل .

إذن ، فتوافق مصالح القوى الفاعلة في إطار النظام العالمي الجديد لا يتسم بالاستمرارية ، ولذلك يلاحظ أن مواقف وسياسات بعض الدول قد تغيرت بشكل ملحوظ . ففرنسا قد شاركت مثلاً بقوات ملحوظة أثناء حرب الخليج الثانية عام 1992 ، لكنها لم تفعل نفس الشيء في حرب الخليج الثالثة عام 2003 ، الأمر الذي يعني أن النظام العالمي الجديد يتسم بوجود صراع وتنافس بين فواعله . إن زيادة حدة التنافس والصراع بين القوى الفاعلة في إطار النظام العالمي الجديد سيدعم حتماً من فرص وجود تحالفات سياسية أو حتى عسكرية ، الأمر الذي يعني في نهاية المطاف بروز نظام متعدد الأقطاب ، وهذا يؤكد على مصداقية الفرضية المثارة لهذه الدراسة .

الهوامش

(1) لقد غيرت عملية إلقاء الولايات المتحدة الأمريكية قنبلتين نوويتين على كل من هيروشيما ونجازاكي توازن القوى من نظام تقليدي إلى ما يعرف بتوازن الرعب النووي القائم على فكرة الضربة الأولى والضربة الثانية ولمعرفة المزيد عن ذلك ، انظر للمؤلف :
مصطفى عبد الله أبو القاسم خشيم ، موسوعة علم العلاقات الدولية : مفاهيم مختارة ، طرابلس ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، 1996 ، ص 77 - 80 .

(2) لقد أكد الفكر السياسي الهندي منذ القدم ، أي قبل نيقولا ميكافيللي بكثير ، على مبدأ فصل الأخلاق والدين عن السياسة أو ما يعرف بالفكر الواقعي ، ولمعرفة المزيد عن ذلك ، انظر على سبيل المثال لا الحصر :
بطرس بطرس غالي ، ومحمود خيري عيسى ، المدخل في علم السياسة ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1990 ، ص 26 - 27 .

(3) لولا وجود واستمرار علاقات الصراع والتفاعل بين أطراف النظام العالمي لما برز وتطور علم العلاقات الدولية بالشكل المتعارف عليه اليوم . فالباحثون في مجال علم العلاقات الدولية يطورون ويطبقون أطرا نظرية مختلفة لدراسة السلوك الدولي المليء بالتناقضات والصراعات وبالتالي يلاحظ أن علم العلاقات الدولية قد أحرز تقدماً ملموساً في هذا السياق .

(4) تؤكد العديد من الأدبيات على مقولة انفراد وهيمنة الولايات المتحدة على النظام العالمي الجديد استناداً إلى الممارسات والإسراف في استخدام القوة المسلحة في إطار العديد من الأزمات الإقليمية والدولية خلال العقد الأخير من القرن العشرين ، ولمعرفة المزيد عن ذلك انظر على سبيل المثال لا الحصر :

John T. Rourke and Marr A. Boyer, World politics: International Politics on the World Stage, brief. Dushkin: McGraw-Hill, 2000 K pp 212 - 215 .

(5) يعكس الإطار النظري لهذه الدراسة أبعاداً متعددة ، حيث إنه ستتم الاستعانة بمداخل " Approaches" مختلفة ، مثل : الواقعي ، المثالي والتكامل ؛ ومناهج متعددة ، مثل : الوصفي ، التحليلي ، والمقارن ؛ وأساليب بحث متفاوتة ، مثل : المكتبة ، الإنترنت ، وتحليل المضمون ، ولمعرفة المزيد عن ذلك ، انظر للمؤلف :

مصطفى عبد الله أبو القاسم خشيم ، مناهج وأساليب البحث السياسي ، طرابلس ، الهيئة القومية للبحث العلمي ، 1966.

(6) لمعرفة المزيد عن أزمة الخليج الثانية ، انظر للمؤلف :

مصطفى عبد الله أبو القاسم خشيم ، قضايا وأزمات دولية معاصرة : النظرية والتطبيق ، طرابلس ، منشورات الجامعة المفتوحة ، 1996 ، ص 256 - 297 .

(7) مارسيل سيرل ، أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد ، ترجمة حسن نافعة ، القاهرة ، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية ، 1992 ، ص 13 .

(8) المختار مطيع "محاولة في تفسير طبيعة النظام العالمي الجديد وموقع العرب منه" ، مجلة الوحدة 8 ، 90 ، مارس 1992 ، ص 16 - 24 .

(9) ياسين العيوطي ، أفريقيا في عالم ما بعد الحرب الباردة ، السياسة الدولية 106 ، أكتوبر 1991 ، ص 26 - 34 .

(10) لمعرفة المزيد عن قوات التدخل السريع الأوروبية ، انظر للمؤلف :

مصطفى عبد الله أبو القاسم خشيم ، الشراكة الأوروبية المتوسطية ، النتائج وردود الأفعال ، بيروت ، معهد الإنماء العربي ، 2002 ، ص 161 - 174 .

(11) يستخدم مفهوم القوة وفقاً لمفهوم روزناو ، حيث إنه يعني من ناحية القدرة "Capability" أو القوة العسكرية والاقتصادية ، ويعني من ناحية أخرى مدى التأثير على سلوك الآخرين ، ولمعرفة المزيد عن ذلك ، انظر في :

James Rosenau, " Capabilities and Control in an Interdependent World " in R. Matthews, et. Al. (Eds.), International Conflict Management . (ontario: Prentice - Hall, 1989) .

(12) انظر للمؤلف: مصطفى عبد الله أبو القاسم خشيم ، الشراكة الأوروبية - المتوسطية ، ترتيبات ما بعد برشلونة ، بيروت ، معهد الإنماء العربي ، 2002 ، ص 139 - 140 .

(13) لقد طور الماركسيون الجدد نظرية المركز والأطراف ، ولمعرفة المزيد عن ذلك انظر في :

Peter Evans, Dependent Development : The Alliance of Multinational, State, and Local Capital in Brazil.

(14) لقد تنامت المشاعر المعادية للولايات المتحدة "Anti-Americanism" منذ نهاية الحرب العالمية الثانية نتيجة لسياساتها الإمبريالية وتدخلها في شؤون الدول الأخرى .

(15) انظر للمؤلف : مصطفى عبد الله أبو القاسم خشيم ، الشراكة الأوروبية - المتوسطية ، ترتيبات ما بعد برشلونة ، بيروت ، معهد الإنماء العربي ، 2002 ، ص 267 - 272 .

(16) لمعرفة المزيد عن التأثير العالمي لليابان ، انظر في :

Taketsugu Tsurutani, Political Change in Japan: Response to postindustrial Challenge. New York K Longman, 1977.

(17) Joshua Goldstein, Long Cycles, Prosperity and war in the Modern Age. New Haven: Yale University Press, 1988, and Joseph Nye, " The Changing Nature of World Power", Political Science Quarterly 105, 2, 1990 .

(18) Barry Buzan, " New Patterns of Global Security in the Twenty - First Century", International Affairs 67, 3, July 1991, and William Pfaff, " Redefining World Power, " Foreign Affairs 70, 1, 1991 .

(19) David Harvey, "Time - Space Compression and the Postmodern Condition, " in The Global Transformations : Reader, Edited by David Held and Anthony McGrew (Cambridge: Polity Press, 2001), p. 86 .

(20) صادق الأسود ، " الوحدة الأوروبية ، معطيات الحاضر وأبعاد المستقبل " ، مجلة آفاق 12 ، ديسمبر ، 1992 ، ص 30 - 39 .

(21) لمعرفة المزيد عن أداء الاقتصاد العالمي ، انظر في :

Manuel Castells, " The Global Economy:, in The Global Transformations Reader : An Introduction to the Globalization Debate, op. Cit. P. 259 - 273 .

(22) John T. Rourke and Marr A. Boyer, World Politics: International Politics on the World Stage, brief. (Dushkin: McGraw-Hill, 2000), p. 312 .

(23) بينما وصل عدد الرؤوس النووية الاستراتيجية لدى جمهورية روسيا الاتحادية عام 1998 إلى 6240 ، يلاحظ أن الولايات المتحدة تملك في المقابل 7250 . أما فيما يتعلق بعدد الصواريخ والطائرات العابرة للقارات فقد وصل في نفس العام إلى 1205 بالنسبة لروسيا ، 1074 بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية . كما تملك كلا القوتين الآلاف من القنابل النووية التكنيكية ، وبالتالي يلاحظ أن قدراتها النووية لا يمكن مقارنتها بما تملكه الدول النووية الأخرى ، مثل : الصين ، وفرنسا ، وبريطانيا ، ولمعرفة المزيد عن ذلك انظر في :

John T. Rourke and Mark A. Boyer, op. Cit., P. 275 - 276 .

(24) انظر في هذا الشأن للمؤلف :

مصطفى عبد الله أبو القاسم خشيم ، " علاقات التفاعل بين أعضاء مجلس الأمن في إطار النظام العالمي الجديد : حالة أزمة وحرب الخليج " المستقبل العربي 168 ، فبراير 1993 ، ص 71 - 87 .

(25) لمعرفة المزيد عن المستقبل والسيناريوهات ، انظر أيضاً للمؤلف :

مصطفى عبد الله أبو القاسم خشيم ، الشراكة الأوروبية المتوسطية : النتائج وردود الأفعال ، بيروت ، معهد الإنماء العربي ، 2002 ، ص 319 - 355 .

أزمة الأخلاقيات الدولية في ظل النظام العالمي الجديد

د. زايد عبيد الله مصباح
أستاذ العلاقات الدولية المشارك
بجامعة الفاتح - طرابلس

مقدمة:

إن الحديث عن المسألة الأخلاقية في العلاقات الدولية يعد أمراً مثيراً للجدل بسبب اختلاف وجهات النظر فيما يتعلق بمفهوم الأخلاق، إلى جانب ما يكتنف هذا الموضوع من صعوبات قد تواجه الباحث على المستويات كافة .

ذلك أن الدول في المجتمع الدولي ، كالأفراد في المجتمع الوطني ، تحرص دائماً على سمعتها الأخلاقية فتسعى بكل السبل المتاحة إلى تبرير سلوكياتها في البيئة الدولية ولا ترضى بأن توصف بـ " اللاأخلاقية" . فعلى سبيل المثال لم نسمع عن دولة قد أعلنت عن عزمها إرسال بعثة تجسسية إلى دولة أخرى ، مع أن واقع الممارسة كثيراً ما يكشف لنا عن تورط بعض من المبعوثين الدبلوماسيين في أعمال تجسسية ، الأمر الذي يتنافى مع مبدأ الدبلوماسية المكشوفة وما نصت عليه اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية المبرمة في عام 1961 . كما أن الدول عندما يشن بعضها على بعض حروباً عدوانية عادة ما تندفع وتتذرع بمبررات مختلفة تحاول من خلالها إخفاء حقيقة نواياها العدوانية .

والواقع أن حركة التفاعل الدولي التي يشهدها النظام السياسي العالمي تتضمن مظهرين من مظاهر السلوك الدولي ، الأول يتمثل في سمة التعاون الذي تحتمه مقتضيات المصالح المشتركة ، والثاني

يتجلى في النزعة الصراعية التي تفرضها أهداف السياسات الخارجية المنطلقة من بواعث تحقيق المصالح القومية . فالدول تسعى في كل الظروف إلى كسب أكبر قدر ممكن من القيم الدولية المختلفة ، وأقصد بالقيم هنا كل المنافع أو المكاسب المادية والمعنوية المتاحة في معترك السياسة الدولية على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية . فالسياسة الدولية في جوهرها هي صراع من أجل هذه القيم التي تبرز في مقدمتها مطامح كسب النفوذ العالمي .

إن مسألة التنافس على القيم الدولية ترتبط في الأساس بدوافع المصالح القومية للدول ، وبالتالي فإنه من الممكن تناولها في إطار دائرتين متداخلتين ومتقاطعتين تتمثل إحداهما في الوجه المثالي لحركة التفاعل الدولي وهي بطبيعتها دائرة ضيقة، بينما تتمثل الدائرة الأخرى الأكثر اتساعاً في المظهر الواقعي لهذه الحركة الذي يكون غالباً على المظهر المثالي في واقع الممارسة بسبب تضارب المصالح بين الدول ووجود مظاهر الصراع والتصادم بينهما في حالات تفوق الحالات التي قد تشهد بعضاً من مظاهر التعاون .

وتأسيساً على ما سبق ، فإن موضوع الأخلاقيات الدولية يكون جديراً بالبحث ، خاصة في ظل المعطيات الدولية الراهنة التي تؤكد أن العالم أصبح يعيش في إطار نظام عالمي جديد يرتكز على أساس الأحادية القطبية . فبروز القطب الأوحد المتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية يثير أمامنا سؤالاً رئيسياً أو إشكالية بحثية تتمثل في علامة الاستفهام التالية :

ما الذي أظهرته سلوكيات السياسة الخارجية الأمريكية في ظل النظام العالمي الجديد ؟ هل أظهرت سلوكيات تعكس المعايير الأخلاقية ، أم أظهرت سلوكيات تجسد أولويات مصالحها القومية على حساب مصالح الدول الأخرى وتضعها في دائرة اللاأخلاقيات الدولية ؟

وفي صدد تناول هذه الإشكالية ، فإن هذه الدراسة تنطلق من فرضية مفادها : إن أحادية الدور الأمريكي في ظل النظام العالمي الجديد من شأنها أن تترك انعكاسات سلبية على واقع الأخلاقيات الدولية في حركة التفاعل الدولي .

بيد أن دراسة هذه الإشكالية تفرض علينا بعضاً من القيود المنهجية التي يأتي

في مقدمتها التركيز على سلوكيات السياسة الخارجية الأمريكية دون الدول الأخرى وذلك بحكم أن الولايات المتحدة الأمريكية تمثل القطب الأوحد في ظل النظام العالمي الجديد ومن ثم فهي تمثل دور الفاعل الرئيسي المؤثر في حركة النفوذ العالمي .

كما أن طبيعة الدراسة وهدفها يتطلبان من الناحية التحليلية معالجة الإشكالية في إطار أربعة محاور أساسية ، الأول منها يتناول مفهوم الأخلاقيات الدولية ، والثاني يستعرض الجدل الفكري بشأن مسألة الأخلاقيات الدولية، بينما يقدم المحور الثالث مدخلاً تاريخياً لدراسة الارتباط التأثيري بين القطبية الأحادية والأخلاقيات الدولية ، ويركز المحور الرابع على انعكاس أحادية الدور الأمريكي على الأخلاقيات الدولية في ظل النظام العالمي الجديد.

أولاً- مفهوم الأخلاقيات الدولية:

يعتبر موضوع الأخلاقيات الدولية "International Morale" من المواضيع المثيرة للجدل، سواء على مستوى التنظير أو على مستوى الممارسة، وذلك بسبب اختلاف وجهات النظر فيما يتعلق بالمسألة الأخلاقية أساساً. ولعل ذلك يرجع في المقام الأول إلى اختلاف الثقافات والمنطلقات القيمية إلى جانب قلة المرجعيات أو المصادر الخاصة بالأخلاقيات الدولية . فاختلاف الثقافات بين الأمم يؤدي بطبيعة الحال إلى اختلاف المعايير التي من خلالها يتم النظر إلى المسألة الأخلاقية .

وفي هذا الصدد هناك من يرى أنه " .. من العسير أن يتفق الناس في مختلف أنحاء الأرض ، على معايير أخلاقية واحدة نظراً لاختلاف القيم والثقافات والأديان وغير ذلك من مقومات تلك المعايير .. " .

بيد أن ذلك لا يعني عدم وجود اتفاق ، ولو في الحد الأدنى ، على المنطلقات أو المبادئ الأساسية للأخلاقيات الدولية . وهذا ما يمكن إدراكه من خلال تفحص أدبيات العلاقات الدولية . فهناك من يعرّف الأخلاقيات الدولية بأنها " مجموعة المبادئ التي تسود القانون الدولي العام ويمليها الضمير الإنساني ، والتي يترتب على الدول المتمدنة مراعاتها في علاقاتها المتبادلة حرصاً على صيانة مصالحها الدائمة والأساسية ، وهي تحتل مكاناً

وسطاً بين أحكام القانون الدولي الإلزامية وبين مقتضيات المجاملة الاختيارية " .

ومن أبرز وأهم المبادئ التي تشكل مضمون الأخلاقيات الدولية ما يلي :

1- احترام العهود والوعود والابتعاد عن أساليب الكذب والتحايل والخداع .
2- التعامل على أساس مراعاة كرامة الآخر وتجنب التطرف والتعصب في المبادئ السياسية والوطنية .
3- العدالة في سلوكيات التعامل مع بقية وحدات المجتمع الدولي .
4- التضامن في المواقف بسبب التداخل وتشابك المصالح الدولية .
5- التعاون المتبادل الذي يعني تلبية نداءات النجدة والمساعدة في حالات السلم والعناية بالأسرى والجرحى في حالات الحرب .
6- الاحترام المتبادل الذي يتضمن احترام استقلال الشعوب وحقها في الحياة والتنمية وتحقيق التقدم .

فالأخلاقيات الدولية تدور في معانيها حول الصدق والوفاء بالعهود واحترام حقوق الأمم في الحياة والتنمية وتحقيق الرخاء والتقدم ، وكذا الالتزام بالمواثيق الدولية والتعامل بنزاهة وبدون تحيز مع بقية أطراف المجتمع الدولي ومراعاة القيم الإنسانية بما في ذلك كرامة وحقوق الإنسان في كل الظروف سواء في حالات السلم أو في حالات الحرب .

وهكذا يمكن القول ، إنه من الناحية النظرية ، يوجد إطار مفاهيمي للأخلاقيات الدولية . بيد أن ذلك يظل أمراً مثيراً للجدل فيما يتعلق بواقع الممارسة الدولية، وهذا ما يتناوله المحور الثاني من هذه الدراسة .

ثانياً- الجدل الفكري بشأن مسألة الأخلاقيات الدولية:

إن علامة الاستفهام الرئيسية التي تظهر أمام الباحث في موضوع الأخلاقيات الدولية تدور في جوهرها حول إمكانية إيجاد هذه الأخلاقيات في واقع الممارسة الدولية باعتبار أن المجتمع الدولي تغلب عليه سمة الفوضى مقارنة بالمجتمع الوطني . أي أن السؤال المحوري الذي يجد مقومات طرحه في هذا الصدد هو :

هل يمكن القول بوجود أخلاقيات في العلاقات الدولية ؟

من خلال مطالعة أدبيات العلاقات الدولية ، بشكل عام ، يمكن القول بوجود

أطروحتين متضاربتين بشأن المسألة الأخلاقية في العلاقات الدولية ، هما: أطروحة المدرسة المثالية (الاتجاه الأخلاقي) ، وأطروحة المدرسة الواقعية (الاتجاه البرغماتي) .

1- أطروحة المدرسة المثالية (الاتجاه الأخلاقي) :

يركز أصحاب ها الاتجاه على أطروحة التنظيم الدولي المتمثلة في أن المجتمع الدولي ليس خاضعاً فقط لمنطق القوة وسيادة الفوضى ، بل إنه يخضع لجملة من الضوابط والقيم الأخلاقية التي تكبح الإرادات الجامحة نحو القوة والفوضى.

إن أطروحة المثاليين ترتكز في منطلقاتها الفكرية على طرح مبادئ القيم الأخلاقية والضوابط القانونية في حركة التفاعل الدولي لإحلال معطيات وأسس التعاون والسلام محل عناصر الخصام والصراع وذلك انطلاقاً من الافتراضات التالية :

أ) إن الطبيعة الإنسانية تتسم بالفضيلة والخير وغير أنانية ، وبالتالي فإن السلوك الإنساني بطبيعته يميل إلى التعاون في كل المجالات التي تعود بالخير وتسهم في بناء التقدم والرقي الحضاري .

ب) إن السلوك الإنساني الطالح لم يكن نتاجاً للناس الأشرار بقدر ما هو نتاج للمؤسسات السياسية الشريرة التي تحرض الناس على الأنانية والإساءة إلى الآخرين ، ومن ثم إثارة الفتن والصراعات وإشعال فتيل الحرب المدمرة .

ج) إن الحرب ليست أمراً محتوماً ، إذ من الممكن اجتنابها والحد من مسبباتها من خلال استئصال المؤسسات السياسية التي تؤدي إلى ظهورها .

د) كما أن الحرب كمشكلة دولية يمكن معالجتها عن طريق تضافر الجهود الدولية وتحقيق الأمن الجماعي ، فالمساعي الجماعية أفضل بكثير من المساعي الوطنية المنفردة .

هـ) لكل ذلك ، فإن على المجتمع الدولي أن يعيد تنظيم جهوده للتخلص من المؤسسات التي تسهم في خلق المناخ الملائم للحرب .

وترجع الجذور الفكرية التي يرتكز عليها الاتجاه الأخلاقي إلى فترات قديمة من التاريخ . ففي الفكر الصيني القديم

عارض كونفشيوس، ومنشيوس، ومينغ تسي المبادئ العسكريةواستهجنوا مناهج استخدامها، فكرّسوا كتاباتهم لنبذ الحروب العدوانية وتحذير القادة والحكام من مغبة الإقدام عليها .

كما أن المفكرين المسلمين استقوا أفكارهم من المبادئ والقيم الإنسانية النبيلة التي جاء بها الدين الإسلامي والتي لا تحمل أي تناقض بينها وبين سلوكياتهم في واقع الممارسة . فالحرب في نظرهم لا يتم اللجوء إليها إلا في الحالات الاضطرارية ، وتحت ظروف معينة بقصد الدفاع عن النفس واسترداد الحقوق المغتصبة وردع الظلم والعدوان ، أي بمعنى أن تكون حرباً عادلة. وهذا ما يدعو إليه القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى :

" فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم "

وفي الفكر الغربي ، دعا القديس توما الاكويني ، خلال القرن الثالث عشر ، إلى انتهاج الحرب العادلة كوظيفة جوهرية للدولة في مواجهة الأخطار الخارجية ، بحيث يتم إعلانها لسبب عادل ، كدفع الظلم ودحر العدوان .

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نادى الدبلوماسيان الفرنسيان فيرجين (Vergennes) 1717 - 1787 وتاليران (Talleyran) 1754 - 1838) بضرورة اتباع اللين والمرونة والتمسك بالمنهج السلمي لتسوية الخلافات والمنازعات الدولية والتوفيق بين حقوق جميع الأطراف المعنية ومصالحها المتباينة دون السعي إلى الحصول على مكاسب غير مشروعة يحرمها القانون الدولي على حساب الأطراف الضعيفة المسالمة أو المخدوعة .

من خلال ما سبق ، يمكن القول إن المثاليين دعوا في طرحهم الفكري إلى التمسك بالقيم الأخلاقية والقواعد القانونية في التعامل الدولي ، أي أنهم ركزوا على ما يجب أن يكون من أجل خلق نظام دولي قوامه وفحواه السلام والتعاون الدوليان بدلاً من الصراع والحروب .

2- أطروحة المدرسة الواقعية (الاتجاه البرغماتي):

ينطلق دعاة هذا الاتجاه في طرحهم الفكري من الافتراضات الرئيسية التالية :

أ) إن قراءة التاريخ تشير إلى أن الناس بطبيعتهم أشرار ومؤذون يتلهفون بغرائزهم إلى استخدام القوة وفرض الهيمنة على الآخرين .

ب) إن إمكانية استئصال غريزة الاندفاع إلى استخدام القوة تعد مطمحاً خيالياً لا يمكن تحقيقه على أرض الواقع ، وبالتالي فإن العلاقات الدولية يغلب عليها المظهر الصراعي بسبب التنافس على القيم الدولية من أجل كسب القوة وفرض الهيمنة والنفوذ .

ج) الالتزام الأساسي الذي يطغى على السياسة الخارجية لأية دولة هو السعي لتعزيز المصلحة الوطنية وجعلها فوق كل الاعتبارات .

د) إن طبيعة النظام الدولي تفرض على الدول أن تحترز من خلال بناء قوة عسكرية تكفل ردع أي هجوم عدواني محتمل .

هـ) ليس من الممكن إطلاقاً لأية دولة أن تعهد بمهمة الحماية الذاتية أو الدفاع عن النفس إلى المنظمات الدولية أو إلى القانون الدولي .

و) إذا كانت كل الدول تسعى إلى اكتساب أكبر قدر ممكن من القوة ، فإن الاستقرار سيتحقق من خلال المحافظة على توازن القوى .

ومن أبرز دعاة الاتجاه الواقعي ادوارد هاليت كار ، وهانز مورجنثاو ، وكلاوزفيتس ، وهيجل ، ونيتشه ، وتريتشكا ، وجورج كينان ، وهنري كيسنجر .

وتشير أدبيات العلاقات الدولية إلى أن الواقعية يمكن إرجاع جذورها الفكرية إلى المؤرخ اليوناني القديم ثيوسيدس الذي قام بتحليل الحرب البليبونزية التي دارت بين أثينا وإسبرطة خلال الفترة (431ق.م - 404ق.م) .

كما أن مضامين الفكر الواقعي يمكن إيجادها أيضاً في كتابات السياسي الهندي كوتيليا قبل أكثر من ألفي 2000 سنة .

ولا يغيب عن الأذهان أن الفكر الواقعي الحديث يستمد مادته الأساسية بصورة خاصة من الآراء والفلسفات السياسية للمفكر الإيطالي نيكولا مكيافللي والمفكر الانجليزي توماس هوبز اللذين أكدا على أن التقدير أو الحساب السياسي مبني على أساس جعل

المصلحة والتدبر والقوة والنفعية فوق كل الاعتبارات الأخرى بما فيها الأخلاق .

فقد أوضح مكيافللي أن القوة هي أساس الشرعية السياسية ، وأن السياسة ما هي إلا معركة مستمرة تتمثل في الصراع على القوة . ومن ثم فهو يرى أن الأخلاق هي إضافات للقوة ، الأمر الذي يعني عنده فصل الأخلاق عن السياسة ، فالأهداف السياسية ينبغي تحقيقها ولو بوسائل غير أخلاقية ، فالغاية عنده تبرر الوسيلة .

وهكذا ، فإن أصحاب المدرسة الواقعية بعكس دعاة المدرسة المثالية لا يرون وجود تناسق في المصالح بين الدول بقدر ما يرون وجود تضارب بين مصالح الدول إلى الحد الذي يجر بعضها إلى الحرب .

كما نفهم مما سبق أن الواقعيين (النفعيين) ينظرون إلى معطيات السياسة الدولية كما هي لا كما يجب أن تكون . فالسياسات الخارجية في نظرهم هي انعكاس للمصالح القومية .

وبالتالي ، فإن السياسة الدولية تعني تضارب هذه المصالح وأنانية الدول . وتبعاً لذلك ، فإن المبادئ الأخلاقية السائدة على الصعيد الداخلي للدول لا تنعكس بالضرورة على سياساتها الخارجية ، خاصة عندما يظهر نوع من التضارب أو عدم الانسجام بين الأخلاقيات الدولية والمصالح القومية أو الوطنية للدول .

ثالثاً- مدخل تاريخي لدراسة الارتباط التأثيري بين القطبية الأحادية والأخلاقيات الدولية:

ليس ثمة مجال للشك في أن المجتمع الدولي يعيش الآن في ظل نظام عالمي جديد تغلب عليه سمة القطبية الأحادية . فسلسلة المتغيرات الدولية التي شهدتها حركة التفاعل الدولي منذ منتصف عقد الثمانينيات من القرن الماضي وحتى هذا العام (2003) تدل ، بل تؤكد بشكل متزايد على مظاهر التغير في البنيان الدولي من القطبية الثنائية ، التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية ، إلى نظام القطب الواحد المتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية .

إن مظاهر التغير إلى النظام العالمي الجديد أصبحت واقعاً معيشاً لا يحتاج إلى تدليل وهو ليس مقصد هذه الدراسة، فما يهمنا في هذا الصدد يتعلق بمسألة الأخلاقيات الدولية في ظل معطيات النظام

العالمي الجديد . فالسؤال الذي يمكن إثارته بشأن هذه المسألة هو :

ما هي علاقة الارتباط التأثيري بين الهيمنة القطبية الأحادية و الأخلاقيات الدولية على مستوى الممارسة في العلاقات الدولية ؟

إن متابعة الأحداث التي شهدها تاريخ العلاقات الدولية تفيد بأن الهيمنة القطبية الأحادية تفسح المجال لإثارة الفوضى وتأجيج الحروب العدوانية ، ومن ثم الانحراف عن الأخلاقيات الدولية ، الأمر الذي يعني أنها تشكل علة الفساد الأخلاقي في السلوكيات الدولية . فالمتتبع لحركة التفاعل الدولي بشكل عام وحركة تنافس القوى العظمى عن القيادة العالمية بشكل خاص تتجلى أمامه هذه الحقيقة عبر مختلف مراحل التاريخ . فعلى سبيل المثال مارست فرنسا دور القطب المهيمن في النظام الدولي الأوروبي في القرن التاسع عشر ، أي في عهد نابليون . حيث اندلعت الحرب النابليونية (1792 - 1815) التي انتهت بهزيمته في وولترلو . ومن ثم اجتماع الدول الأوروبية الكبرى - آنذاك - في مؤتمر فيينا عام 1815 الذي أعاد مبدأ توازن القوى في النظام الأوروبي في إطار نسق دولي متعدد الأقطاب .

كما أن نظام الأحلاف الذي أنشأه المستشار الألماني بسمارك (1871 - 1890) ، الذي كان في الواقع يمثل بنيان القطب الواحد في أوروبا ، ترك هو الآخر انعكاسات سلبية على أخلاقيات التعامل الدولي . فقد انتهج بسمارك دبلوماسية لا أخلاقية ، حيث عمل على بلورة نظام من التحالفات في أوروبا من خلال نشاط دبلوماسي سري (الدبلوماسية السرية) بهدف المساعدة على إضعاف فرنسا بعزلها عن الدول الأوروبية . ذلك أن معظم المعاهدات التي أبرمها بسمارك مع الدول الأوروبية كانت سرية .

كذلك يمكن الاستدلال باتفاقية سايكس بيكو السرية التي أبرمتها بريطانيا مع فرنسا عام 1916 والقاضية بتقسيم المشرق العربي إلى مناطق نفوذ لصالح كل من بريطانيا وفرنسا . فمثل هذه الاتفاقية شكلت نمطاً من أنماط الدبلوماسية السرية اللا أخلاقية .

ولا يغيب عن الأذهان أن بريطانيا التي وقعت هذه الاتفاقية كانت قد تخلت عن

وعودها للعرب بشأن منحهم الاستقلال بعد نهاية الحرب العالمية الأولى مقابل تعاونهم مع الحلفاء في تلك الحرب. وهي أيضاً أسهمت بشكل رسمي ومؤثر في إنشاء الكيان الإسرائيلي في فلسطين من خلال الوعد الذي أعلنت فيه، على لسان وزير خارجيتها - آنذاك - آرثر بلفور يوم 2 نوفمبر 1917 عن إقامة وطن يهودي في فلسطين. فهذا الوعد هو أحد مظاهر السياسة اللا أخلاقية لأنه لا يتفق مع مضمون التعهدات التي قدمتها بريطانيا للعرب، ولأنه جاء انتهاكاً متعمداً لحقوق الشعب الفلسطيني باعتباره تصرفاً في فلسطين من خلال الاتصال والتشاور بين بريطانيا والحركة الصهيونية التي تعتبر منظمة سياسية هدفها المعلن توطين غير فلسطينيين في فلسطين، إضافة إلى أنه كان يمثل التزامات قدمتها الحكومة البريطانية للحركة الصهيونية بشأن أرض فلسطين في وقت كانت فيه هذه الأرض لا تزال رسمياً تشكل جزءاً من الإمبراطورية العثمانية.

إن النماذج التاريخية التي أسلفنا ذكرها تدل على أن أوْج الهيمنة القطبية الأحادية يؤثر سلبياً على الأخلاقيات الدولية. وبالتالي فإن السؤال الذي يمكن طرحه في هذا الصدد: هل هناك ما يشير إلى وجود انعكاسات سلبية على القيم الأخلاقية في حركة التفاعل الدولي في ظل النظام العالمي الجديد، الذي ظهر بعد تفكك الاتحاد السوفيتي وتزحزحه من المقعد الأمامي للقيادة العالمية، والذي تغلب عليه سمة القطبية الأحادية المتمثلة في الولايات المتحدة الأمريكية التي تشكل نقطة المركز وبؤرة الهيمنة والتأثير فيه؟

إن الارتباط بين الهيمنة القطبية الأحادية وتأزم الأخلاقيات الدولية أصبح الآن مكشوفاً أكثر من أي وقت مضى باعتبار أن العالم يعيش في ظل المنظمات الدولية (التنظيم الدولي) وتسوده دبلوماسية المنظمات ودبلوماسية المؤتمرات وكل مظاهر الدبلوماسية المكشوفة. فالمجتمع الدولي لا تعوزه المؤسسات أو القواعد التي تنظم حركة التفاعل بين أطرافه، وإنما تنقصه الجدية وعدالة تطبيق هذه القواعد من طرف القوى الدولية المسيطرة على مراكز الثقل والتأثير في السياسة الدولية.

فمن الناحية النظرية توجد مواثيق دولية عديدة تتضمن مبادئ ومقاصد نبيلة،

كالعمل على تحقيق السلم والأمن الدوليين وإنماء العلاقات الودية بين الشعوب على أساس المساواة في الحقوق بين الشعوب وفض المنازعات بالوسائل السلمية والامتناع عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضي أو الاستقلال السياسي لأية دولة . بيد أنه من واقع الممارسة نجد نوعاً من التحايل والالتفاف على مضامين هذه المواثيق الأمر الذي جعلها مجرد حبر على ورق . وهذا التحايل يأتي من عديد الدول الصغيرة والكبيرة ، ولكن ما يأتي من الدول الكبرى أكثر خطورة بحكم مركزها في دائرة التأثير والنفوذ الدولي ، فالدول الكبرى ذات النفوذ الأقوى ، فهي تنتهج سياسات تنسجم مع مصالحها القومية وتتعارض في أغلب الأحيان مع مضامين القانون الدولي ، لكنها تضعها في إطار تبريري وتسعى لفرضها على المجتمع الدولي من خلال تمريرها على مجلس الأمن الدولي الذي يخضع لسيطرة الدول الخمس الدائمة العضوية وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية .

إن كل ما سبق يجرنا إلى التساؤل عن أثر أحادية الدور الأمريكي على الأخلاقيات الدولية في ظل النظام العالمي الجديد . وهذا ما يتناوله المحور الرابع من هذه الدراسة .

رابعاً- انعكاس أحادية الدور الأمريكي على الأخلاقيات الدولية في ظل النظام العالمي الجديد:

إن الدولة المهيمنة في أي نظام دولي مثلما يكون لها تأثير ونفوذ فاعل في معترك السياسة الدولية يكون لها أيضاً تأثير على أخلاقيات التعامل الدولي وفقاً لطبيعة سلوكياتها على واقع الممارسة في البيئة الدولية ، وذلك بحكم ما تضطلع به من مكانة في قمة النظام الدولي .

وفي الواقع نجد أن تغير النظام العالمي من ثنائي القطبية إلى القطبية الأحادية قد أفسح المجال أمام صعود الهيمنة الأمريكية . ويمكن التحري على ملامح ذلك الصعود في العديد من المظاهر لعل أهمها ما يلي:

1- تفضيل الخيار العسكري على الخيارات الأخرى المتاحة في معالجة القضايا والأزمات الدولية . فقد اندفعت الولايات المتحدة الأمريكية ، منذ تربعها على قمة النظام العالمي ،

إلى استخدام القوة العسكرية في عديد الحالات مع تحريض الدول الأخرى ، بل وممارسة الضغط عليها بهدف مشاركتها ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، في إقامة تحالفات دولية لمعالجة الأزمات الدولية الطارئة وفقاً لوجهة النظر الأمريكية . ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث في حرب الخليج الثانية عام 1991 وحرب أفغانستان في عام 2001 وحرب الخليج الثالثة في عام 2003 .

2- ممارسة الهيمنة على مركز صنع القرار الدولي في هيئة الأمم المتحدة ويتجلى ذلك في القرارات الصادرة عن مجلس الأمن الدولي . وفي هذا الخصوص يشير البعض إلى أن هناك أمثلة كثيرة "تشير بوضوح إلى أن السلوك الأمريكي قد أضعف لدرجة كبيرة دور الأمم المتحدة وبخاصة مجلس الأمن . إذ أصبح هذا الأخير وبدرجة كبيرة أداة من أدوات السياسة الخارجية الأمريكية .. " (24) .

3- إن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى إلى تمرير مواقفها وتبرير سلوكياتها تحت غطاء الشرعية الدولية من خلال استغلال مكانتها المتميزة في مجلس الأمن الدولي من ذلك على سبيل المثال لا الحصر مبادرتها لحمل مجلس الأمن الدولي على اتخاذ القرار رقم 1373 بتاريخ 2001/9/29 لتشكيل تحالف دولي لمحاربة ما وصفته بـ " الإرهاب الدولي " ذلك القرار الذي وصفه السفير الفرنسي جان دافيد ليفيت رئيس مجلس الأمن وقتئذ بأنه: " صناعة للتاريخ " (25) .

إن استغلال الولايات المتحدة الأمريكية لمكانتها في مجلس الأمن الدولي من خلال استصدار قرارات لتبرير سلوكياتها وتحقيق مصالحها يعني في الواقع فرض منطق قانون القوة " والانتقال من مرحلة تأسيس الهيمنة سياسياً إلى تأسيسها قانونياً "

4- التفسير الأحادي للمتغيرات الدولية : فالولايات المتحدة الأمريكية تتعامل مع معطيات البيئة الدولية وفقاً لرؤيتها ومصالحها وبما يتلاءم مع استراتيجيتها وأهدافها في السياسة الدولية دون أن تضع أي اعتبار لمصالح الشعوب الأخرى خاصة منها الواقعة تحت الظلم والعدوان . فمثلاً تنظر إلى اسلوب

المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي على أنه "عمل إرهابي" وكذا نظرتها إلى كل عمل يتعارض مع مصالحها ، بينما لا تنظر بالمنظور نفسه إلى سلوكياتها العدوانية وسلوكيات القتل والتدمير التي تنتهجها إسرائيل ضد أبناء الشعب الفلسطيني في أرضهم المحتلة .

5- الاستفراد في اتخاذ المواقف وعدم الاعتداد بمواقف الدول الأخرى بما في ذلك القوى الدولية الصاعدة الرافضة للعدوان كألمانيا وفرنسا وروسيا والصين [27] .

والواقع أن هذه الأمثلة من مظاهر أوج الهيمنة الأمريكية تعطي مؤشرات كافية للتدليل على تدني الأخلاقيات الدولية في ظل هيمنة القطب الواحد المتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك من منطلق الاعتبارات التالية :

1- غياب العدالة في سلوكيات التعامل الأمريكي مع بقية وحدات المجتمع الدولي . فمنذ أن تربعت الولايات المتحدة الأمريكية على قمة النظام العالمي ظهرت العديد من المواقف التي تعبر عن ازدواجية السياسة الأمريكية أو كما يصفهما البعض بأنها "سياسة الكيل بمكيالين والمعايير المزدوجة" [28] . فسلوكيات السياسة الأمريكية تبرز بشكل مرتبط باعتبارات المصلحة القومية للولايات المتحدة ، أي بمعنى أنها متغير تابع أمام متغير المصلحة القومية . فعلى سبيل المثال لم تتردد الولايات المتحدة الأمريكية في الانسحاب من أي اتفاقية في سبيل تحقيق مقتضيات مصالحها وأهدافها الاستراتيجية . وهذا ما يتجلى في انسحابها من معاهدة "A. B. M" للدفاع المضاد للصواريخ بتاريخ 13 / 12 / 2001 وذلك للتسريع بإقامة الدرع المضاد للصواريخ ، الأمر الذي يؤكد أنها تحرص على جعل مصلحتها فوق كل الاعتبارات ، بينما نجدها تحول دون تمكن دول أخرى ، كالدول النامية ، من بناء قوتها العسكرية وتطوير أسلحتها الدفاعية بما يتلاءم مع التقدم الهائل الذي أنجزته الدول الكبرى في هذا المجال .

ويمكن ملاحظة ازدواجية معايير السياسة الأمريكية في مواقف هذه

السياسة إزاء قضية الصراع العربي - الإسرائيلي ، حيث أظهرت السياسة الأمريكية انحيازها الكبير لصالح اسرائيل على حساب الحقوق العربية ، فهي تعتبر كفاح المقاومة الفلسطينية "نشاطاً إرهابياً " وترى أن سياسة الاغتيالات الممنهجة وسياسة التقتيل الجماعي التي تتبعها إسرائيل ضد أبناء الشعب الفلسطيني هي من ضمن متطلبات " الدفاع المشروع " . والأكثر من ذلك أنها تحمي إسرائيل من أي إدانة في مجلس الأمن على ما تقوم به من مذابح منافية للإنسانية ولحقوق الإنسان . فقد استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية حق النقض " الفيتو " عشرات المرات لصالح إسرائيل على حساب الحقوق العربية (29).

2- الاستهانة بالمؤسسات الدولية وانتهاك مقومات الشرعية الدولية من خلال انتهاج سياسة القوة ، حيث أخذت الولايات المتحدة الأمريكية ترتكز في المقام الأول على أسلوب استخدام القوة أو التهديد باستخدامها وقد جسدت ذلك في عديد المواقف من ذلك على سبيل المثال : الاعتداء على ليبيا في عام 1986 ، وحربها ضد أفغانستان في عام 2001 وحربها ضد العراق في عام 2003 ، الأمر الذي يعني انتهاكها لمبدأ حظر اللجوء إلى القوة في العلاقات الدولية ، هذا المبدأ الذي نصت عليه الفقرة الرابعة من المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة ، حيث ينص مضمون هذه الفقرة على امتناع أعضاء هيئة الأمم المتحدة في علاقاتهم الدولية عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضي أو الاستقلال السياسي لأية دولة أو على أي وجه آخر لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة . وقد تجلى انتهاك مبدأ تحريم التهديد باستعمال القوة أو استخدامهما بشكل لا يتفق ومقاصد الميثاق الأممي في السلوك العدواني الذي انتهجته الولايات المتحدة الأمريكية من خلال حربها على العراق . وفي هذا الصدد يقول البعض :

" ... في ضوء هذا الاعتداء الواضح على سيادة العراق والانتهاك السافر لمبادئ ميثاق منظمة الأمم المتحدة

الأساسية - مبدأ الحل السلمي للخلافات الدولية ، مبدأ عدم اللجوء إلى القوة ، مبدأ عدم التدخل ومبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها - ولباقي قواعد الشرعية الدولية ، وفي غياب أي قرار أممي صادر عن مجلس الأمن يجيز مثل هذه الحرب أو يفوض إلى الولايات المتحدة وبريطانيا اللجوء إليها ، فإن الحرب الأمريكية - البريطانية ضد العراق تعتبر بكل المعايير والمقاييس من أخطر صور العدوان وبامتياز ... " (30).

إن الاستهانة بالمؤسسات والمواثيق الدولية يعتبر من الناحية التحليلية والناحية السلوكية ضرباً من ضروب الفوضى والجنوح إلى لغة القوة الأمر الذي يعني محاولة نسف الجهود الدولية الرامية إلى إحلال لغة الحوار والتفاهم في العلاقات الدولية بدلاً من لغة الصراع واستعمال القوة .

3- التحايل والخداع: فقد أظهرت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية نوعاً من التلاعب في المواقف التي اتخذتها لتبرير تصرفاتها ومحاولة إظهارها في ثوب من الشرعية الدولية . وهذا ما يمكن ملاحظته في حالات عديدة لعل أبرزها حربها ضد العراق في عام 2003 التي أظهرت نوعاً من التذبذب وعدم الصدق في مبررات شن هذه الحرب، فهي - أي الولايات المتحدة الأمريكية - تارة تبرر الحرب بمكافحة ما تصفه بـ " الإرهاب " (31) . وتارة أخرى تتذرع بفرض احترام الشرعية الدولية التي تجسدها القرارات الدولية ، خاصة فيما يتعلق منها بالقضاء على أسلحة الدمار الشامل (32) . وتارة أخرى تدعي بأنها تهدف إلى حماية حقوق الإنسان وإنقاذ الشعب العراقي من " النظام الدكتاتوري " وفرض نظام " ديمقراطي " (33)، والواقع أن الولايات المتحدة كانت تهدف من وراء هذه المبررات إلى كسب تأييد الرأي العام الأمريكي وكذا الرأي العام العالمي ولكن الأمر أصبح جلياً بعد انتهاء الحرب حيث برزت معطيات تؤكد وجود نوع من

التحايل والخداع في موقف الولايات المتحدة الأمريكية وهذا ما أكدته مخرجات هذه الحرب بكل أبعادها وانعكاساتها إقليمياً ودولياً .

4- سوء النية: فالسلوك الأمريكي أظهر سوء النية في العديد من المواقف من ذلك ما ظهر في حرب العراق فالولايات المتحدة الأمريكية حرصت منذ عام 1991 على فرض عقوبات دولية ضد العراق ، وبعد مضي أكثر من عشر سنوات عاش خلالها الشعب العراقي أسوأ ظروف الحياة ، شنت عليه حرباً عدوانية أظهرت فيها أبشع أساليب الحرب المعاصرة ، مما يؤكد على عدم التعامل على أساس مراعاة الجوانب الإنسانية التي تشكل دعامة من دعامات الأخلاقيات الدولية .

كما أن المبررات التي انطلقت من خلالها الحرب الأمريكية ضد العراق لم تجد في الواقع ما يعزز صدقها خاصة فيما يتعلق بوجود أسلحة الدمار الشامل في العراق ، الأمر الذي يعني ، من الناحية التحليلية ، أن هذه الحرب جاءت كخيار استراتيجي رسمته دوائر صنع القرار في السياسة الخارجية الأمريكية وفقاً لمتطلبات أهداف هذه السياسة ومتطلبات مصالحها القومية .

5- إن أوْج الهيمنة الأمريكية على أساس سياسة استخدام القوة أو التهديد باستخدامها قد أظهر في الواقع فجوة كبيرة بين الخطاب الرسمي المعلن للولايات المتحدة الأمريكية وبين سلوكياتها على الصعيد الدولي . فهي تدعي الحرص على التعامل الأخلاقي في سلوكياتها الدولية ، بينما نجدها في واقع الممارسة تخرج عن دائرة الأخلاقيات الدولية ، إذ تفسر الأحداث وتنطلق إزاءها وفقاً لمصلحتها القومية . وهذا ما يمكن وضعه في دائرة ما يصفه البعض بـ " الهيمنة الانتقائية "[(34)] .

وأيضاً يمكن اعتباره مؤشراً من ضمن مؤشرات أزمة الأخلاقيات الدولية في ظل النظام العالمي الجديد الذي تسيطر عليه القطبية الأحادية المتمثلة في الولايات المتحدة الأمريكية .

الهوامش

(1) انظر في هذا الشأن:

Abdul Aziz Said, Charles O. Lerche, Jr., Charles O. Lerche III, concepts of Internation Politicz in Global Perspective, (New Jerey: prentice - Hall, Inc - Englewood cliffs, 1995) p. 137 - 140

(2) أحــــمد بـــــدر ، الإعلام الدولي : دراســـــات في الاتصال والدعاية الدولية ، ط3 ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، 1982 ، ص 285 .

(3) سموحي فوق العادة ، معجم الدبلوماسية والشؤون الدولية ، بيروت ، مكتبة لبنان ، 1974 ، ص 271 .

(4) المصدر نفسه ، ص 271 .

(5) انظر:

Charles W. Kegley, Jr. Eugene R. Wittkopf, World politics: Trend and Transformation, (New York: St. Martin's press, Inc, 1995), p.20

(6) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية 193 .

(7) انظر : محمد علي محمد وعلي عبد المعطي محمد ، السياسة بين النظرية والتطبيق ، بيروت ، دار النهضة العربية ، 1985 ، ص 108 .

(8) سموحي فوق العادة ، الدبلوماسية الحديثة ، ط1 ، بيروت ، دار اليقظة العربية ، 1973 ، ص 7 - 8 .

(9) Kegley and Wittkopf., Op.cit., P. 23 .

(10) المرجع نفسه ، ص 22 .

(11) المرجع نفسه ، ص 22 .

(12) المرجع نفسه ، ص 22 .

(13) حورية توفيق مجاهد ، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محـمد عبـده ، ص2 ، القـاهرة ، مكتبـة الانجلو المصلية ، 1992 ، ص 310 .

(14) انظر : نيقــولو مكيافللي ، الأمير ، تعريب خيري حــماد ، ط20 ، المغرب ، دار الآفاق الجديدة ، 1994 ، ص 147 - 151 .

(15) بشأن مؤشرات التغير إلى النظام العالمي الجديد ، انظر : زايد عبيد الله مصباح ، السياسة الدولية بين النظرية والممارسة ، ط1 ، طرابلس ، دار الرواد ، 2002 ، ص 385 - 396 .

(16) انظر : محمد السيد سليم ، تحليل السياسة الخارجية ، القاهرة ، جامعة القاهرة ، مركز البحوث والدراسات السياسية ، 1989 ، ص 276 .

(17) انظر : عطا محمد صالح زهرة ، في النظرية الدبلوماسية ، ط1 ، بنغازي ، منشورات جامعة قاريونس ، 1993 ، ص 71 - 72 .

(18) المرجع نفسه ، ص 208 .

(19) تم كشف فحوى هذه الاتفاقية التآمرية السرية أمام العرب من طرف الحكومة البلشفية غداة الثورة البلشفية في عام 1917 .

(20) انظر بهذا الخصوص:

Fred J. Khouri, The Arab - Israel Dilemma, (New york: Syrause university press, 1985), p. 5 - 6

(21) الأمم المتحدة ، منشأ القضية الفلسطينية وتطورها : 1917 - 1988 ، (نيويورك : الأمم المتحدة ، 1990) ، ص 22 .

(22) المرجع نفسه ، ص 22 .

(23) المرجع نفسه ، ص 22 .

(24) " التطورات الأخيرة في الولايات المتحدة وانعاكاساتها العربية : حلقة نقاشية ، المستقبل العربي ، السنة 24 ، العدد 272 ، (اكتوبر 2001) ، ص 11 .

(25) المرجع نفسه ، ص 43 .

(26) إدريس لكريني ، " الزعامة الأمريكية في عالم مرتبك : مقومات الريادة وإكراهات التراجع " ، المستقبل العربي ، السنة 26 العدد 291 (مايو 2003) ، ص 28 .

(27) المرجع نفسه ، ص 27 .

(28) " التطورات الأخيرة في الولايات المتحدة وانعكاساتها العربية : ، مرجع سابق ، ص 19 .

(29) انظر : محمد فائق ، "حقوق الإنسان بين الخصوصية والعالمية" ، المستقبل العربي ، السنة 22 ، العدد 245 (يوليو 1999) ، ص 7 .

(30) محمد الهزاط ، " الحرب الأمريكية - البريطانية على العراق والشرعية الدولية " ، المستقبل العربي ، السنة 26 ، العدد 292 (يونيو 2003) ، ص 108 - 109 .

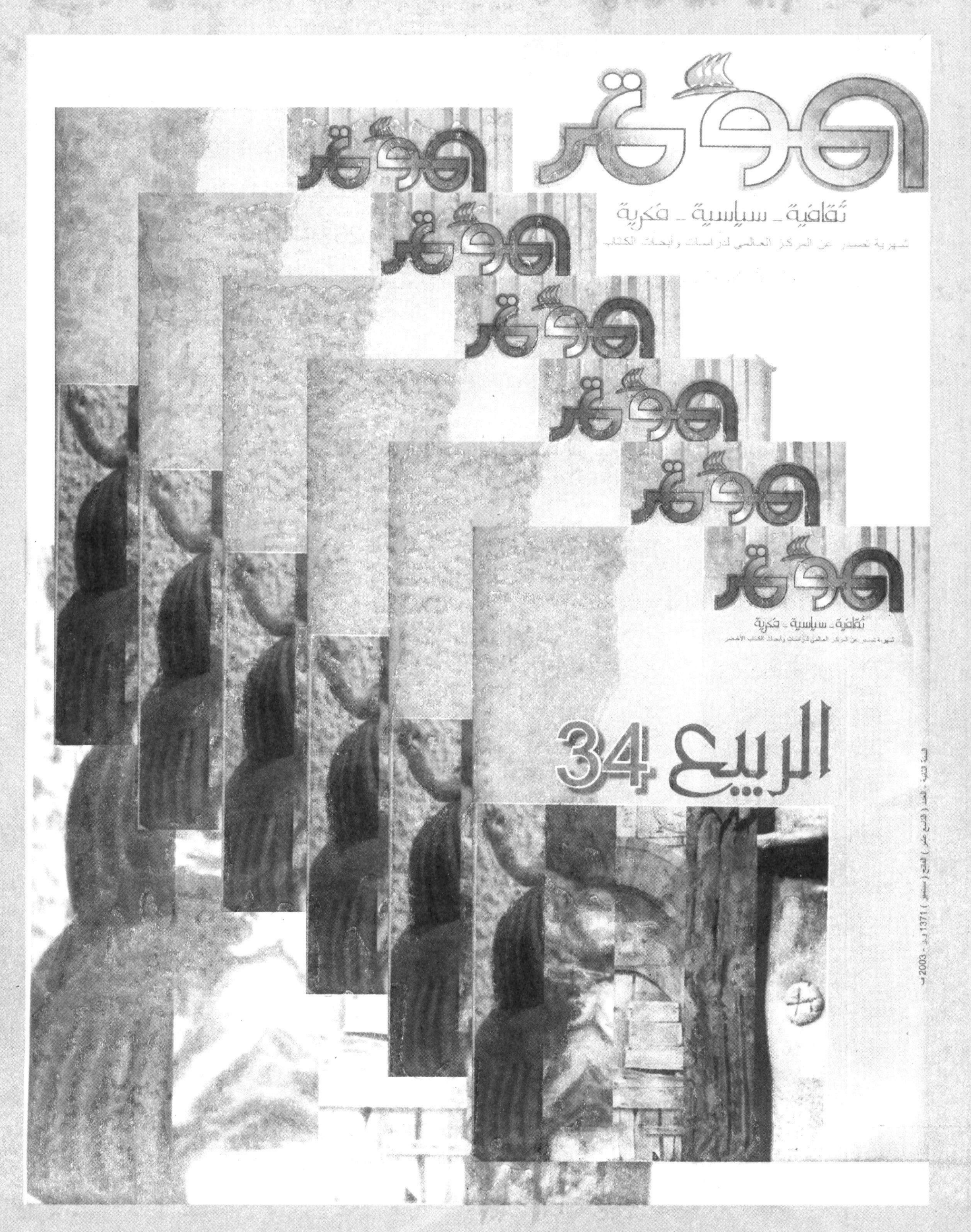
(31) إدريس لكريني ، " الزعامة الأمريكية في عالم مرتبك : مقومات الريادة وإكراهات التراجع " ، مرجع سابق ، ص 26 .

(32) المرجع نفسه ، ص 26 - 27 .

(33) المرجع نفسه ، ص 27 .

(34) " التطورات الأخيرة في الولايات المتحدة وانعكاساتها العربية " ، مرجع سابق ، ص 23 .

من إصدارات المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر



مستقبل الأمم المتحدة في ضوء الصياغة الأمريكية لمفهوم الأمن والسلم الدوليين

د. عبد الله حبيب (*)
أستاذ القانون الدولي
كلية القانون / جامعة الفاتح

1- إشكالية الموضوع

Statement of the Problem

2- نطاق الموضوع

Scope of the Subject

3- طريقة تناول الموضوع

Method and approach

المقدمة:

تشمل هذه المقدمة العناصر الأساسية التالية :

1- إشكالية الموضوع
Statement of the Problem

عند مناقشة موضوع مستقبل النظام العالمي ، يبدو أن الحديث عن مستقبل الأمم المتحدة على ضوء الصياغة الأمريكية لمبادئ الأمن والسلم الدوليين أمر له ما يبرره من الناحية الموضوعية ، فالأمم المتحدة - وبغض النظر عن الانتقادات الموجهة إليها - تعتبر اليوم من

* أستاذ القانون الدولي / كلية القانون / جامعة الفاتح - ماجستير القانون العام (جامعة قار يونس 1991) - ماجستير في فلسفة القانون (جامعة إكستر - بريطانيا 1996) - دكتوراه في القانون الدولي (جامعة ويلز - بريطانيا 2000)
International Low professor at the university of Elfatah - LLM - Ph.D. (UK)

أهم المنظمات الدولية التي عرفها المجتمع الدولي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية على الإطلاق. فهي منظمة عالمية الاتجاه، حكومية التنظيم، وعامة الأغراض بحيث إن نشاطاتها تغطي كافة المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

أما مسألة تحقيق السلم والأمن الدوليين فهي من أهم المسائل التي قامت الأمم المتحدة من أجلها عام 1945، وذلك وفقاً لأسس ومبادئ وآليات حددها الميثاق في ديباجته ومواده الأولى والثانية والفصل السابع منه، وقد أسندت المهمة في هذا المجال إلى مجلس الأمن الذي تتمتع فيه خمس دول كبرى - ومنها الولايات المتحدة - بصفة العضوية الدائمة، والتي تقع عليها مسؤوليات خاصة ومحددة نص عليها ميثاق الأمم المتحدة.

وبفعل تطورات دولية هامة أعقبت نهاية الحرب الباردة عام 1989- 1990، التي قادت إلى إفراز وضع دولي جديد سمته الأساسية هيمنة الولايات المتحدة على مجمل الأوضاع الدولية تأثرت العديد من المبادئ، وخاصة تلك المتعلقة بالسلم والأمن الدوليين، ومن هنا أصبح التساؤل ملحاً اليوم وأكثر من أية وقت مضى عن مستقبل الأمم المتحدة أمام التغيرات التي نالت من المبادئ المتعلقة بالسلم والأمن الدوليين من حيث المفهوم والممارسة والتي كان للولايات المتحدة الأمريكية الدور الأكبر في إحداثها وفقاً لرؤى ومصالح ذاتية، كما كشفت عن ذلك الممارسة الأممية في هذا السياق.

هذه هي إشكالية الموضوع الذي نتناوله بالتحليل في هذه الورقة.

نطاق الموضوع
Scope of the Subject

إن الحديث عن موضوع السلم والأمن الدوليين قد ينصرف في علاقته الجدلية بمستقبل الأمم المتحدة في ظل وضع دولي جديد ناجم عن نهاية الحرب الباردة إلى موضوعين أساسيين:

الموضوع الأول:

يتناول **مدى نجاح أو إخفاق منظمة الأمم المتحدة في تحقيق السلم والأمن الدوليين**، وذلك بتحليل مجمل الأسباب القانونية والسياسية ذات العلاقة وهذا النوع من الدراسة له علاقة بموضوع الآليات الأممية المناط بها تحقيق السلم والأمن

الدوليين وفي مقدمتها مجلس الأمن. هذا النهج من التحليل ليس هو محور هذا المقال الذي ينصرف موضوعه إلى مسألة تتعلق بالمفهوم والممارسة.

الموضوع الثاني:

ينصرف إلى مسألة **السلم والأمن الدوليين من حيث المفهوم والممارسة الدولية**، وفي إطار من التحليل يتكشف لنا أن المفهوم قد أصابه شيء من التحوير والتبديل، وذلك وفقاً لرؤية أمريكية أحياناً، ودولية أحياناً أخرى.

وأن الممارسة العملية من خلال مجلس الأمن قد كشفت عن الدور الأمريكي البارز في صياغة مفهوم "التهديد" الذي يبرر استخدام الفصل السابع من الميثاق.

وفي إطار تناول هذا الموضوع نحاول البحث عن أسباب في المفهوم، وبيان خطورة ممارسته في نسقه الأمريكي الجديد، كما نحاول البحث أيضاً في بيان سبل المعالجة. كل ذلك في سياق رؤية قانونية - تشكل محاولة نقدية للميثاق والممارسة الأمريكية.

طريقة تناول الموضوع:
Method and Approach

لن نتناول الموضوع بطريقة وصفية، بل ستكون المعالجة تحليلية تنطلق أساساً من ميثاق الأمم المتحدة ومن واقع الممارسة الدولية. إذاً فإن معالجة موضوع هذه الورقة "مستقبل الأمم المتحدة على ضوء الصياغة الأمريكية لمفهوم الأمن والسلم الدوليين" ستكون في سياق تحليلي يتناول المحاور الأساسية التالية:

أولاً - الأسس القانونية والواقعية للتحليل.

ثانياً - المفهوم المتغير للسلم والأمن الدوليين.

ثالثاً - تطبيق المفهوم في الممارسة الدولية.

رابعاً - صيغة تأملية للمعالجة (خاتمة).

أولاً- الأسس القانونية والواقعية للتحليل:

أ) الأسس القانونية:

السؤال حول هذه النقطة هو: كيف عالج ميثاق الأمم المتحدة مسألة الأمن والسلم الدوليين؟

لاشك بأن ديباجة الميثاق وبعضاً من

مواده (المادة الأولى والثانية والتاسعة والثلاثون والواحدة والأربعون والثانية والأربعون) قد تناولت مسألة السلم والأمن الدوليين فالديباجة والمادة الأولى تناولت المسألة في سياق أهداف المنظمة ، أما المادة الثانية فتناولتها في سياق المبادئ التي يقوم عليها الميثاق ، بينما في الفصل السابع جاءت المسألة على ضوء فكرة الدفاع الجماعي .

من حيث الأهداف جاء في ديباجة الميثاق "نحن شعوب الأمم المتحدة وقد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال القادمة من ويلات الحرب ... وأن نعيش معاً في سلام ... وأن ننظم قوانا كي نحتفظ بالسلم والأمن الدوليين ... وألا نستخدم القوة المسلحة في غير المصلحة المشتركة " .

وجاء في المادة الأولى من الميثاق ما يؤكد ذلك بحيث إن الأمم المتحدة تملك في سبيل تحقيق الأمن والسلم الدوليين " اتخاذ كافة التدابير المشتركة لمنع الأسباب التي تهدد السلم ولإزالتها ، وقمع أعمال العدوان وغيرها، وتتذرع بالوسائل السلمية ، وفقاً لمبادئ العدل والقانون الدولي ، لحل المنازعات الدولية التي قد تؤدي إلى الإخلال بالسلم أو لتسويتها " .

من خلال هذا النص يتضح أن تحقيق فكرة الأمن الجماعي بما يتضمنه من استخدام للقوة أو تحريمها حسب الأحوال هي أساس وجود منظمة الأمم المتحدة وأول أهدافها . وإن الأمن الجماعي لا يتحقق فقط بالدفاع الجماعي وإنما أيضاً بالقضاء على أسباب الإخلال بالأمن ، وذلك من خلال تنمية العلاقات الودية والتعاون الدولي وجعل الأمم المتحدة مركزاً للتنسيق في الأعمال بين الدول .

أما من حيث المبادئ ، وتحقيقاً للمقاصد والأهداف فقد نصت المادة الثانية من الميثاق على جملة من المبادئ التي تعمل الأمم المتحدة على أساسها ، وهي سبعة مبادئ يمكن تصنيفها إلى نوعين :

النوع الأول:

مبادئ تتعلق بالأمن والسلم الدوليين وهي :

أ) حل المنازعات بالطرق السلمية .

ب) تحريم استخدام القوة في العلاقات الدولية.

ج) سلطة الأمم المتحدة في اتخاذ تدابير القمع وفقاً للفصل السابع من الميثاق.

النوع الثاني:

مبادئ أساسية في القانون الدولي وهي:

أ) مبدأ تنفيذ الالتزامات الناشئة عن

المعاهدات والميثاق بحسن نية .

ب) مبدأ المساواة في السيادة .

ج) مبـدأ عدم تدخل الأمم المتحـدة في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء.

وعلى صعيد التطبيق وعلى ضوء فكرة الأمن الجماعي جاء الفصل السابع من الميثاق . وما يهمنا في هذا الفصل هو المواد (39) والمادة (41) . فالمادة (39) أعطت مجلس الأمن صلاحية مطلقة في تحديد العوامل التي تشكل "تهديداً" ، للسلم والأمن الدوليين ، دون النص على تعريف محدد أن تشكل "تهديداً" مما يجيز تطبيق التدابير القسرية بما في ذلك القوة المسلحة . إذاً وبحكم المادة (39) للدول الأعضاء في مجلس الأمن حرية تحديد عوامل التهديد وتقييمها ، ولاشك بأن هذه ثغرة كبرى في الميثاق استغلتها الدول الكبرى الدائمة العضوية وخاصة الولايات المتحدة لتنفيذ خططها واستغلال مجلس الأمن لخدمة سياساتها ورؤاها . وقد جاء النص في المادة (39) على النحو التالي "يقرر مجلس الأمن ما إذا كان قد وقع تهديد للسلم أو إخلال به أو كان ما وقع عملاً من أعمال العدوان ، ويقدم في ذلك توجيهاته أو يقرر ما يحق اتخاذه من التدابير طبقاً لأحكام المادتين (41) و (42) لحفظ السلم والأمن الدوليين أو إعادته إلى نصابه " .

إذاً مسألة تكييف الواقعة حول ما إذا كانت تشكل تهديداً للسلم والأمن الدوليين أم لا هي من صلاحيات مجلس الأمن فقط . ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل إنه حتى مسألة تقرير ما يجب اتخاذه هي أيضاً مسألة مناطة حصراً بمجلس الأمن . وفي هذه الحالة الأخيرة على المجلس إما أن يتخذ توجيهاً بما يجب اتخاذه أو يتخذ قراراً بتطبيق المادتين (41) و (42) من الميثاق الخاصتين بالتدابير القسرية المنظمة للحصار وقطع العلاقات الدبلوماسية (41م) .

ب) الأسس الواقعية:

تتلخص هذه الأسس التي لعبت دوراً في الهيمنة الأمريكية على وضع القرار الدولي في عوامل عضوية ذاتية تمثلت في كون الولايات المتحدة دولة كبرى تتمتع بامتياز النقض في مجلس الأمن . وأخرى عوامل سياسية تمثلت في نهاية الحرب الباردة في مجلس الأمن وما نجم عنها من حسم الصراع واقعياً لصالح الولايات

المتحـــدة لتنفرد بـــالهيمنة على المنظومة الدولية ومن ثم على صياغة القرار الدولي الخاص بالسلم والأمن الدوليين .

لقد كشفت الممارسة الدولية عن فشل الأمم المتحـدة في تحقـيق الأمن والسـلم الدوليين سواء في زمن الحـرب البـاردة أو بعده ، ولعل القضية الفلسطينية خير شاهد على ذلك، والسبـــب هو تركيبـــة مجلس الأمن والاختلاف في الرؤى والمصالح قبل نهاية الحرب الباردة وتعنت الولايات المتحـــدة وهيمنتها على المنظومة الدولية بعد تلك الحرب .

ثانياً - المفهوم المتغير للسلم والأمن الدوليين:

كشـفت الممارســة الدولية عن وجود مفهومين لمعنى " تهديد " الأمن والســـلم الدوليين ، وهما على النحو التالي :

*** المفهوم الأول:**

(مفهوم تقليدي):

ويتمثل هذا المفهوم في أن (تهديد) threat السـلم والأمن الدوليين يعني " التهديدات والأخطار الناجمة عن النزاعات المسلحـــة بـــين الدول" . وبمعنى آخر فإن الواقعة التي تشكل تهديداً للســلم والأمن الدوليين ، والتي يحـق لمجلس الأمن بموجبـــها اتخاذ تدابير حيالها وفقاً للفصل السابع من الميثاق هي الواقــــعة التي تتمثل في وجود حرب أو نزاع مسلح بين الدول International Armed Conflict هذا المفهوم سـارت بـل وقـامت عليه الأمم المتحـدة منذ قـيامها عام 1945 واستمرت في تطبيقه حتى نهاية الحرب البــاردة عام 1990 . وهذه الممارســة الأممية بـهذا المعنى هي تفسـير أصلي Original Interpretation للميثاق فيما يخص مفهوم الأمن والسـلم الدوليين .

*** المفهوم الثاني:**

(مفهوم جديد):

ويتمثل هذا المفهوم في إعطاء تفسير مغاير للأمن والســـلم الدوليين ، والعوامل التي تشكل تهديداً له . وقد ظهر هذا التفسير بعد نهاية الحرب الباردة ، ويعكس محتواه دون شـــك رؤية وصياغة أمريكية بحـــتة ، وتختلف عـن المفهـوم الأول فـي كونـه يدخل في عداد العوامل التي تشـــكل "تهديداً " الأعمال غير العســـكرية -

Non Military Factors وهذا يعني أن أي عمل ولو كان غير عسكري ولو لم يكن بين الدول فإنه يمكن اعتباره تهديداً للأمن والسلم الدوليين وبالتالي استخدام التدابير القسرية الواردة في الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة لقمعه. وهذا ما تم التعبير عنه في بيان قمة مجلس الأمن في يناير من عام 1992 حيث ورد النص على أن هناك مصادر غير عسكرية لعدم الاستقرار تشكل تهديداً فعلياً للسلم والأمن الدوليين.

هذا التفسير له خطورته بحيث يتحول التكييف القانوني للواقعة إلى مجرد مسألة تفسير مطلق يتأثر بعوامل الهيمنة والقوة. ولهذا فكل عمل تراه الولايات المتحدة لا يتفق ومصالح أمنها القومي قد تضغط دولياً لاعتباره "تهديداً" للأمن والسلم الدوليين. وهذا ما كشفت عنه الممارسة الدولية كما سنرى عند تطبيق هذا المفهوم المستحدث للسلم والأمن الدوليين.

ثالثاً - تطبيق المفهوم في الممارسة الدولية:

كشف ممارسة الأمم المتحدة ومن خلال مجلس الأمن عن جملة من القرارات التي اعتبرت فيها المصادر غير العسكرية لعدم الاستقرار في حدود الدولة الواحدة تهديداً للسلم والأمن الدوليين، وخاصة تلك التي قادت إلى نزوح اللاجئين كحالة الصومال في القرار 798 الصادر عن مجلس الأمن بتاريخ 3/5/1993.

وفي حالات أخرى كان القرار لإرضاء الولايات المتحدة التي رأت في المسألة تهديداً لأمنها القومي أكثر منها للسلم والأمن الدوليين ومن أمثلة ذلك القرار 841 الصادر عن مجلس الأمن ضد هايتي بتاريخ 17/5/1993 وكذلك القرار 688 الصادر من مجلس الأمن ضد العراق بتاريخ 5/4/1991.

وفي بعض الحالات الأخرى - غير المبررة ونتيجة للتوسع في التفسير - فإن مجلس الأمن اعتبر مجرد حوادث مدنية وعدم امتثال دول معنية لمطالب أمريكية تهديداً للسلم والأمن الدوليين. والمثال الأكثر وضوحاً في هذه الحالة هو القرار رقم 748 الصادر من مجلس الأمن ضد الجماهيرية. وجاء في هذا القرار: "إن **عدم امتثال ليبيا لموجبات القرار 731 (تعويض - تسليم - مسؤولية) في ظل أزمة لوكربي (وهو القرار غير المبرر قانوناً) يشكل تهديداً للسلم والأمن الدوليين**".

النتيجة المترتبة على اعتبار واقعة معينة أنها "تهديد" للأمن والسلم الدوليين هي تطبيق الفصل السابع من الميثاق وذلك إما باتخاذ توجيه من مجلس الأمن فيما يجب العمل به أو تطبيق التدابير القسرية التي تشمل الحصار وقطع العلاقات الدبلوماسية وفقاً لنص المادة (41) أو استخدام القوة المسلحة وفقاً لنص المادة (42).

إذا ترك مسألة تكييف الواقعة (وفقاً لنص المادة 39 من الميثاق) من صلاحيات مجلس الأمن وبتركيبته الحالية ذات النفوذ الأمريكي الواضح هي مسألة في غاية الخطورة. فالعمل المشروع قد يتحول إرهاباً ومن ثم تهديداً يبرر استخدام الفصل السابع، وكذلك الشأن أيضاً في الاضطرابات الداخلية والمحلية وقمع أعمال التمرد. وفي الاتجاه الآخر فإن الإرهاب قد يتحول إلى عمل مشروع وهذا هو الوضع في فلسطين. فالإرهاب الصهيوني وجرائم اليهود ضد المدنيين العزل بما اشتملت عليه من قتل جماعي، وتهجير، وإبادة لم تعتبر يوماً ما تهديداً وكأنما لا علاقة لها بالأمن والسلم الدوليين، لأن الولايات المتحدة لا ترى في تلك الأعمال الإجرامية تهديداً.

كل هذا التكييف والتطبيق يتم برؤية أمريكية لأنها اليوم هي الأقوى في مجلس الأمن، وهذا لاشك صياغة جديدة لمفهوم الأمن والسلم الدوليين الذي لم يعد قائماً كما قصده واضعو الميثاق عام 1945.

والولايات المتحدة إذ تقوم بهذه الصياغة فإنها تباشر اختصاصاً وصلاحية أعطاها لها الميثاق ليس لذاتها وإنما بصفتها عضواً دائماً في مجلس الأمن. ولاشك بأن هناك ظروفاً واقعية ساهمت في تمكين الولايات المتحدة من أن تهيمن على المنظومة الدولية وعلى تكييف مفهوم الأمن والسلم الدوليين وفقاً لرؤيتها ومصالحها وهذه الظروف الواقعية التي أعقبت الحرب الباردة هي التي كانت السبب أيضاً في قيادة الولايات المتحدة لدول التحالف في حرب الخليج الثانية عام 1991 بتفويض من الأمم المتحدة.

الحالة العراقية:

حالة غزو العراق من جانب بريطانيا والولايات المتحدة تشكل الخطر الأكبر والنقطة الفاصلة في تاريخ الأمم المتحدة من حيث بروز ووضوح السيطرة

الأمريكية على منظومة الأمم المتحدة في إطار مبدأ الشرعية ومفهوم الأمن الجماعي .

فتهديد الأمن والسلم الدوليين من جانب العراق قد اعتبر قائماً حسب تفسير الولايات المتحدة وبريطانيا على أساس أن العراق لم ينفذ جملة من المطالب المادية الواردة في القرارات ذات العلاقة ومنها القرار رقم 687 الصادر من مجلس الأمن الخاص بوقف إطلاق النار Cease-Fire وكذلك القرار 1441 ، والقرار 660 والقرار 678 هذا التفسير المجحف وغير المبرر قدمه كل من المدعي العام البريطاني والأمريكي بقصد خلق مبرر لغزو العراق والعدوان عليه في وقت لم يكن هناك فيه تهديد عراقي للأمن والسلم الدوليين .

استخدام القوة في ظل ميثاق الأمم المتحدة يحكمه المبدأ الوارد في م2(4) من الميثاق وهو المنع . وهناك حالتان فقط يمكن استخدام القوة فيهما باستثناء . الأولى وهي حالة الدفاع الشرعي الواردة في م 51 من الميثاق وهذه لم تكن متوفرة بحيث أنه لم يقم العراق بعمل عسكري حال ضد الولايات المتحدة وبريطانيا . والحالة الثانية هي بموجب التدابير القسرية الواردة في الفصل السابع من الميثاق . في هذه الحالة أيضاً كان الفشل ذريعاً للولايات المتحدة وبريطانيا في الحصول على قرار من مجلس الأمن لاستخدام القوة ضد العراق . إذاً العمل كان عدواناً فاضحاً وخرقاً للميثاق والشرعية الدولية .

إضافة إلى ذلك فإن ضرورة الحل السلمي كان هو المبدأ في ظل تحريم اللجوء إلى القوة وهذا أيضاً لم يتم اللجوء إليه لحل الأزمة العراقية . وفوق ذلك كله فإن انتهاك الشرعية الدولية لم يتمثل فقط في عدم استصدار قرار أممي يخول العمل العسكري ضد العراق فقط وإنما يتمثل في انتهاك أفقي للمادة الثانية من الميثاق التي لا تجيز استخدام القوة - خلافاً للدفاع الشرعي - خارج إطار الأمم المتحدة .

خلاصة الموقف هو أن الإخفاق والانتهاك كانا واضحين من الناحية الموضوعية والإجرائية في حالة غزو العراق .

وبالنتيجة فإن مبدأ الشرعية ومفهوم الأمن قد تم إعدامهما علناً بموجب العمل البربري للولايات المتحدة وبريطانيا ضد العراق . والنتيجة الأخرى هي أن الأمم المتحدة لم تعد مؤهلة للعب الدور المأمول

كما هو في ميثاقها فيما يخص الأمن والسلم الدوليين . ومن هنا فإن التساؤل يظل قائماً عن مستقبل المنظومة الدولية في ظل الصياغة الأمريكية التي تعني وبكل بساطة وجدية أن التهديد للأمن والسلم الدوليين هو التهديد للأمن القومي الأمريكي ، وفي ممارستها بأنه لا شرعية دولية مطلوبة لاستخدام القوة عندما تتعرض المصالح الأمريكية للخطر .

إذاكان استخدام القوة من جانب الأمم المتحدة أيام الحرب الكورية عام 1951 هو حالة استثنائية ، فإن استخدام القوة في حرب الخليج الثانية عام 1991 في إطار من الشرعية هو حالة استثنائية أيضاً ، وإن استخدام القوة بمناسبة غزو العراق هو حالة خطرة جداً وغير مسبوقة وتأتي في إطار ما يعرف بنظرية بوش للضربة الاستباقية Preemptive Fore التي تعود بنا إلى زمن ما قبل الأمم المتحدة وإلى زمن فاتيل وغزو تيوس منذ عام 1925 .

هذه النظرية التي يتحدث منها كثير من الكتاب اليوم لم تعد قائمة بعد ميثاق الأمم المتحدة . فالمبدأ هو عدم استخدام القوة والاستناد هو استخدامها . وحتى وإن كان لهذه النظرية Preemptive Fore تبرير في زمن القانون العرفي وقبل قيام الأمم المتحدة فإن تداولها اليوم وتجديد الاعتراف لها في ظل الأمم المتحدة أمام المواد 2 (4) والمادة 51 هو نوع من التبرير القانوني غير المقبول .

خامساً - صيغة تأملية للمعالجة:

لاشك بأن تغير مفهوم الأمن والسلم الدوليين وكذلك الممارسة الدولية بشأنه كان لأسباب قانونية وواقعية . فالأسباب القانونية تتلخص في الصياغة المرنة للمادة 39 من الميثاق التي تعطي لمجس الأمن فقط صلاحية تكييف الواقعة المادية ما إذا كانت تشكل تهديداً للأمن والسلم الدوليين أم لا . وبالتالي فإن الولايات المتحدة ولأنها الأقوى في مجلس الأمن تمارس صلاحية ممنوحة لها بموجب الميثاق . إذاً فالسبيل الوحيد لتفادي أزمة التفسير اللا عطاء هو ضرورة معالجة الميثاق وتعديله بخصوص المادة 39 وذلك وفقاً لنص 129 من الميثاق ذاته .

أما الأسباب الواقعية فهي تركيبة مجلس الأمن الحالية وسيطرة الولايات المتحدة على مجريات أموره بفعل نهاية

الحـرب البـاردة واختلال ميزان القـوى الدولي . وحـول هذه النقـطة فإن الأمل يظل معقـــودا على أن يتم التمثيل في المجلس المذكور على أســس ومعايير جغرافية وفضاءات سياسـية وليس على معايير نجمت عن نهاية الحـرب العالمية الثانية . وهذا أيضاً وفقـــاً لنص المادة 129 من الميثاق.

ولا يفوتنا أن نســجل في هذه الخاتمة بـأن البحـث عن توازنات جديدة أمر غاية في الأهمية ، ولا يمكن أن تكون توازنات تعكس خلافات وصراعات عقـــائدية كالتي شــهدها العالم قبـل نهاية الحــرب البـاردة ، فذلك النوع من التوازن غير مفيد أيضاً وكان سببـاً في عديد من حـــالات الفشـل للأمم المتحـدة في حـل الكثير من القـــضايا الدولية . وإنما التوازن الذي يبحـــث عنه هو توازن فضاءات على أسس ومعايير جغرافية سياسية بحتة .

لاشـك بـأن غزو العراق واحـتلاله وتداعياته السلبــية على منظومة الأمم المتحـــدة والنظام الدولي القـــائم يضع التساؤل عميقاً وملحاً عن أي مستقبل لهذه المنظومة أمام انتهاك فاضح لمبـــــدأ الشـــرعية وسحـــق نهائي لمفهوم الأمن الجماعي الذي قامت عليه أصلاً .

أهم المراجع

1) Ian - Brownlie, “ Documents” On International Law, (Oxford, 1994) (UN charter)

2) Charles L. Robeitson, International Politics Since World War II, (London, 1997).

3) Ian - Brownlie, Principles, of Public International Law, (Oxford 1998)

4) M. N. Show, International Law, (Combridge - 1999)

5) D. J. Hannis, Cases and Maleials of International Law,.

6) Un Official Documents Security Council Resolutions (UN Dco series 2002) .

7) Jurist - O. Connell, The Occupation of Iraq, what International Law Requires Now (Jurist law forum Review 2003)

8) The Washington Times, Iraq and International Law, March - 14, 2003 .

محاكمة العولمة

الجزء الثاني

آثار العولمة

الجزء الثالث

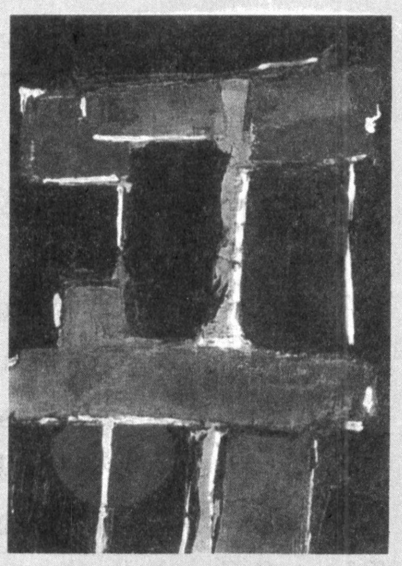
نحو إعادة التوطين

ترجمة وتقديم

د. رجب بو دبوس

إشراف:

إدوارد كولد سميث - جيري ماندير



المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

العولمة كارثة، اجتماعياً، بيئياً واقتصادياً. هذا الجزء من محاكمة العولمة يواصل البرهان على ذلك. إذ بدأت ارهاصات العولمة عندما راجت سياسات التطور الاقتصادي، خلال الأربعين سنة الأخيرة. التطور كان هدف حكومات العالم. فإلى ماذا قاد؟ لقد أمكن الاعتقاد في التطور، مع إبداء الأسف، بدون انقطاع، عن اخفاقاته، التطور بهر المجتمعات في الشمال، ونقل العدوى إلى مجتمعات الجنوب، حتى صار تعويذة سحرية ضد كل الأمراض. ومع أن هذه المرحلة انتهت، لكن مازال هناك من يفكر كما لو أن النمو سوف يخلق فرص عمل للعاطلين، كما لو أن الديون العالمية ستسدد، كما لو أن العولمة يمكنها أن تصنع الازدهار للجميع. هذه العقيدة في التطور قادت اليوم إلى البؤس، والبطالة وكوارث بيئية، وتفاقم الفقر واللاأمان، والأمراض وسوء التغذية لغالبية سكان الأرض، من الشمال كما من الجنوب.

العولمة والأمركة: المفاهيم والآثار

موسى الأشخم
مدرس اقتصاد بكلية الاقتصاد
جامعة الفاتح / طرابلس

المقدمة:
ثمة خلط كبير بين العولمة والأمركة في الأدبيات التي تعنى بالعولمة أدى إلى كثير من التشوّش واللبس ، فالمحتفون بالعولمة تجاهلوا التداخل بين المفهومين ولم يقفوا عند الحدود الفاصلة بينهما ، واعتبروا كافة مظاهر العولمة والأمركة تنتمي إلى العولمة وعدّوها خيراً مطلقاً.

وفي ذات الوقت خلط المناوئون للعولمة بينها وبين الأمركة واعتبروا العولمة وكافة مظاهرها مجرد أمركة وعدوها شراً مطلقاً ، ولم يسلم من ذلك الخلط حتى أولئك الذين انتهجوا خطاً وسطاً بين الاثنين، ولم يعدوا المتغيرات الدولية التي أطلق عليها تسمية العولمة خيراً مطلقاً ولا شراً مطلقاً وإنما توسطوا الموقفين حين أشاروا إلى وجود سلبيات وإيجابيات للعولمة دون أن يضعوا حدوداً فاصلة بين العولمة والأمركة ، ومن ثم فلم يسلموا من التداخل بين المفهومين.

إن توظيف العولمة وعلى نحو خاص التوظيف الأمريكي لها أي الأمركة وعدم التفريق بين الظاهرة وتوظيفها هو الذي أعطاها وجهها القبيح ووسع من دائرة المناوئين لها مع الأخذ في الاعتبار أن الأمركة ليست التوظيف الوحيد للظاهرة.

تطمح هذه الورقة إلى أن تضع حدوداً فاصلة بين ظاهرة العولمة وتوظيفاتها المختلفة ، وعلى نحو خاص الأمركة ، وأن تدرس المظاهر البادية لكليهما لتحدد ما ينتمي منها إلى العولمة وما ينتمي منها إلى الأمركة ،

ومن ثم تلقي الضوء على آثارهما السلبية والإيجابية على بلدان العالم المختلفة.

تحديد المفاهيم

أولاً- مفهوم العولمة:

العولمة لغة تعني تغليب الشأن العالمي على الشأن المحلي لكل بلد على حدة بينما تعني الأمركة تغليب الشأن الأمريكي على الشأن المحلي لكل بلد على حدة وذلك لإضفاء الأمريكيين صفة العالمية على كل ما هو أمريكي غير أن المفهومين اصطلاحاً ، لم يستقرا على معنى محدد ، ومن ثم فاستخدامهما يحيلنا إلى تصورات ومفاهيم مختلفة يمكننا هنا أن نذكر عدداً منها:

أ) المفهوم الواقعي للعولمة:

هو الذي يتعامل مع العولمة كما هي واقعة بالفعل.

ب) المفهوم المستقبلي للعولمة:

وهو الذي يتعامل مع العولمة كتنبؤ أي كما ستكون عليه في المستقبل.

ج) المفهوم الأيديولوجي للعولمة:

وهو الذي يتعامل مع العولمة كأيديولوجيا.

د) العولمة كأداة للحرب الباردة:

وهو الذي يتعامل مع العولمة كأداة لحرب باردة جديدة تشنها الولايات المتحدة ضد الأمم والثقافات الرافضة للهيمنة الأمريكية.

1- العولمة كمفهوم واقعي:

العولمة كمفهوم واقعي تعني تسارع معدلات تدفق السلع والخدمات ورأس المال والعمل والمعلومات والأفكار والثقافة و"الموضة" ... إلخ فيما بين البلدان كنتيجة للثورة العلمية والتكنولوجية بشكل عام ، ولثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بشكل خاص. ويُعد هذا التعريف محايداً ويعطي انطباعاً بأن العولمة في صالح الجميع أفراداً وبلداناً قويها وضعيفها منتجيها ومستهلكيها ، ويترك الباب مفتوحاً للاستفادة من مكتسبات العولمة لكل من يستطيع تنمية قدراته التنافسية ليتحول من مستهلك إلى منتج ومن متلقّ إلى فاعل في السوق الدولية ، غير أن المتمعن في اتجاه ذلك التدفق يلاحظ أنه يسير في اتجاه واحد حيث يتم التدفق من الاقتصادات الأقوى إلى الاقتصادات الأضعف والأقل كفاءة ومن ثم فهو يفيد الاقتصادات الأولى ويضر بالثانية.

2- العولمة كتوقع:

العولمة كتوقع تنسحب على حقبة زمنية قادمة تظهر فيها قوى كونية تحكم

سيطرتها على الحياة الاجتماعية للأجزاء فتذوب خلالها الثقافات والهويات القومية والوطنية لمصلحة تلك القوى الكونية [1]، ويتعمد المتحدثون عن العولمة الخلط بين المفهوم المستقبلي للعولمة والمفهوم الواقعي لها حيث يلجأ مؤيدو العولمة إلى استخدام الدلالة المستقبلية في الموضع الذي يقتضي استخدام دلالاتها الواقعية تهليلاً وتعظيماً لمقدمها بينما يلجأ مناوئوها إلى ذلك تضخيماً لمساوئها وتحذيراً من مقدمها ، كما يختلف المؤيدون والمناوئون في تحديد طبيعة تلك القوى الكونية ، فبينما يرى المؤيدون أنها الشركات المتعدية للجنسية دون تحديد لجنسيتها أو جنسية دولتها الأم ، ويذهبون إلى الحد الذي يرون فيه أن كافة البلدان والدول قويها وضعيفها ستخضع لتلك القوى الكونية يرى المناوئون أنها - أي تلك القوى الكونية - ليست سوى الولايات المتحدة الأمريكية وشركاتها المتعدية للجنسية حيث تعد العولمة وفقاً لهم مجرد مرادف للأمركة ، والعولمة وفقاً لهذا المفهوم ستعصف بالدولة الوطنية وسياساتها وقيودها المختلفة التي تعوق حركة قوى السوق العالمية ، ومن ثم فقوى السوق العالمية ستكون سيدة الموقف حين تعجز الدولة الوطنية عن التدخل في حركة عوامل الإنتاج من عمل ورأس مال وحركة السلع والخدمات والأفكار والمعلومات " والموضة " ... إلخ ، الأمر الذي سيجعل السياسة في قبضة الاقتصاد وليس العكس ، غير أن هذا القول فيه الكثير من المبالغة والخيال [2] حين يتعلق الأمر بما هو واقع بالفعل وليس بما هو متوقع حيث ليس ثمة مؤشرات تدل على تزايد حرية تدفق العمال على سبيل المثال ، وإنما يشهد العالم المزيد من التضييق على حرية العمالة في الهجرة والتنقل ، وحتى فيما يتعلق بحركة عنصر رأس المال ، فإن الأمر لا يخلو من المبالغة والتخيل ، فرؤوس الأموال الأمريكية وغيرها تحجم عن الانتقال إلى العديد من بلدان نصف الكرة الجنوبي لأسباب عديدة من ضمنها : عدم الاستقرار السياسي ، وعدم وجود الضمانات القانونية اللازمة ، وعدم وجود الأيدي العاملة

الماهرة والمدربـــــة ... إلخ ، ثم إن رؤوس الأموال الأمريكية ممنوعة من دخول بـــعض بــــلدان العالم وذلك لتعرضها للعقوبات الأمريكية والدولية، كما أن أحداث 11 سبتمبر والحرب الأمريكية على الإرهاب ستترك آثارها الضارة على حـــركة انتقـــال رؤوس الأموال من وإلى الولايات المتحـــدة وفيما بين غيرها من البلدان ردحاً من الزمن ، وأخيراً فإن التدفق الثقـــافي والإعلامي من قبـــل عواصم الغرب على بـــلدان نصف الكرة الجنوبـــي يستدعي بـالضرورة عمليات مقـاومة شرسة أو لا تقل شراسة عن عمليات المقـاومة الضارية التي واجهها الغزو المسلح في العصر الكولونيالي ، وما تنامي الثقـافات السلفية الدينية والقومية في بلدان نصف الكرة الجنوبي إلا شكل من أشكال الدفاع القـومي والديني عن الذات فـي مواجهـة عمليـات تذويـب ومسخ الهويات الثقـافية للأمم الصغيرة والضعيفة.

3- العولمة كأيديولجيا:

العولمة بـهذا المعنى لا تعدو كونها إعادة صياغة لمقـولة النظام العالم الجديد وفق الرؤية الغربية التي تلقفت المصطلح من النظم اليسارية والثورية في العالم الثالث لتعطيه صياغات بديلة في أعقاب انهيار الاتحـاد السـوفيتي ومنظومة حـلف وارســو ، تلك الصياغات لا تخرج عن إيديولوجيا الســـوق وتتصرف إلى وصف كافة عمليات التحـول السياسـي والاقـــتصادي عن النماذج الوطنية والاشــتراكية صوب النظام السوقـــي " الليبرالي " وهي التي صارت تسـوق تحت تسمية برامج التكيف الهيكلي بما تشتمل عليه من برامج إصلاح سياسي وبرامج تحـرير التجارة بواسـطة إلغاء القـــيود الكمية وغير الكمية عليها والخصخصة وكـف يـد الدولـة عـن التدخل في النشـاط الاقتصادي ، والحد من الإنفاق العام وما يرتبـط بـه من تخفيض للضرائب على الأربـــاح والشـــرائح العليا في المجتمع دون الشرائح الدنيا ... إلخ . ووفقاً لذلك لا يتم قبـــول أي دولة في المجتمع الدولي International Community إلا إذا خضعت لتلك الشروط، وتسمى عملية الإذعان لتلك الشروط عملية إدماج للدولة س أو ص في المجتمع الدولي .

4- العولمة كأداة للحرب الباردة:

بمجرد انتهاء الحرب الباردة بين المعسكرين وارسو والأطلنطي بانفراط عقد حلف وارسو بدأت الولايات المتحدة تخوض حرباً باردة من نوع جديد ضد الأمم والثقافات الرافضة للتهميش والإقصاء الواقع عليها من قبل الولايات المتحدة، واستخدمت العولمة في هذه الحرب كأداة لحرب نفسية ضد تلك الأمم تعلن سلفاً انتهاء المعركة حتى قبل أن تبدأ لصالح النموذج الأمريكي على نحو خاص والغربي على نحو عام وبما يجعل المنتمين إلى تلك الأمم والثقافات المناوئة أو الرافضة للذوبان والإقصاء يسلمون بالهزيمة أمام إيديولوجيا السوق والثقافة الأمريكية الإقصائية والمهشمة للآخر حتى دون الحاجة إلى إطلاق القذائف.

ويأتي استخدام العولمة كأداة للحرب الباردة على الشاكلة التي استخدمت فيها إدارة ريجان خرافة حرب النجوم وبنجاح لإرهاق ميزانية الاتحاد السوفيتي والوصول به إلى الإقرار بالهزيمة أمام الولايات المتحدة والمعسكر الغربي حتى قبل إطلاق قذيفة واحدة تجاه موسكو، وهو ما تتوخى الإدارة الأمريكية الحالية تحقيقه في مواجهة الأمم والثقافات الرافضة للإقصاء والتهميش من خلال هذا التهويل والتهليل للعولمة ودون الحاجة إلى إطلاق القذائف وأعمال الغزو الباهظة التكاليف أو على الأقل حصرها في أضيق نطاق.

ثانياً- مفهوم الأمركة:

إذا كانت العولمة تعني تغليب الشأن العالمي على الشأن المحلي لكل دولة فإن ما يحدث في العالم منذ غزو العراق عملياً لا يتوافق مع ذلك بل إنه على العكس تماماً يدل دلالة واضحة على تغليب الشأن الأمريكي على الشأن العالمي أو بمعنى آخر على الشأن المحلي للأمم والبلدان الأخرى رغم كون ذلك التغليب يتم تحت لافتة العولمة في عملية تزوير للمصطلحات والمفاهيم لم يسبق لها مثيل في هذا العالم، فالولايات المتحدة منذ سيطرة المحافظين الجدد على السلطة من خلال امتطائهم صهوة الرئيس الأمريكي الحالي جورج بوش صارت تعتبر نفسها

العالم وبالتالي فهي تعتبر كل ما يخدم السلم والأمن الأمريكي يخدم السلم والأمن العالمي ، وكل ما يحقق المصالح الأمريكية يحقق المصالح الدولية أو بمعنى آخر كل ما يصلح للولايات المتحدة يصلح للعالم . ومن ثم على كافة بلدان العالم أن تسعى لتحقيق الصالح الأمريكي من أجل أن يتحقق الصالح العالمي ، وإذا تعارض القانون الدولي مع المصالح الأمريكية فليتعطل القانون الدولي ، وإذا تعارضت مشيئة المؤسسات الدولية وفي مقدمتها مجلس الأمن الدولي مع المشيئة الأمريكية فلتتعطل إرادة تلك المؤسسات بل إنها قد تفقد مصداقيتها ويُعاد فيها النظر إذا ما تقاعست عن خدمة المصالح الأمريكية، أما بلدان العالم الأخرى فعليها الامتثال للقانون الدولي والإرادة الدولية حين تتفق مع الإرادة الأمريكية وللتحقق من مفهوم الأمركة ومعرفة المبادئ التي تحكمها أو تحكم السياسة الأمريكية. منذ غزو العراق وحتى اليوم نحيل القارئ على إعلان المبادئ الذي نشره المحافظون الجدد عام 1997 تحت عنوان

A project for new American century

القرن الأمريكي الجديد وهو منشور على شبكة المعلومات الدولية تحت نفس العنوان(4) ويدور إعلان المبادئ ذاك حول النقاط التالية:

1- إحكام السيطرة الأمريكية على العالم وتصدير القيم الأمريكية له.
2- حرمان القوى الكبرى من ممارسة أي دور إقليمي أو دولي.
3- تجاوز المؤسسات أو المنظمات الدولية وفي مقدمتها مجلس الأمن الدولي حين يقف حجر عثرة أمام الطموحات الأمريكية لجعل هذا القرن قرناً أمريكياً.

العولمة والأحادية في التاريخ

أولاً- العولمة:

يذهب الكثيرون إلى كون العولمة ظاهرة حديثة ولم تحدث في التاريخ غير أن العولمة وفقاً للتعريف الواقعي عرفت منذ خمسة قرون(5) ويمكن لنا أن نميز هنا بين ثلاث مراحل منها:

1- مرحلة ما قبل الحرب الباردة:

تبدأ هذه المرحلة مع موجة الاستعمار الاستيطاني الذي يعد أقدم مظاهر العولمة، ورغم أنه ثمة من يرى أن هناك مظاهر أقدم لها تضرب عميقاً في

التاريخ الإنساني إلى زمن الاسكندر المقدوني والإمبراطورية الرومانية غير أننا سنعد موجة الاستعمار الاستيطاني الحديث المرحلة الأقدم للعولمة حيث تدفق خلالها على نصف الكرة الجنوبي مئات الآلاف من الجنود المدججين بالسلاح الناري، وتدفق معهم تيار من السلع ورؤوس الأموال والمبشرين بأديان المستعمرين وثقافاتهم ولغاتهم ... إلخ.

2- **مرحلة الحرب الباردة الأولى:**

وهي المرحلة التي نشأت في ظل ثنائية القطبية واتخذ التدفق فيها شكلاً آخر عبّر عنه بالاستعمار الاقتصادي "الإمبريالية" وتمثل في تدفق رؤوس الأموال من خلال الشركات العابرة للقوميات وكذلك تدفق السلع والخدمات والمعلومات والمعرفة ... إلخ، حيث تطورت في هذه المرحلة تكنولوجيا النقل والاتصالات والمعلومات مما ساهم في تسريع معدلات التدفق عنها في المرحلة الأولى.

3- **مرحلة الحرب الباردة الثانية:**

وهي المرحلة التي نشأت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتحول العالم إلى أحادية القطبية وبالتالي فلقد شهدت هذه المرحلة طغيان النموذج السوقي الغربي ومحاولة تعميمه على العالم ومن ثم برز المفهوم الإيديولوجي للعولمة باعتبارها تعميماً للنموذج السوقي الغربي، فالتاريخ ينتهي عند النموذج السوقي الغربي الذي يعد النموذج الأمثل والنهائي كما قرر فاكوياما وغيره من منظري الغرب بشكل عام ومنظري الولايات المتحدة بشكل خاص[6]، وشهدت هذه المرحلة المزيد من تسارع معدلات التدفق من المراكز الرأسمالية وفي مقدمتها الولايات المتحدة إلى الأطراف الاستهلاكية في نصف الكرة الجنوبي وفي مقدمتها البلاد العربية.

ثانياً- الأحادية:

إذا ما استثنينا المثالين الروماني والأمريكي فمن الصعب العثور على أمثلة أخرى مشابهة عبر التاريخ للسيطرة الأحادية على العالم، وذلك لفشل كافة المحاولات الأخرى للسيطرة على العالم في تحقيق مآربها وعلى نحو يمتد عبر الزمن.

الرّومنة:
شهدت الألفية الأولى بعد ميلاد المسيح سيطرة أحادية للإمبراطورية الرومانية على حاضرة العالم القديم ، واعتبرت كافة المعارضين للهيمنة الرومانية برابرة ومتوحشين وخارجين على القانون ، وساد اعتقاد لدى الرومان وقياصرتهم يقول بأن ما يصلح لروما يصلح للعالم وبأن النصر العسكري هو السبيل لتجديد انتخاب القناصل الرومان [7] .

الأمركة:
وهي التكرار الوحيد للإمبراطورية الرومانية في التاريخ وعلى نفس الشاكلة اعتبر الأمريكيون الخارجين على السيطرة الأمريكية والرافضين للإقصاء والتهميش والذوبان في الثقافة الأمريكية إرهابيين أو راعين للإرهاب وخارجين على القانون ، وساد اعتقاد لدى الأمريكيين بأن ما يصلح لأمريكا يصلح للعالم وعلى نفس شاكلة قناصل روما فإن الطريق إلى البيت الأبيض والفوز في الانتخابات الأمريكية مع ازدياد النزعة العنصرية في أمريكا وعقدة تضخيم الذات سيمر عبر تحقيق انتصارات على برابرة هذا العصر المزعومين الإرهابيين ورعاة الإرهاب .

مظاهر العولمة

تعد العولمة ظاهرة محايدة ولا يتجاوز تعريفها الواقعي الذي سبقت الإشارة إليه دلالة تسارع معدلات تبادل السلع والخدمات ورؤوس الأموال والأفكار والمعلومات ... إلخ ، والعولمة وفقاً لهذا التعريف ليست بالضرورة لصالح لاعب دولي دون آخر ، غير أن توظيف العولمة من قبل الأقوياء دولاً ومؤسسات هو الذي جعلها تبدو منحازة وتغدو أداة في يد هذه القوة أو تلك لتعزز هيمنتها الاقتصادية والسياسية ، وللعولمة توظيفاتها المختلفة غير أننا سنشير فقط إلى التوظيفين التاليين:

أ- **التوظيف الغربي للعولمة:**
عقب انهيار الاتحاد السوفيتي وانسحابه من دائرة التأثير الدولي استمر الغرب ممثلاً بأعضاء الحلف الأطلسي ، فترة قصيرة ، بالعمل كلاعب دولي واحد ومتماسك في السياسة الدولية ومن ثم عملوا معاً للتنظير للنظام العالمي الجديد

وللاستفادة من ثمار الانتصار على منظومة حلف وارسو ، وهو ما دفعهم لتوظيف العولمة سوياً وكان من ثمار ذلك خوض حربين متتاليين ، حرب الخليج الثانية (1991) ، والحرب على يوغسلافيا عام (2000) ، وكذا فرض شروطهم على البلدان الأخرى وعلى نحو خاص البلدان النامية من خلال منظمة التجارة الدولية ، غير أن غزو العراق دفع إلى انهيار ذلك التحالف .

ب - **التوظيف الأمريكي للعولمة:**

حين سيطر المحافظون الجدد على السلطة في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال امتطائهم صهوة الرئيس الأمريكي بوش أظهروا بكل عجرفة استهانتهم بالحلفاء الأوروبيين ونيتهم الانفراد بالسيطرة على العالم وبدعوا يعملون من أجل توظيفهم المنفرد لاستثمار العولمة وكذا الانتصار على منظومة حلف وارسو ، وبدأ النزاع الخفي تارة والمعلن تارة أخرى يحل بين الحلفاء السابقين محل التفاهم والوفاق ، وشكل غزو العراق ومراحل الإعداد له بوادر انهيار التحالف الغربي ونزوع الولايات المتحدة إلى الانفراد بالسيطرة على العالم . تأسيساً على ذلك ، يمكننا الإشارة إلى المظاهر التالية لتوظيف العولمة من قبل الغرب بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية:

1- تقلص دور الدولة الوطنية الاقتصادي لصالح المؤسسات الخاصة والاحتكارية .
2- تنامي قوة الشركات المتعدية للجنسيات إلى الحد الذي تمكنت فيه من استخدام الحكومات الوطنية لخدمة أغراضها .
3- تدويل الأسواق في ظل تزايد حجم تجارة الانترنيت وتدفق الرساميل على البلدان التي تتوفر بها عمالة رخيصة .
4- الاتجاه لإلغاء الحواجز الكمية وغير الكمية وعلى نحو خاص على واردات البلدان النامية وظهور منظمة التجارة العالمية .
5- التحول المطرد نحو السوق الاحتكارية والتباعد عن سوق المنافسة الكاملة .

6- انهيار مفهوم السيادة الوطنية للأمم الأضعف لصالح دول الحلفاء وإرساء قاعدة حق التدخل في الشئون الداخلية للبلدان الأخرى بحجج عديدة أهمها الحرب على الإرهاب ونزع أسلحة التدمير الشامل .

7- إخضاع الاقتصادات الضعيفة والنامية للاقتصادات الأقوى والشركات المتعدية للجنسية .

مظاهر التوظيف الأمريكي للعولمة

ثمة تداخل كبير في المظاهر بين التوظيف الغربي للعولمة والتوظيف الأمريكي لها ومع ذلك يمكننا حصر المظاهر التالية للتوظيف الأمريكي للعولمة :

1- إحكام الهيمنة الأمريكية بكافة مظاهرها السياسية والاقتصادية والثقافية على العالم في ظل تكريس نموذج أحادية القطبية .

2- تهميش دور القوى الكبرى إقليمياً ودولياً والحيلولة دون بروز قطب جديد .

3- تقليص دور المؤسسات الدولية وفي مقدمتها مجلس الأمن الدولي والدعوة إلى إعادة النظر فيها بما يخدم الدور الأمريكي الجديد في العالم .

4- ازدواجية المعايير الدولية، فالولايات المتحدة الأمريكية فوق القانون الدولي وفوق المؤسسات الدولية بينما على بلدان العالم الأخرى الخضوع للقانون الدولي والمؤسسات الدولية .

5- ارتهان الحكومة الأمريكية ومؤسساتها المختلفة للشركات المتعدية الجنسية وعملها الدؤوب من أجل تطويع الحكومات الأخرى لإرادة تلك الشركات .

6- انهيار مفهوم السيادة الوطنية للبلدان الأضعف لصالح الولايات المتحدة الأمريكية .

7- توظيف منظمة التجارة الدولية لصالح السياسات الاقتصادية الأمريكية .

آثار العولمة

للعولمة بتوظيفاتها المختلفة - إذا ما استثنينا التوظيف الأمريكي لها - آثار عديدة يمكن أن نجملها في التالي:

1- الآثار السياسية:

إذا استعرنا تنظيرات كارل ماركس فــإن عولمــة الإنتــاج والتوزيــع والتبادل ستفرز بناءً فوقياً يختلف عن البــناء الفوقــي الذي أفرزته علاقـــات الإنتاج في ظل الثورة الصناعية في المرحلة السابقة عن ثورة تكنولوجيا المعلومات التي أفرزت بناءً سياسياً تمثل في الدولة القـــومية؛ لذا فإنه في ظل عولمة الإنتاج والتوزيع والتبادل سيشـــهد العالم تجاوزاً للدولة القـــومية أو تجاوزاً لها باتجاه الدولة العالمية أو الأممية التي ستتمكن من السيطرة على العالم عن طريق سياســـات التحكم عن بعد غير أن إضعاف ســـلطة الدولة الوطنية لصالح الحكومة العالمية قد يؤدي إلى إبراز الانتماءات السابقـــة على الدولة كالانتماءات الطائفية والقبـــلية والعشـائرية وغيرها التي ستعمل الحكومة العالمية على بعثها من أجل إحكام قبضتها على بلدان العالم بعد تفتيتها وإضعافها من خلال إثارة الفتن الداخلية بين تلك الانتماءات .

2- الآثار الاقتصادية:

حيث إن العولمة تعمل على تحرير قوى السوق على الصعيد العالمي فإن الســوق الدولية ستعمل على إعادة التخصيص الأمثل للموارد بحـــيث يتولى الأكفأ اســتخدام تلك الموارد لإنتاج السلع والخدمات التي يكون أكفأ من غيره في إنتاجها وهذا مكمن الخطورة بالنسبة للبلدان المتخلفة التي هي الأقل كفاءة غالباً ، لذا فإن تحرير التجارة الخارجية من القيود سيؤدي إلى إعادة تخصيص الموارد لصالح الأكفأ إدارياً وتقـــنياً والأكثر أخذاً بالأسبـــاب العلمية للإدارة وهو الذي ينتمي إلى نصف الكرة الشـــمالي بـــالضرورة ولغير صالح البــلدان المتخلفة أو النامية وهو الأمر الذي أوكل إلى منظمة التجارة الدولية التي بدورها ستعمل على تحقيق هذا الهدف الضار بالاقتصادات الأضعف والأقل كفاءة . وبـــالإضافة إلى تلك الآثار العامة التي تنال البلدان الغنية والفقيرة على حد ســواء يمكننا الإشــارة إلى بعض الآثار الخاصة بكل مجموعة من البلدان على حدة:

أ - الآثار الاقتصادية للعولمة على البلدان الغنية:

على الرغم من تهليل اقتصاديي العالم المتقدم للعولمة إلا أنهم أثاروا بعض المخاوف التي يمكن أن تؤدي إليها العولمة ! مثل تنامي منافسة الاقتصادات الصناعية الأخرى واقتصادات البلدان حديثة التصنيع وزيادة درجة انكشاف تلك الاقتصادات للخارج ، وكذلك الانخفاض الشديد لأجور العمال غير المهرة نتيجة لهجرة الصناعات المعتمدة على الأيدي العاملة غير الماهرة للبلدان النامية .

ب- الآثار الاقتصادية للعولمة على البلدان النامية:

في ظل قانون البقاء للأقوى أو الانتخاب الطبيعي سيؤدي التفوق الإداري والتقني للشركات المتعدية للجنسيات إلى التهام المشروعات الاقتصادية المحلية من إنتاجية أو خدمية لصالح تلك الشركات حيث سيصبح رأس المال الأجنبي سيد الموقف في الاستثمارات المحلية للبلدان النامية وستلعب القدرة التنافسية العالية لتلك الشركات في ظل ثورة التكنولوجيا والمعلومات والاتصالات دوراً رئيسياً في القضاء على أي بادرة تصنيع أو إنتاج محلية ، ومن ثم سيختنق قطاعا الصادرات ومنافسة الواردات من جراء تلك المنافسة الأمر الذي سيؤدي إلى إحداث خلل مزمن في موازين مدفوعات البلدان النامية ومن ثم إلى انهيار عملاتها واقتصادياتها ، ومن العبث القول بأن فتح باب المنافسة الأجنبية للقطاعين سيؤدي إلى أن يعملا بشكل أكفأ بدلاً من انهيارهما لصالح المنافس الأجنبي .

ج- الآثار الاجتماعية والثقافية للعولمة:

في ظل التدفق الإعلامي والثقافي من جانب واحد بمعدلات متسارعة ستعصف ثقافات البلدان الأقوى والأكثر إنتاجاً ثقافياً بالثقافات الوطنية ومن ثم ستخسر بعض تلك البلدان أو الأمم لغاتها وآدابها وعاداتها وتقاليدها وبنياتها الاجتماعية المتماسكة لصالح الثقافات والعادات والتقاليد الغازية .

د- آثار العولمة على البلاد العربية:

قد تكون المنطقة العربية بمنأى عن التأثيرات الثقافية العنيفة للثقافات الغازية ، وذلك بفعل قوة الثقافة المحلية السائدة وهي الثقافة العربية المستندة إلى الدين الإسلامي الذي يشغل عامل القوة الرئيسي في مقاومة التغريب الثقافي المترتب على العولمة غير أنها لن تكون بمنأى عن التأثيرات السياسية والاقتصادية بل لعلها تكون أكثر انكشافاً من غيرها لتلك التأثيرات ، وذلك لكونها تفتقد القدرة على المنافسة العالمية حيث تدني استيعاب تكنولوجيا المعلومات وتدني معدلات الاستفادة منها وتدني معدلات الإنتاجية ومستوى التدريب التقني والمهني وتدني الإنفاق على البحث والتطوير العلمي ، وعدم الاستقرار السياسي وسوء الإدارة وكل تلك الأسباب تساهم في تعتيم الصورة التي ستكون عليها البلدان العربية حين تصبح العولمة كتنبؤ واقعاً قائماً ، الأمر الذي سيجعلنا ندفع ثمناً باهظاً من حريتنا واستقلالنا وهويتنا الوطنية إذا لم نرفع من وعينا وقدراتنا التنافسية في مختلف المجالات .

آثار التوظيف الأمريكي للعولمة " الأمركة "

رغم كون المحاولات الأمريكية للسيطرة على العالم تمتد في الزمن إلى بدايات القرن التاسع عشر وعلى نحو أكثر دقة إلى الحرب العالمية الأولى فإن تحقق تلك السيطرة لا تذهب بعيداً في الزمن ولا يتجاوز عمرها عقداً واحداً بل يمكن اعتبار غزو أفغانستان بمنزلة البداية الفعلية للأمركة أو للهيمنة الأمريكية على العالم . ويشكل قصر الفترة الزمنية للأمركة عاملاً سلبياً لإمكانية الدراسة العلمية لآثار الأمركة وإصدار الحكم القيمي عليها غير أننا مبدئياً يمكن أن نخلص إلى ذكر الآثار التالية للأمركة :

1- الآثار السياسية:

يشكل انهيار مفهوم السيادة الوطنية للبلدان الأضعف لصالح الولايات المتحدة أول أهم الآثار السلبية للأمركة ، فحكومات البلدان الأضعف صارت تتنافس على نيل رضا الإدارة الأمريكية

وتقـــــديم فروض الولاء والطاعة لها لتمنحـــها بطاقـــة الانضمام إلى المجتمع الدولي التي لا تعني سوى بطاقة الإذعان والقبـول بالسـيطرة الأمريكية والتدخل الأمريكي في شئونها الداخلية، وقد شكل رأس الذئب المقـطوع[8] في أفغانسـتان والعراق رادعاً قوياً للحكومات في البلدان الضعيفة لتعلن إذعانها وانقيادها للشـروط الأمريكية المفروضة على الضعفاء .

ويشـــكل خضوع القـــانون الدولي ، والمؤسســــات الدولية ، للمشــــيئة الأمريكية ثاني تلك الآثار السلبــــية للعولمة حـــــيث صارت الولايات المتحــدة فوق القـــانون الدولي وفوق المؤسســـــات الدولية اللذين صارا خادمين طيعين للإدارة الأمريكية .

كما يمثل نزع سلاح الضعفاء أحـد أهم تلك الآثار ، فنزع السلاح وفقاً للأعراف الدولية لا يتم إلا بـــين طرفين أو عدة أطراف متكافئة وبشــكل متكافئ أما أن يتم نزع أسلحـــــة الطرف الأضعف فحســـب فإن ذلك ســـمة من ســـمات العلاقات الدولية في ظل الأمركة .

ويأتي قبـول جيوش الدول الأخرى لدور كتائب الصدام الأمامية في الحـــــرب الأمريكيـة المزعومـة علــى الإرهــاب تحت لافتة القوات الدولية لحفظ السلام آخر الآثار السياسية للأمركة .

2- **الآثار الاقتصادية:**

يمثل تقـلص الدور الاقـتصادي للدولة الوطنية باســتثناء الولايات المتحـــدة الأمريكية أول أهم الآثار الاقـــتصادية للأمركة وذلك من خلال إخضاع الدولـة الوطنية لشـروط منظمة التجارة الدولية والمؤسســـات المالية الدولية كصندوق النقـد الدولي والبـنك الدولي للإنشـــاء والتعمير للاندماج في الســوق الدولي ، الأمر الذي رهن السياسات الاقتصادية الوطنية وزاد من درجة انكشافها للخارج في الوقـــت الذي لا تخضع فيه الإدارة الأمريكية لتلك المواثيق والشـروط التي وضعتها للبـــــلدان الأخرى لتندمج في الســـــوق الدولي ، فهي أي الولايات المتحـــدة الأمريكية في منأى عن رفع القيود الكمية وغير الكمية عن الواردات الأمريكية وفي منأى عن شــــروط رفع الدعم عن الصادرات الأمريكية وقـطاع منافسة الواردات [9] .

ويمثل تمكن الولايات المتحـدة من وضع يدها على موارد وأسـواق البـلدان التي

تعرضت للغزو الأمريكي كأفغانستان والعراق ثاني أهم الآثار الاقتصادية للأمركة، كما يمثل التحول السريع للسوق العالمي نحو الاحتكار ولصالح الشركات المتعدية للجنسية آخر تلك الآثار .

3- **الآثار الاجتماعية والثقافية:**

تسعى الولايات المتحدة الأمريكية ، بواسطة التدفق الإعلامي والمعلوماتي ومن خلال شبكة واسعة من القنوات الفضائية الأمريكية أو المدعومة أمريكياً وشبكة المعلومات الدولية الانترنيت ، إلى تذويب الثقافات الرافضة للتهميش والإقصاء ونشر منظومة القيم الأمريكية المزعومة عن العلمانية والتعددية ، ولاحترام حقوق الإنسان وحقوق الأقليات رغم تدني احترامها أمريكياً وخصوصاً عقب اعتداءات الحادي عشر من الفاتح "سبتمبر "وبما في ذلك تلك القيم المدمرة للعلاقات الاجتماعية وفي مقدمتها العلاقات الأسرية ليحل محلها الزواج المثلي ولاحترام حقوق الشاذين جنسياً الذين صاروا يطالبون علناً بحرياتهم الفوضوية تلك في بعض المجتمعات العربية والإسلامية ! ونخلص من ذلك إلى القول بأن حرباً باردة أمريكية جديدة لا هوادة فيها تشن على المجتمعات والثقافات الرافضة للهيمنة الأمريكية تهدف إلى تدمير بنياتها الاجتماعية وتقاليدها وعاداتها وأديانها تمهيداً لذوبانها في ثقافة اليانكي الغالبة ، والمغلوب مولع بتقليد الغالب كما يرى ابن خلدون[10] . غير أن ذلك التدفق الإعلامي والثقافي ومحاولات الإقصاء والتهميش للثقافات الأخرى من قبل الولايات المتحدة ستستدعي مقاومة لا تقل شراسة عن المقاومة الضارية التي واجهها الغزو المسلح في العصر الكولونيالي كما أسلفنا وكما تدل على ذلك تجربة غزو كل من العراق وأفغانستان .

الخلاصة والنتائج

حاولنا في هذه الورقة وضع حدود فاصلة بين العولمة وتوظيفاتها المختلفة وعلى نحو خاص التوظيف الأمريكي لها الذي أطلقنا عليه وصف الأمركة وأن نثبت أن توظيف العولمة ذاك هو الذي أعطى العولمة وجهها القبيح ووسع من دائرة المناوئين لها وخلصنا من العرض السابق إلى أن العولمة ظاهرة محايدة ، إذا ما تعاملنا معها باعتبارها مجرد تسريع لمعدلات تبادل السلع والخدمات ورؤوس الأموال والأفكار و " الموضة " ،

غير أن توظيفها من قبل الولايات المتحدة أو غيرها من القوى هو الذي منحها سلبيات عديدة أدت بالإضافة إلى تلك التي ذكرت في الورقة إلى أربع حروب خاض الحلفاء الغربيون حربين منها هما حرب الخليج الثانية عام 1991 وحرب البلقان عام 2000، التي أشعلت زمن الشراكة الغربية في توظيف العولمة باسم إنقاذ كوسوفو، وخاض الأمريكيون حربين آخريين في أفغانستان والعراق مع استخدام بعض كتائب الصدام الأمامية التي لا تصل إلى مستوى الشركاء في الحرب ذلك بالإضافة إلى عمليات النهب والإفقار المنظم الذي تقوم به الشركات المتعدية للجنسية وبدعم كامل من الحكومات الوطنية وعلى نحو خاص حكومة الولايات الأمريكية.

نخلص من ذلك إلى القول بأنه على البلدان والأمم المتضررة من توظيفات العولمة والقوى المناهضة لها أن تتبنى سياسات من شأنها الدخول في تكتلات إقليمية توفر لها غطاءً واقياً من الآثار الضارة لتوظيفات العولمة المختلفة وعلى نحو خاص الأمركة والاقتداء بالنموذج الأوروبي دون أن تغفل اتخاذ خطوات أخرى من شأنها رفع قدراتها التنافسية في كافة المجالات التي منها على سبيل المثال لا الحصر :

1- الرفع من درجة استيعاب تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ومعدل استخدامها .
2- دعم البحث العلمي وزيادة معدل الإنفاق على تطوير رأس المال البشري بما من شأنه الرفع من مستوى التعليم .
3- العمل على الرفع من مستوى التعليم والتدريب من خلال العمل .
4- الأخذ بالأسباب العلمية للإدارة وتجنب أنماط الإدارة القبلية والعشائرية السائدة في العالم المتخلف .
5- العمل على توسيع دائرة المشاركة السياسية والاقتصادية بما من شأنه تقوية أواصر اللحمة الوطنية وتفويت الفرصة على القوى الموظفة للعولمة في إذكاء روح الفتنة القبلية والطائفية والعرقية .

الهوامش والمراجع

(1) David Held and et.al, (2000) Global Transformations, Polity Press, Cambridge P3 .

(2) بـول هيرسـت وجراهام طومبسـون (2001) ، ما العولمة ، الاقـتصاد العالمي وإمكانات التحكم ، ترجمة د. فالح عبد الجبار ، عالم المعرفة عدد (273) ، مطابع السياسة ، سبتمبر 2001ف ، الكويت ، ص 9 - 34 .

(3) يعرف د. محمد عابد الجابري العولمة بأنها " العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلداً بعينه هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات على بلدان العالم أجمع " انظر أسامة أمين الخولي " محرر " (2000) ، العرب والعولمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الثالثة ص 300 .

(4) جورج مونوبيوت 11 / 3 / 2003ف ، عميان باختيارهم ، صحيفة الغارديان ، ترجمة حسين اللموشي .

(5) انظر جلال أحمد أمين في العرب والعولمة ، مصدر سابق ، ص 153 .

(6) انظر فرانسيس فاكوياما (1993) ، نهاية التاريخ وخاتم البشر ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، ترجمة حسين أحمد أمين ، انظر أيضا راسل جاكوبي (2001) ، نهاية اليوتوبيا ، عالم المعرفة عدد (269) ، الكويت ، مايو 2001ف .

(7) لبيب عبد الستار (1974) ، الحضارات ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة التاسعة ، ص 184 - 196 .

(8) أسطورة عربية ، تقول : بأن أسداً وذئباً وثعلباً ، كانوا يعيشون معاً في الغابة ، في ظل قحط شديد . حصلوا يوماً على صيد ثمين فأمر الأسد الذئب بالقسمة ، فقسم الطريدة إلى ثلاثة أقسام ، مراعياً أن يكون نصيب الأسد للأسد ، ومع ذلك غضب الأسد غضباً شديداً وفصل رأس الذئب عن جسده متهماً إياه بعدم العدل . ثم أمر الثعلب بالقسمة فقسم الطريدة أيضاً إلى ثلاثة أقسام على أن يكون الثلث الأول لإفطار الأسد والثاني لغدائه والثالث لعشائه . فامتدح الأسد حكمة الثعلب قائلاً له : من علمك الحكمة يا ثعلب ؟ فأجاب الثعلب : علمنيها ياسيدي رأس الذئب الطائر عن جثته .

(9) نعوم تشومسكي وآخرون (2003) ، العولمة والإرهاب ، ترجمة د. حمزة المزيني مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى ص 35 .

(10) عبد الرحمن بن خلدون (1988) ، المقدمة ، دار الفكر ، بيروت ، ص 184 .

د. رجب بودبوس

في الطريق الثالث

أليس من الممكن أن التناقض بين الحرية والنظام، الفردي والاجتماعي، ليس إلا تناقض زائف ؟
أليس من الممكن أن النظام الذي يضاد الحرية هو النظام المفروض على الحرية من خارجها، وليس النظام الذي تصنعه الحرية منظمة نفسها في مجتمع؟
أليس هناك طريق ثالث فيه تتصالح الحرية والنظام، حيث العدالة لا تقتضي نفي الحرية وحيث الحرية لا تنتج الظلم؟
يجب إذن إيجاد وسائل تحقيق المجتمع حيث الحرية تؤسس المجتمع، والمجتمع يكفل الحرية. وبدلاً من الصدام بين الحرية والنظام، بين الفردي والاجتماعي، فإن الحرية والنظام يمكنهما تأسيس بعضهما، عندما تشرّع الحرية نظامها. الحرية هكذا ليست نفي النظام وإنما أساسه.
لكن أن لم تتوصل الإنسانية إلى حرية تنظم نفسها، فإنها تصير كسيزيف والصخرة. الخيار واضح: إما ديمقراطية مباشرة أو عبثية سيزيف.



المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

ندوة العدد

العلاقات الدولية

في ظل الاحتلال الأمريكي للعراق

من إصدارات المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر



فضاءات 7
مدارات التأويل

فضاءات 8
في جدل الصراع الحضاري

فضاءات 9
الكتابة ، الجسد ، الفضاء النسوي

العلاقات الدولية في ظل الاحتلال الأمريكي للعراق

نظمت أمانة تحرير
مجلة دراسات ندوة بعنوان

العلاقات الدولية في ظل الاحتلال الأمريكي للعراق

وذلك بمقر المركز العالمي لدراسات
وأبحاث الكتاب الأخضر
بطرابلس بتاريخ 7. 9. 2003

شارك في الندوة كل من:

أ. د. إبراهيم أبو خزام
د. أحمد علي الأطرش
أ. حسين اللموشي
أ. موسى الأشخم

أ.موسى الأشخم:

باسم أمانة تحرير مجلة دراسات نرحب بكم في هذه الندوة لنتحدث حول قضية من أهم قضايا هذا العصر وهي قضية الاحتلال الأمريكي للعراق الذي يمكن اعتباره حدثاً تاريخياً هاماً يؤرخ لنهاية عصر، وبداية عصر آخر في العلاقات الدولية فضلاً عن أن آثاره وتداعياته تتجاوز المنطقة العربية والإسلامية لتصل إلى سائر العالم؛ لذلك ارتأينا كأمانة تحرير المجلة أن نبدأ بهذه القضية الهامة في إرساء تقليد جديد لهذه المجلة الذي يمكن لنا أن نقسمه إلى المحاور التالية:-

أولا - الأهداف المعلنة والخفية لاحتلال العراق ومحاولات التسويغ الأمريكية.

ثانياً- العلاقات الدولية والتوازن الدولي في ظل احتلال العراق.

ثالثاً- الشرعية الدولية والمؤسسات الدولية في ظل احتلال العراق.

رابعاً- النظام الاقتصادي الدولي والتجارة الدولية في ظل احتلال العراق.

نبدأ هذه الندوة الصحافية بإحالة الكلمة إلى الأستاذ الدكتور إبراهيم أبو خزام ليتناول المحور الأول بالشرح والتحليل.

أ . د. إبراهيم أبو خزام:

أولاً- أود أن اشكر مجلة دراسات لمنحنا هذا المنبر للحديث عن موضوع غاية في الأهمية على الصعيد العربي والعالمي وهو احتلال العراق وآثاره على المنطقة العربية والإسلامية والعالم .

إن الحديث حول موضوع احتلال العراق هو موضوع واسع جداً ومن الصعب تناوله في ندوة واحدة لأن احتلال العراق حدث مأساوي في المنطقة العربية، وهو حدث فريد كما قال الأخ موسى فهذا الموضوع يفتح عصراً جديداً فعلاً في العلاقات الدولية ، وهو يعيد حالة الاستعمار مرة أخرى ، وتلك حالة تصورنا قد انتهت مع أحداث الحرب العالمية الثانية .

وهو استعمار استهدف بشكل سافر دولة ليست من النمط العادي في تقديري ، سواء على المستوى العربي أو الإسلامي أو حتى على المستوى العالمي . فالعراق دولة مؤسسة للجامعة العربية ومنظمة الأمم المتحدة ، وهي دولة كبيرة حتى أنه يمكن الافتراض صعوبة غزوها واحتلالها ...

إن احتلال دولة من هذا الوزن لابد من أن تقف وراءه أسباب كبيرة ، وكمدخل لهذا الحديث سأتحدث عن أهداف الاحتلال بشكل عام حتى أتيح الفرصة للزملاء للتعقيب وفتح الموضوعات بشكل تلقائي .

ولقد تابعت سلسلة من الندوات والمناظرات الإعلامية التي جرت على شاشات الفضائيات العربية وتناولت أهداف هذا الاحتلال وتداعياته على الوطن العربي، ويذهب اعتقادي إلى أن معظم هذه المعالجات لم تتعمق في الأسباب بشكل كاف، وقد تضيف مجلتكم إلى هذا الموضوع بعداً جديداً نستطيع أن نسهم فيه.

إن معظم وسائل الإعلام العربية اختصرت الأسباب في نفط العراق وعزم الولايات المتحدة السيطرة عليه ... ورغم أهمية هذا العامل إلا أنني أعتقد أنه يأتي في المرتبة الأخيرة وليس الأولى ، لكن لماذا هذا الاستنتاج ؟

إنني ببساطة أعتقد أن نفط العراق كان متاحاً للولايات المتحدة ، فهي تستطيع الحصول عليه دون حاجتها إلى بذل الجهد وهذه التكاليف المادية والمعنوية الباهظة ، فالنفط العراقي هو سلعة مطروحة في

الأسواق ويمكن الوصول إليها عن غير طريق الاحتلال سواء بالطرق الاقتصادية العادية أو بالضغوط الدبلوماسية التى كانت العراق مهيأة للتجاوب معها بعد سلسلة الحروب والحصار الذي دام سنوات عديدة أنهكت شعب العراق ونظامها أيضاً.

إن أسباب الاحتلال في نظري أعمق من ذلك، فهناك أسباب استراتيجية بعيدة، أبعد من النفط وإن كانت متعلقة به عند إجراء التحليل الواسع.

إن العامل الأول للاحتلال الذي قد تجدون فيه بعض الخيال أو الشطط، مما يجعل قبوله ليس سهلاً، هو اختيار العراق ككيان بشرى وجغرافي قاعدة لصراعات المستقبل، فصراع المستقبل بين القوى العظمي أوسع من العراق نفسها، ويذهب تصوري إلى أن إحدى ساحات الصراع المهمة في المستقبل القريب، هى منطقة آسيا الوسطى وبحر قزوين، التى تضم تسع دول انسلخت عن الاتحاد السوفيتي، هذه هى منطقة الفراغ الرئيسية التى ظهرت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ودرس التاريخ الأساس يقول: إن الانهيار الإمبراطوري يخلق بالضرورة مناطق فراغ سرعان ما تندفع إليها القوى العظمى لتملأها، هذا حدث بعد الحربين العالميتين في الزمن القريب، فانهيار الإمبراطورية العثمانية هو الذي خلق فراغ الشرق الأوسط فاندفعت إليه القوى العظمى، فأين هى منطقة الفراغ التي خلفها تشظى الاتحاد السوفيتي، إنها بالتأكيد منطقة آسيا الوسطى وبحر قزوين، وهى ليست منطقة فراغ عادي، بل إنها منطقة مهمة استراتيجياً واقتصادياً.

وهى منطقة حيوية جداً لسببين ظاهرين، إذ يوجد في هذه المنطقة ما بين 20 - 30 % من احتياطيات النفط العالمية وهي نسبة تكاد تتعادل مع احتياطي النفط في الشرق الأوسط، ومن يمسك بهاتين المنطقتين يمسك بما نسبته 65 - 70% من احتياطي النفط العالمي، أي التحكم في مصير العالم، أضف إلى ذلك احتياطي الغاز، فمنطقة آسيا الوسطى والقوقاز تحتوى على 50% من احتياطي الغاز، وتقدر احتياطاتها من الغاز ما بين 200 - 300 مليار متر مكعب.

هذا هو السبب الاقتصادي، أما السبب الاستراتيجي فلا يقل أهمية فهذه المنطقة ذات موقع استراتيجي فريد من حيث إطلالها المباشر على القوى العظمى المنافسة للغرب، فهي منطقة محاذية للصين، التى تعتبرها بشكل ما مجالها الحيوي، وهي القريبة من إقليم التبت وهو من شواغل الصين فالسيطرة على المنطقة تتحكم في الصراع داخل حدود الصين،

والمنطقة التي تطل على روسيا ، وهي برغم انتكاستها مازالت - في نظر الغرب - قوة منافسة ، وهي قريبة من الهند وباكستان وإيران وهي دول تعلمون حقيقة علاقتها بالولايات المتحدة كما أنها منطقة الجوار التركي ، وتركيا ليست ذلك الحليف المأمون خاصة إذا أصبحت ذات يوم جزءا من الاتحاد الأوربي.

إن اهتمام الولايات المتحدة بهذه المنطقة عظيم للغاية ، وهناك تفكير أمريكي - على الأقل - يذهب إلى ضرورة الإمساك بهذه المنطقة مهما كان الثمن . إنني أستشهد في ذلك بكتابات بريجنسكى وكيسخر وهما مفكران مؤثران في رسم الاستراتيجية الأمريكي ، فيعتبر بريجنسكى أن هذه المنطقة التى يطلق عليها (أوراسيا) بلقان العالم ، وهي المحور الجيوبوليتكي الأول الذي يجب السيطرة عليه.

إن احتلال العراق وأفغانستان هو مرحلة انتقال لابد منها عند المخططين الاستراتيجيين في الولايات المتحدة، فهذان البلدان يجب أن يكونا قاعدة الصراع في المستقبل، ويراد لهما أن يلعبا دوراً مشابهاً للدور الذي لعبة الكيان الصهيوني بعد الحرب العالمية الثانية ، فهذا الكيان كان عبارة عن قاعدة لإدارة الصراع في الشرق الأوسط أثناء الحرب الباردة ، ولقد كان الشرق الأوسط أهم مناطق الصراع في ذلك الوقت.

إن منطقة آسيا الوسطى وبحر قزوين ستصبح أهم مناطق الصراع في مطلع القرن الجديد ، لذلك لابد من السيطرة على قاعدة استراتيجية لإدارة هذا الصراع ... ولقد كنت أخشى منذ عشر سنوات أن يكون إقليم كردستان العراق هو هذه القاعدة ، لأنه يتشابه في ظروفه التاريخية مع الكيان الصهيوني ، لكن الولايات المتحدة ذهبت إلى أبعد مما تصورنا باحتلال العراق كاملة مستفيدة من ظروف أزمة لم يحسن الطرف الآخر إدارتها.

أما السبب الاستراتيجي الثاني فهو تأمين الكيان الصهيوني بشكل نهائي طوال القرن الحادي والعشرين بإزالة خطر ظهور دولة متوازنة معه ، وقد كانت العراق هى الدولة المؤهلة لإعادة التوازن مع هذا الكيان .. ولفائدة القراء فإنني أشير إلى كتابين خطيرين ظهرا في السنوات الماضية يشيران إلى هذا المعنى وهما كتاب " أريك جوردان " واسمه " العملية هيبرون " هو عبارة عن رواية كتبها رجل المخابرات هذا، هي رواية تنطوي على حقائق وليست خيال أديب ، وملخص الرواية بحث زعماء الكيان الصهيوني عن كيفية تأمين كيانهم لمدة نصف قرن ووجدوا ضالتهم في ضرورة إفراز رئيس

أمريكي عميل للموساد يتخذ قرارات خطيرة تؤمن الكيان الصهيوني لنصف قرن ونجحوا في ذلك من خلال الرواية التى تنتهي باغتيال هذا الرئيس. وتتناول الرواية العراق، وأعتقد قرار احتلال العراق هو أحد القرارات التى تؤمن هذا الكيان !!

أما الكتاب الآخر فهو تقرير أصدره " معهد واشنطن " بعنوان " بناء الأمن والسلام في الشرق الأوسط " وهو تقرير رئاسي أعده مختصون بارزون يذهب إلى أن تغيير نظام العراق هو مفتاح بناء الأمن والسلام في الشرق الأوسط، وللأسف فإن الذين أعدوا هذا التقرير معظمهم صهاينة... إن احتلال العراق سياسة مبيتة منذ زمن لهذه الأسباب الاستراتيجية وهو احتلال يصب - في الغالب - في مصلحة الكيان الصهيوني.

أما السبب الثالث والأخير الذي يتداخل مع السببين المذكورين فهو النفط بكل تأكيد، لكن ذلك يحتاج إلى قليل من التحليل أيضاً.

وأقول عنه باختصار : إن النفط مهم للولايات المتحدة من زاويتين، فأولا يجب تدفقه نحوها دون حواجز، ويجب ألا يتدفق للآخرين بسهولة ثانياً ... والواقع أن الاقتصاد الأمريكي سيصبح عاجزاً عن المنافسة بشروط التنافس العالمية السائدة الآن، فالاقتصاد الأوروبي سيبدأ في التفوق وحققت الصين معدلات نمو غير مسبوقة وتتجاوز صادراتها للولايات المتحدة ستين مليار دولار سنويا، هذه اقتصاديات عملاقة لن يكون الاقتصاد الأمريكي قادراً على منافستها إلا بتغير شروط المنافسة بالسيطرة المباشرة على نفط الشرق الأوسط وآسيا الوسطى وتوجيه هذه النفوط الوجهة التى يختارها، وبمعنى مباشر خنق اقتصاد الآخرين " أوروبا والصين " عرقلة تطورهما والتحكم في حجم الإنتاج والنمو . هذه على الإجمال في تقديري أبرز دوافع الاحتلال، أما الأسباب الظاهرية، كأسلحة الدمار الشامل أو تغيير النظام فهي ليست سوى خدع للسذج والبسطاء، فاستراتيجيات الدول الكبرى لا تحركها دوافع عاطفية أو أخلاقية إنما المصالح الكبرى في نظرها . إنني آسف للإطالة وعساي أسهمت في فتح مداخل الحديث، أما انعكاسات هذا الاحتلال فإنني سأوجزها عند بحث المحاور القادمة .

أ. حسين اللموشي

صحيح - مثلما قال الدكتور ابراهيم- أن الولايات المتحدة هي أساساً لا تستخدم النفط العراقي. إذاً من هم الذين يستخدمون

النفط العراقي؟ إنها اليابان و أوروبا الغربية. أما الولايات المتحدة فهي ليست بحاجة إلى النفط ولكن ما يهم الولايات المتحدة هو السيطرة على النفط. السيطرة على مخزونات النفط العراقي تُمكن الولايات المتحدة من التأثير على أسعار النفط العالمية.

السيطرة على النفط يمكن فهمها في سياق استراتيجية الأمن القومي الأمريكي التى اعتمدها الرئيس (جورج بوش) في ديسمبر الماضى، ومن ضمن الأشياء التى تضمنتها تلك الوثيقة، ترسيمها لعقيدة العمل الاستباقي، كما تضمنت أيضا إعلان الولايات المتحدة أنها لن تسمح لأي قوة أخرى -حليفة كانت أم معادية- أن تصبح نداً. مجرد أن تصبح نداً للولايات المتحدة هذا غير مسموح به. الولايات المتحدة ستظل هى القوة الكبرى الوحيدة. السيطرة على النفط العراقي والتحكم فيه يجعل أوروبا الغربية و يجعل اليابان وبقية مستخدمي النفط رهائن في قبضة الولايات المتحدة، في هذا الإطار أيضا يمكن فهم ما تقوم به الولايات المتحدة في أفغانستان، فهو ليس فقط لمجرد ما تسميه محاربة الإرهاب ولكن أيضاً لاستغلال نفط آسيا فهي تعمل على إنشاء أنبوب عبر أفغانستان لنقل النفط إلى البحر بحيث يكون تحت سيطرتها. والولايات المتحدة مهتمة حتى بنفط غرب أفريقيا بشكل كبير، وهي الآن تُجري مفاوضات مع (سانتومى وبرنسيب) لإنشاء قاعدة عسكرية تكون مركز قيادة إقليمياً في تلك المنطقة. إن مخزونات النفط في غرب افريقيا ليست بحجم احتياطات الشرق الاوسط، ولكن الولايات المتحدة تراهن على شيء آخر. فبعد أحداث 11 سبتمبر أدركت أن هيبتها اهتزت و رأت أنه لا بد من اتخاذ إجراء و خلصت الى أن لديها مشكلة حقيقية مع الاتجاهات الإسلامية الأصولية التى ترى أن مصدرها الخليج والثقافة العربية الإسلامية بشكل عام. و لكي تتحرك في منطقة الشرق الأوسط بحرية من غير أن يتأثر أمنها النفطي خلال الفترة من الزمان اللازمة لتصفية الأوضاع في الشرق الأوسط حسب مخططها. إذاً هى تحتاج إلى بدائل هذه البدائل أين تكون؟ تكون في غرب أفريقيا و في نفط آسيا الذي سينقل عبر أفغانستان و مصادر أخرى بديلة للطاقة. و هكذا يمكن المجازفة بإحداث تغييرات في منطقة الشرق الأوسط دون أن يكون لذلك أثر سلبي على أمن إمدادات الطاقة للولايات المتحدة. علاوة على أن احتلال العراق حول القاعدة الأمريكية الأساسية للوجود الأمريكي من دول الخليج التى فيها اتجاهات أصولية كبيرة إلى دولة أكثر علمانية، مما سيسمح للولايات المتحدة بأن تتحرك في تلك الدول وتعيد صياغتها

بما يتلاءم مع أهدافها. لقد أصبحت الولايات المتحدة اليوم ترى في مجرد انتشار الأفكار الإسلامية الأصولية خطرا استراتيجيا بالنسبة لها، ولابد من تجفيف المنابع الموجودة في دول الخليج، أما بالنسبة للأنظمة الموجود في الخليج فإنني أعتقد أن خسارتها بوجود الأمريكان في العراق أكبر من وجودهم على أراضيها.

أ. موسى الأشخم:

أود أن أضيف نقطة إضافية إلى ما قاله الدكتور إبراهيم أبو خزام وما أضافه الأستاذ حسين اللموشي، أريد أن أضيف عاملا آخر وسببا آخر لغزو العراق أنا أريد أن أقول بأن الولايات المتحدة الأمريكية تهدف من خلال غزوها للعراق إلى الإعلان عن أن القرن الواحد والعشرين هو قرن للسيطرة الأمريكية على العالم، أنا أود هنا أن أقارنها بحدث إلقاء القنبلة النووية على نجازاكي وهيروشيما كان إلقاء القنبلة النووية على نجازاكي وهيروشيما، في تقديري مجرد محاولة أمريكية للإعلان عن السيطرة الأمريكية على العالم ولكن حين نجح الاتحاد السوفيتي في تحطيم احتكار الولايات المتحدة للسلاح النووي فوت عليها تلك الفرصة للسيطرة على العالم وأصبح العالم ثنائي القطبية، و فيه شكل من أشكال التوازن الدولي لكن عقب المتغيرات الدولية وانهيار الاتحاد السوفيتي أرادت الولايات المتحدة الأمريكية أن تستغل الفرصة السانحة للسيطرة على العالم من جديد حيث اختل التوازن لصالح الولايات المتحدة الأمريكية وصار العالم أحادي القطبية فأرادت الولايات المتحدة الأمريكية بغزوها للعراق تحقيق نفس الهدف القديم الجديد الذي لم يتحقق من خلال ضرب هيروشيما و نجازاكي بالقنابل النووية، وهو هدف الإعلان عن السيطرة الأحادية الأمريكية على العالم، إنها تريد ببساطة أن ترسل رسالة للجميع تقول بأنها صارت المهيمن على العالم الذي تستطيع أن تغير حكوماته وتستطيع أن تحقق الأهداف الثلاثة التى اختصرها بيان أو إعلان مبادئ نشر على الشبكة الدولية نشرته المجموعة التى تسمي بالمحافظين الجدد وأحيانا تسمى الليبراليين الجدد الذين من ضمنهم (رامسفلد) وزير الدفاع الأمريكي اسمه (بول ولوفويتز) ... و آخرون من بينهم شقيق بوش اسمه (جيف بوش) هذه المجموعة الآن أحكمت سيطرتها على السلطة فعلا في الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الإعلان أو إعلان

المبـــادئ أعلنوا على أنه ينبـــغي أن يكون القرن الواحد والعشرون قــرناً أمريكياً أي قرناً للهيمنة الأمريكية على العالــــــــم ، ولخصوا أهداف السياسات الأمريكية إذا ما طمحت لتحقيق ذلك في ثلاث نقاط :-

1- تهميش المؤسســـــــات الدولية أو تجاوزها حـــــينما لا تخدم المصالح الأمريكية.
2- الحد من تنامي الدور الإقليمي للقــوي الكبـرى أو دورها الإقــليمي والدولي أيضاً.
3- تصدير القــــيم الأمريكية للعالم ، أو تنميــط العالــم وفـــق التصـــورات الأمريكية.

يأتـى غزو العراق لتأكيد نيــة الإدارة الأمريكية في الوصول إلى تحقــــيق تلك الأهداف وتوجيه رسـالة إلى العالم ليعي أو يسلم بأن هذا القرن هو فعلاً قرن السيطرة الأمريكية على العالم و الذي تســتطيع فيه الولايات المتحــدة الأمريكية أن تحـــرم الدول الأخرى من النفـط أومـن أى مـوارد طبــيعية أخرى، كما تســـتطيع أن تغير الحـــــكومات التي لا ترضى عنها وأن تنصب حــكومات وفق هواها في بــلدان العالم على طريقـــة حـــكومة (كارزاي) أو مجلس الحـكم المحــلى في العراق. اذاً أحــد الأهداف الرئيســية لغزو العراق هو إيصال رسالة إلى القوى الكبـرى الأخرى على أن تترك مســافة بـينها وبـين القـــوة الكبرى الأوحد في العالم أو الأكثر الأهمية وهي الولايات المتحــدة وعلى الجميع أن يحترم إرادة هذه القوة الكبرى التى صارت تضع نفسها محل العالم، وتكيف العالم وفق مزاجها وتعتبر الأمن والسلم الأمريكي هو الأمن والسلم العالمي إذا ما تحقــق تحقــق الأمن والســلم العالمي ، وإذا ما تحققـــت المصلحـــة الأمريكية تحققــت مصلحـــة العالم ، وبالتالي فكأنها وضعت نفسها محل العالم ، ومحل الشرعية الدولية وهذا يقودنا إلى الدخول في محور آخر إذا لم يكن لديكم أية إضافة أخرى في هذا المحور.

أ. حسين اللموشي:

إضافة إلى ما ذكره الأسـتاذ موســـى الأشـــــخم، أذكر أن المحــــطة المرئية (BBCWorld) أجرت ضمن بـرنامج (Hard Talk)مقابلة مع (هارلن اولمان) و هو أحــد رموز المحـــافظين الجدد وهو أحد واضعي العقيدة العسكرية المعروفة بـ (الصدمة والترويـع)، التـى يفتــرض أن

الولايات المتحدة وضعتها موضع التطبيق في العراق. و من بين ما جاء في المقابلة **أن استراتيجية (الصدمة والترويع) ليست عملاً عسكرياً بل هي مقاربة فكرية أيضاً تهدف إلى تحويل المقاومة الانتحارية إلى استسلام سلبي**، مثلما نتج عن إلقاء القنابل الذرية على اليابان. وبالتالي فهدف الصدمة والترويع هو إرهاب كل من يعتقد أن باستطاعته تحدى الولايات المتحدة. و يرى (أولمان) أن الصدمة والترويع تتعدى إرهاب النظام العراقي و تحقيق الهزيمة النفسية على جيشه إلى إرهاب الآخرين لكي لا يفكروا في تحدي الولايات المتحدة. الصدمة والترويع هي، إلى حد ما، رد الولايات المتحدة على أحداث 11 سبتمبر نفسه يعنى أنت عندما تتطاول وتجرؤ على أن تهاجم دولة عظمي لابد أن يكون الرد قويا. و عندما سُئِل (هارلن اولمان) عما إذا كان قصف اليابان بالأسلحة الذرية هو مثالاً جيداً لنجاح فكرة (الصدمة والترويع)، اجاب بأن هذا المثال صعب، لكنه استطرد قائلا: إن نجاح (الصدمة والترويع) يجعل الطرف الآخر يتصرف حسبما تريد أو ألا يتصرف تصرفا لا تريده أنت.

المياه أيضا لها دور في احتلال العراق فهو الدولة الوحيدة في المنطقة التى لديها منظومة مائية متكاملة، فلديها دجلة والفرات وعندها الزاب الأكبر والزاب الأصغر وعندها منظومة متكاملة من السدود الضخمة ...الخ.

و منذ فترة طويلة هناك اتجاه في الولايات المتحدة يهدف إلى نقل المياه إلى إسرائيل و دول المنطقة الأخرى، ولكن هذه الفكرة لم تتحقق لأن العراق كان دائماً على خلاف مع جيرانه. بالإضافة إلى السيطرة على النفط سيكون من المستحب السيطرة على المياه أيضاً. وإذا سيطرت على النفط و المياه فإنك قد سيطرت على الشرق الأوسط.

في المقابلة التي اجرتها المحطة المرئية البرزيلية (Globo News TV)مع (ستيفن بليتييه) و هو محلل سابق لدى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، اشار الرجل إلى هذه المسائل. كما أشار إلى أن سياسة الولايات المتحدة في الخليج كانت في السابق تتبع خطى الحكومة البريطانية، تم تركتها لشركات النفط الامريكية تم بعد ثورة (الاوبك) سنة 1973 وكلت شاه إيران بالمحافظة

على أمن الخليج، ولم تكن الحكومة الأمريكية ترغب في التورط المباشر في الخليج، وعندما استولى العراقيون على النفط بتأميمه، لم تغفر لهم شركات النفط ذلك وأصبحت الشركات إحدى جماعات الضغط القوية في أمريكا التي ضغطت باتجاه احتلال العراق. وهناك أيضاً الجماعات الموالية لإسرائيل، هذه من ضمن الأشياء التي ذكرها (ستيفن بيلتييه) في المقابلة، وأنا أعتقد أنه من المفيد نشر ترجمة المقابلة.

د. أحمد الأطرش:

في البدء لابد لي أن أشكر مجلة دراسات على هذه الدعوة وأتمنى الاستمرار في مثل هذه الجلسات العلمية التي تفسح المجال لتناول موضوعات حساسة مثل موضوع هذه الحلقة وتبادل وجهات النظر حولها. أنا مع الزملاء في اتفاقهم حول وجهة النظر القائلة بأن النفط ليس بالسبب أو الدافع الأساس (سواء كان ذلك معلناً أو خفيا) من وراء الاحتلال الأمريكي للعراق. أرى أن قضية العراق تأتي ضمن سياق سلسلة من مراحل تنفيذ سياسات (وليس سياسة) خارجية أمريكية، وبشكل محدد ومدروس. وإذا رجعنا بهذه المراحل إلى فترة ما قبل هجمات 11 سبتمبر، أو تحديداً قبل انهيار الاتحاد السوفيتي، فإن مسألة توازن القوى بين الطرفين الفاعلين والبارزين (الاتحاد السوفيتي الأسبق والولايات المتحدة الأمريكية) في حقبة ما تسمى بالحرب الباردة، كانت تتبوأ مكانة بارزة في أجندة التفاعلات الدولية عموماً، والعلاقات بين القطبين الرئيسيين بشكل خاص. عقب تفكك الاتحاد السوفييتي برزت قوى جديدة على الساحة الدولية تمثلت في شكل تكتلات وتنظيمات إقليمية أو جهوية، سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو غيرها. هذه الحقيقة بدأت تشكل مصدر قلق وإزعاج للولايات المتحدة، ويكفي الإشارة إلى الاتحاد الأوروبي كمثال في هذا الصدد.

أعتقد أن ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر، سواء كان ذلك مفتعلاً أو بفعل أطراف أخرى أو تيارات دينية أو سياسية أو عقائدية، ومهما كانت بواعث هذه الهجمات، فهي تشكل بداية عصر جديد في تاريخ العلاقات الدولية. ففيما يتعلق بتعامل الولايات المتحدة مع العالم

الخارجي فإن هذه الجهات، ومهما تكن مثالبها أو مراميها، أضحت حسب تصوري تشكل هاجساً يصل إلى درجة الخطر بالنسبة للأمريكان. ففي فترة التسعينيات (عند تفرد الولايات المتحدة بتقرير مصير ومقدرات شعوب العالم) كرّس أسلوب فرض العقوبات الدولية في أكثر من حالة (ومن ضمنها ليبيا) مع محاولة شرعنتة عن طريق تمريره تحت راية الأمم المتحدة. ولكن، ولأسباب عديدة ومتنوعة لا يسمح المجال للخوض في تفاصيلها، فإن هذا الأسلوب لم يلاق استحساناً وأصبح غير مرغوب فيه على نطاق واسع من دول العالم، وخاصة مع وجود هذا العدد الضخم والفاعل من فواعل ومكونات التنظيم الدولي والإقليمي. الذي حدث أن الولايات المتحدة اكتشفت أنها في مواجهة مع قوى جديدة ومنها أطراف غير محددة المعالم. الوضع الذي تحاول الولايات المتحدة أن تتعامل معه يستوجب تحديد من معها ومن ضدها وهذا يتطلب تحديد الخصم الذي تسعى الولايات المتحدة إلى تقويضه وردعه ومن ثمّ القضاء عليه. لقد كان الاتحاد السوفيتي طرفاً معروفاً في إطار اللعبة وله مكانه وسياسة واضحة ومعلنة. لم تجد الولايات المتحدة أمام هذا الواقع الجديد إلا القول بأن الإرهاب هو العدو الأول لها وبالتالي يجب على العالم محاربته ومن يخالف ذلك يخرج عن طوعها. في حقيقة الأمر أنها (أي أمريكا ومن يتحالف معها) أصبحت تشهد عمليات "انتحارية" أو "استشهادية" تعبيرا عن حالة السخط تجاه تصرفات الإدارة الأمريكية، وذلك من قبل قنابل بشرية ناسفة، مع بروز أعمال انتقامية ضد مصالحها في أماكن شتى من العالم ومن قبل تنظيمات يصعب تحديدها أحياناً. لذا، وعلى عكس ما كان متوقعاً، فإنني أرى بأن الأمور ازدادت تعقيداً بالنسبة لصناع القرار في السياسة الخارجية الأمريكية. لقد رأت الإدارة الأمريكية أن أحسن وسيلة هي القيام بعمليات تقويض لبعض الأنظمة، كاحتلال العراق وقبلها أفغانستان بذريعة مكافحة الإرهاب والدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، إلخ.

في لقاء علمي سنحت لي فرصة المشاركة فيه في بريطانيا وحضره عدد لا بأس به من أساتذة العلاقات الدولية اللامعين من دول مختلفة (ومنهم أمريكيون) اتضح

لي جليا ومن خلال الحوارات التي دارت بيننا (أثناء وعلى هامش اللقاء) أن ذوي الاهتمام بحقل الدراسات الدولية في الغرب في وضع المتلهف لما يطرحه المفكرون العرب في هذا المجال بداعي أن المنطقة العربية لها أهمية خاصة ولكونها تشكل بؤرة اهتمام دولي، على أن تتسم المساهمات العلمية بالموضوعية وعبر قنوات اتصال مستقلة.

في هذا السياق أرى أن الوقت قد حان لأن تفكر النخب المثقفة العربية (أو الانتلجينسيا العربية) ملياً، وبشكل جاد، وبدعم من مراكز اتخاذ القرار في الوطن العربي في الشروع في تكثيف الجهود من أجل نشر وتداول أفكارنا ونكف أو نقلل من التحدث عما يجري في العالم مع أنفسنا، وخصوصاً فيما يتعلق بضرورة إعادة النظر في نمط العلاقات الدولية الظالمة (ولو من الناحية النظرية). في غياب الدعم اللازم والمدروس لعملية البحث العلمي في منطقتنا العربية نجد معظم ما يدرس الآن في مؤسسات التعليم والمعرفة يعد في الأصل من نتاج مفكرين غربيين. حتى الأدبيات التي نستند إليها عند دراسة علم العلاقات الدولية، وللأسف الشديد، نجدها من صنع الغرب ومعظمها تحمل أطروحات بالية، اضف إلى ذلك أنها نابعة من ثقافة وقيم وظروف لا تمت لنا بصلة في أمور كثيرة.

إن الغياب العربي (سواء من حيث التأليف أو التراجم) ولأسباب عديدة ومتنوعة زاد الطين بلة. حسب تقديري، ومن خلال معايشات أكاديمية وبحثية، هنالك أزمة في المفاهيم. نحن في حاجة إلى حث الغرب على الجلوس سوياً من أجل تحديد بعض المفاهيم التي تشكل صمام أمان لأي حوار فعال وناجح ودون ذلك فإن حوار الطرشان سيستمر والعواقب الناتجة عنه ستكون وخيمة. إن الواقع يحتم علينا الدفع بالدراسات الجادة واللقاءات المثمرة التي تسعى في الأساس للوصول إلى اتفاق حول مفاهيم تشكل أولويات وذات حساسية وطبيعة خاصة ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الإرهاب وحقوق الإنسان والديمقراطية وازدواجية المعايير والمصطلحات الحديثة الطرح والاستخدام كالمجتمع المدني وتغيير أنظمة الحكم وغيرها. أعتقد أن أحسن وسيلة للدفاع عن أنفسنا هي أن نفكر نحن في أنفسنا ونحاول

إصلاح الذات أولاً ومن ثم نفرض احترامنا على الآخر. أعتقد أن خطاب القائد الأخير في عيد الفاتح تركز حول هذه الجوانب وكان ملخصاً مفيداً للجانب المتعلق بالنظرة الاستشرافية للعلاقات الدولية، مع الحفاظ على أكبر قدر ممكن من كرامتنا وذلك عند التعامل مع ذلك الآخر، وهذا هو تصوري فيما يخص هذه الجزئية.

د. إبراهيم أبو خزام:

لدى تعقيب على مسألتين مهمتين واحدة ذكرت من قبل الأستاذ حسين، أود تثبيتها وتأكيدها تتعلق بغزو أفغانستان الذي يتعلق أيضاً بالاستراتيجية الأمريكية والصراع حول آسيا الوسطى، فهذا الاحتلال ضروري تمهيداً للسيطرة على آسيا الوسطى ... وتتعلق المسألة بمرور خط أنابيب النفط من هذه المنطقة إلى العالم الخارجي ..

فمن المعروف أن منطقة آسيا الوسطى منطقة مغلقة بحرياً، وهناك ثلاثة خيارات لمرور نفطها إلى البحار المفتوحة ... الطريق الأول هو الطريق الروسي لكن هذا الطريق وهو غير مطلوب أمريكياً لسببين هما أن المرور عبر روسيا لابد من أن يمر عبر مناطق التوتر في جمهورية الشيشان، كما أن هذا المرور سيجلب كثيراً من الفوائد لروسيا وذلك ما تعمل الولايات المتحدة على منعه.

أما الطريق الثاني فهو عبر إيران وهذا غير مرغوب أيضاً لأسباب مشابهة فإيران دولة معادية، أما الطريق الثالث فهو الطريق الأفغاني للوصول إلى الخليج وبحر العرب وهذا سبب مضاف إلى احتلال أفغانستان.

أما النقطة الثانية فهي مسألة المياه، وهناك اعتقاد شائع اليوم بأن الحرب المقبلة ستكون حرب المياه ... والمياه هى أحد أسباب احتلال العراق.

وكما هو معروف فقد كانت هناك مشاريع كبرى للمياه في المنطقة منها مشروع "الجاب" وهو مشروع تركي بتمويل صهيوني يهدف المشروع إلى تنمية الأناضول جنوب شرق تركيا قرب الحدود العراقي حيث أقيمت عشرات السدود ومحطات الطاقة مما استنزف 60% من المياه المتدفقة للعراق وسوريا، إن هذا المشروع لا يمكن استمراره إلا والعراق ضعيفة.

وهناك مشروع مهم هو ما يسمي " أنابيب السلام " يتمثل في نقل المياه عبر أنابيب ضخمة في خطين عبر العراق وسوريا والأردن ليصل إلى الكيان الصهيوني أما الثاني فهو يمر بالعراق الكويت و الجزيرة العربية ويصل إلى السعودية لنقل المياه من نهر دجلة ، إن هذا المشروع تعطل بحكم معارضة العراق والاحتلال كما هو واضح يزيل هذا العائق.

هناك نقطة أخيرة تعقيباً على ما ذكر الأستاذ موسى بأن الولايات المتحدة ترغب في أن يكون القرن الحادي والعشرون قرناً أمريكياً وهذا صحيح ، فالولايات المتحدة كانت قوة كبرى في القرن العشرين ولكنها شاركت غيرها في الهيمنة ، أما القرن الحادي والعشرون فتريده قرناً أمريكياً خالصاً . وهناك اصطلاح " النظام العالمي الجديد " ومنذ أن أطلق هذا الشعار انتابتني الهواجس إزاء مصطلح " الجديد" وقد ظننت منذ زمن أن هذه المفردة تعكس محتوى أعمق من كون الجديد هل بديل للنظام القديم . وقد ذهبت يوماً إلى أن " الجديد " مصطلح يراد به الإيحاء بنقل مركز الحضارة الغربية إلى العالم الجديد " أمريكيا " ، فالمصطلح ينطوي على إيحاءات شتى منها أن الحضارة الأمريكية ، حضارة جديدة متميزة ضعيفة الصلة بحضارة العالم القديم ... وقد أكد أخيراً " رامسفيلد " هذا المعنى حين أشار في إحدى خطبه إلى أوربا القديمة و أدان مواقفها.

وهناك اليوم في العالم الإسلامي انطباع خاطئ يعتقد بوحدة الغرب ، أنا أعتقد أن هذا مخطئ تماماً فالعالم الغربي ليس موحداً هناك اليوم صراع ثقافي وحضاري عميق قطباه هما الثقافة والانجلوسكسونية التى تقودها الولايات المتحدة والحضارة الأوربية اللاتينية التى تحاول تأكيدها نفسها ..وما يحدث من تناقضات في المواقف السياسية هو تأكيد لهذا الانقسام . والسؤال هل ستنجح أمريكيا في ذلك ؟ أنا لا أعتقد ذلك ، منطلقاً من تحليل التاريخ وليس رجماً بالغيب أو ضمن إطار الأماني.

أ. حسين اللموشي:

عطفاً على كلام الدكتور ، هناك ورقة صادرة عن إحدى الحوزات الفكرية الأمريكية تسمى (مؤسسة التراث) وهي

التي ينتمي إليها (صامويل هانتجتون) عنوانها (عجرفة أوربا و ضعفها يحتمان التحالفات الانتقائية) و هي تتناول توجه اليمين الامريكي نحو استراتيجية جديدة تجاه العلاقات عبر الاطلسية. و يرى كاتب الورقة (جون هلسمان) أن احتلال العراق لن يكون إيذانا بنهاية الأزمة في العلاقات مع أوروبا، فهناك جزء مهم من النخبة السياسية الأوربية ينظر إلى الولايات المتحدة باعتبارها جزءاً من الأزمة وليست حلاً لها. و يرى الكاتب أن اوروبا تشهد صحوة (ديجولية) جديدة ترى في نشوء قطب أوربي قوي عاملا قويا نحو إضعاف الهيمنة الأمريكية، و بالتالي فالخلافات مع فرنسا و ألمانيا مرشحة للتطور، إن اوربا التي تتسع على الخريطة لكنها لا تقوى و تتوحد على الصعيد المؤسساتي هي الأفضل للمصالح الأمريكية، و ينبغي أن تعمل الولايات المتحدة على ألا تكون هناك سياسة خارجية أو أمنية أوربية موحدة، و ألا تكون هناك سياسة ضريبية و نقدية موحدة عبر القارة، لأن ذلك جهد (ديغولي) يهدف لبناء قطب معارض للولايات المتحدة. سياسة الولايات المتحدة في السابق كانت ترى أن أوروبا قوية تشكل حليفا قويا للولايات المتحدة، أما الآن فلا ينبغي أن يكون هذا موجوداً، مما يسمح للولايات المتحدة بالتحالف انتقائيا. السياسة الأمريكية لابد من أن تكون انتقائية في التعامل مع أوروبا و لا ينبغي أن تكون أوروبا ضعيفة جداً بحيث تصبح عبئاً و لا ينبغي أن تكون قوية جداً بحيث تكون قطباً معارضاً للولايات المتحدة. المصالح الأمريكية تقتضي في آن واحد ألا تخفق اوربا و ألا تنجح كثيرا.

و هكذا نرى هنا أيضا تجليا لما جاء في الوثيقة التي اعتمدها الرئيس (بوش) في أواخر السنة الماضية و المعنونة (استراتيجية الأمن القومي) و التي أعلنت فيها الولايات المتحدة أنها لن تسمح بظهور منافس لها كقوة كبرى وحيدة في العالم.

أ. موسى الأشخم:

رغم أننا جميعا نتمنى أن تنتهي السيطرة الأحادية الأمريكية على العالم لكن تحضرني ملاحظة هامة قد تشتت موضوع هذه الندوة وآمل ألا نقف عندها كثيرا لكن الدكتور (ألن كوبرمان) الذي حضر ندوة مستقبل النظام العالمي حاول أن يبدد تفاؤلنا أو تفاؤل البعض حين أشار

إلى أن العالم متعدد الأقطاب قد لا يكون أفضل حالا للدول الصغيرة أو الشعوب الصغيرة وهى التجربة التى مر بها العالم في العصر الكولنيالي الذي كان متعدد الاقطاب بقيادة بريطانية إن جاز التعبير ولكن هذا التعدد ليس بالضرورة لصالح الشعوب الصغيرة، على آية حال هي مجرد ملاحظة وردت إلى ذهني ولكن لا ينبغي أن نقف عندها كثيراً في تقديري لأنها قد تشتت موضوع الندوة ويمكن أن تكون موضوعاً لندوات قادمة.

دعونا الآن ننتقل إلى المحور الثاني إذا سمحتم وهو آثار احتلال العراق في العلاقات الدولية والتوازن الدولي رغم أننا تعرضنا إلى هذه المسائل في المحور الأول وذلك لأن المحاور متداخلة ومن الصعب الفصل بينها أو التقيد بها وعدم الانتقال من محور إلى الآخر ولكن نود أن نركز الآن على آثار احتلال العراق في العلاقات الدولية والتوازن الدولي بصورة أدق.

د. أحمد الأطرش:

توجد جزئية مهمة فيما يتعلق بآثار احتلال العراق في العالم. لاحظت في المدة الماضية تراجعاً كبيراً من قبل المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية والداعية لتسخير القوة والنفوذ في المحك العملي للعلاقات الدولية. بمعنى آخر، أن مراكز صنع القرار في الولايات المتحدة وفي أوروبا الغربية تحديدا تعتمد وبشكل كبير على استشارة المؤسسات والمراكز العلمية والبحثية ذات العلاقة (أو ما يشار إليها إصطلاحاً بالحوزات الفكرية (H, Think Tank.

للأسف، منطقتنا تشهد جفاء غير مبرر بين المنظر والممارس للسياسة، ولأسباب عديدة لا داعي للتطرق إليها الآن وهي في حاجة إلى حوار خاص وجرىء بين طرفي المعادلة. ما لفت انتباهي، والعود إلى بداية المداخلة، أن هنالك تراجعاً كبيراً من قبل أنصار مدرسة الواقعية (أو الواقعيين). بعد احتلال العراق تحديداً تراجع عدد لا بأس به من المفكرين الواقعيين فيما كتبوا وكرسوا حياتهم من أجله وبنوا فرضياتهم على التعويل على القوة في توجيه دفة مسار العلاقات الدولية. إن التصرف الذي قامت به الولايات المتحدة تجاه العراق كان السبب الرئيس وراء هذا التراجع في القناعات. أضم رأيي مع الدكتور ابراهيم بالتأكيد

على أنه بقدر ما أضر السلوك الأمريكي بكبرياء الأمة العربية عند غزو العراق بهذه الطريقة الفجة، ولكنه على الأقل كشف أوراق اللعبة الأمريكية وأنار الطريق للعديد من العرب (وخاصة المسئولين) إلى أن الوقت قد حان لإعادة التفكير في كيفية التعامل مع الذات وعلاقة ذلك بالتعامل مع الآخر. وأعتقد أنها فتحت صفحة جديدة وأن نفعها أكثر من ضررها، وخاصة لو فكرنا فيما حدث ويحدث، ونظرنا إلى الأمر بطريقة جادة ومعمقة ومستقبلية.

حسب تقديري هنالك نوع من التعاطف مع قضايانا بدأ يلوح في الأفق. العديد من المفكرين الأجانب استفزتهم الأحداث مما دفعهم إلى نشر أعمال أو التحدث عبر وسائل الإعلام الدولية بلهجة داعمة للموقف العربي، ورافضة للسلوك الرسمي الغربي مما يضر بالطبع حتى بمصالح الصهيونية. على الرغم من هذا الاطمئنان والتفاؤل إلا أنه يجب التنبيه على أن الخطر وارد، وفي أي لحظة، مما يستوجب إعادة التفكير في التعامل مع الآخر وفق مصالحنا التي يجب أن نفكر فيها دائماً وبجدية، ووضع إطار واضح ومحدد لتعاملاتنا البينية، وعلى الصعيد العالمي بصفة عامة.

د.إبراهيم أبو خزام:

في هذا المحور الثاني " آثار احتلال العراق في العلاقات الدولية والتوازن الدولي "في البداية يجب طرح السؤال الجوهري ... هل هناك الآن توازن دولي؟ حتى نقول إن هذا الاحتلال مخل بالتوازن ...

التوازن كمانعرف حالة معروفة تنشأ عند وجود قوى دولية متعددة ، طرفين أو أكثر متساوية نسبياً في القوة ، تمنع هذه القوى بعضها بعضاً من السيطرة ، وينجم عن هذا التوازن حالة من الاستقرار ضرورة ... إن ما هو موجود اليوم ، حالة شاذة في التاريخ ، فهناك قوة واحدة متفردة لا موازن لها ، وهذه الحالة الشاذة يندر وجودها في التاريخ ، وأنا لا أعرف حالة مشابهة لأوضاع اليوم ، سوى عصر الإمبراطورية الرومانية . إن توازن القوى مهم جداً للاستقرار والسلام العالميين ، وهناك نظريات ومفكرون يعتقدون أن التوازن هو سر الاستقرار الدولي ، وفي أي وقت يختل التوازن تندفع الدول للفوضى والحروب.

إن حالة الهيمنة هذه أسست بصورة تلقائية حركة كفاح دولي لبناء التوازن من جديد ، وهذا قانون طبيعي فحالة الهيمنة تدفع الآخرين للمقاومة ... وهذا ما نشاهده الآن فالاتحاد الأوربي يعمل بدأب على كسر حالة الهيمنة وهناك أيضاً محاولات الصين التى تعمل بشكل هادئ على إعادة بناء التوازن ، ويجب أن نلاحظ هذا السلوك الصيني الهادئ الذي هو طبع الصين وسياساتها الصبورة ...

إذن هناك تياران الآن ، تيار أمريكي هدفه الحفاظ على الوضع الراهن أي تكريس الهيمنة ، وتيار آخر مضاد يعمل على إعادة التوازن لعالم اليوم، إن التيار الأمريكي غير عقلاني ويسير عكس مجري التاريخ ، وهذا كلام المفكرين الأمريكيين أنفسهم ، ولفائدة قرائكم أذكر ثلاثة كتب أمريكية تعارض السياسة الأمريكة الحالية من موقع الحرص وليس لمجرد المعارضة ... أذكر كيسنجر في كتابه الأخير هل تحتاج أمريكا إلى سياسة خارجية ، وبريجنسكى في كتابه "رقعة الشطرنج الكبرى " ووليام بيرى في كتابه عن " الدفاع الوقائي " هؤلاء مفكرون ومسؤولون سابقون ، ينصحون بلادهم ، وخاصة كيسنجر ، بالعمل على بناء توازن دولي عقلاني تكون الولايات المتحدة قائدة له .. فهي لن تستطيع فرض هيمنتها لزمن طويل ... وأمامها خياران ، إما أن تبنى هذا التوازن بإرادتها أو أنه سيقوم رغم أنفها ، نتيجة لكفاح القوى الأخرى ... إن الخيار الأول هو الخيار العقلاني ... كيسنجر هو الأشد وضوحاً ، لأنه أحد رواد مدرسة "توازن القوي "في السياسة الدولية ، ومنظر هذه المدرسة أستاذه في جامعة هارفارد " هانز مورجنتاو " الذي نظر للسياسة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية ... وكيسنجر أمين لأفكار أستاذه وكلاهما يؤمن بشكل صارم بأهمية توازن القوى.

أما بريجنسكى فهو مدرسة أخرى ، لا تؤمن في الأصل بتوازن القوى ، بل كان يعتقد في سياسة القوة كعنصر استقرار ، وفي كل مراحل الصراع الأمريكي السوفيتي كان من المتحاملين على سياسة "توازن القوى "وله مؤلف شهير اسمه " أوهام توازن القوي " ...لكنه في كتابه الأخير وربما نتيجة تفكير عدل نسبياً عن نظريته التقليدية

وأصبح يميل إلى أهمية التوازن ، وفي كتابه هذا يصور العالم كبحر متحرك أما الولايات المتحدة فهي سفينة في هذا البحر ، هي لن تستطيع السير بثبات واعتدال ما لم تعتمد على وجود مراس تحفظ للسفينة توازنها ، فوجود المراسي ضروري لسير السفينة ، وما يريد قوله هو ضرورة الاعتراف بدور القوى الأخرى وهي المراسي ، أي بناء توازن دولي تقوده الولايات المتحدة مع جهد الآخرين أو أنها ستغرق أثناء هذه الرحلة الطويلة ... هذا ما يراه عقلاني من الناحية السياسية ، أما التفرد فيعني الغرق.

وإذا لم تختر الولايات المتحدة ذلك فإن التوازن سينشأ بشكل فوضوي ، فالقوى الأخرى ستتحدى النفوذ الأمريكي وسوف يتحالف بعضها مع البعض الآخر للتصدي للهيمنة.

أنا مع كل أسف لا أظن أن الولايات المتحدة ستتجه نحو العقلانية ، ومن أسباب ذلك ضعف قيادتها الحالية ، التي لا تستطيع الارتفاع إلى مستوى الخيار التاريخي ... إن الآلة السياسية الأمريكية معطوبة بشكل خطر...

إن احتلال العراق يقع ضمن اللاعقلانية الأمريكية لأن هدفه تكريس الهيمنة ، أما معارضة الآخرين لهذا الاحتلال فتقع ضمن محاولة إعادة بناء التوازن ، وما جرى ويجري في مجلس الأمن هو ترجمة أمينة للصراع بين التيارين ، فقد ذهبت الولايات المتحدة إلى الحرب في ظل معارضة الآخرين "فرنسا ، ألمانيا ، الصين" وهذه المعارضة ليست عطفاً على الشعب العراقي بل لحفظ مصالح هذه الدول ...

إن العراق هي اليوم ساحة الصراع بين تيارين عالميين ، حسم المعركة في هذه الساحة سيسهم في تحديد ملامح القرن ... فخاتمة هذه المعركة ستحمل مؤشراً مهماً لما سيجري في المستقبل ، فانتصار الولايات المتحدة سيعزز احتمالات الهيمنة ، أما هزيمتها فستكون نقطة فاصلة ستشير إلى قرب ظهور التوازن...

واعتقادي الشخصي يذهب إلى أن الاستراتيجية الأمريكية بدأت في التشقق والهيمنة بدأت في التآكل ... وحالة العراق تمثل بداية التشقق وتشير إلى نهاية عصر الهيمنة ... لكن المعركة في بدايتها

وستعتمد في الأساس على حجم المقاومة العراقية.

أ. موسى الاشخم:

أنا أود هنا أن أطرح تساؤلا وهو إلى أي مدى ستشارك المقاومة العراقية للاحتلال الأمريكي للعراق في صياغة شكل التوازن الدولي القادم أو شكل العلاقات الدولية في المستقبل؟ لعل أحداً من الأساتذة يود أن يسهم بالإجابة عن هذا التساؤل؟

أ. حسين اللموشي:

أود أن أقول إن حجم النفوذ الذي تحظى به كل دولة رهين بقوتها السياسية والاقتصادية والعسكرية، الولايات المتحدة بعد حرب الخليج الأولى و انتهاء الحرب الباردة أصبحت ترى نفسها قوة عظمى وحيدة و لا تريد أن تشرك آخرين في نفوذ هي من صنعه، فالإنفاق العسكري لأوروبا محدود، مساهمتها العسكرية محدودة بميز انياتها الدفاعية، و اليابان نفس الشيء، إذاً الولايات المتحدة هي التي تغطي نفقات أغلب العمليات العسكرية التي تدار باسم الغرب لذلك هناك اتجاه في الولايات المتحدة يرى أنه من غير المبرر لغير المساهمين أن يحصدوا النتائج. وفيما يتعلق بالعراق هناك من يرى أن فرنسا و ألمانيا كانتا تودان أن تذهب الولايات المتحدة إلى العراق وتتورط فيه لأن هذا سيضعفها، كان هناك رهان على أن الأوضاع ستسير بشكل سيئ بالنسبة للأمريكان في المنطقة وهذا سبب لهم سير هقهم، إن مديونية الولايات المتحدة تتزايد بشكل غير عادي، فهي تنفق مليارات الدولارات على العمليات العسكرية في العراق، هذا كله يسبب مشاكل الولايات المتحدة. إن الولايات المتحدة ليست أكبر دولة في العالم الولايات المتحدة من ناحية تعداد السكان، الصين أكبر منها بعديد المرات و الاتحاد السوفيتي نفس الشيء، ولكن القوة الاقتصادية هي التي جعلت للولايات المتحدة نفوذا وهيمنة تفوق العالم كله، وبالتالي الدول المنافسة للولايات المتحدة ترى أن من المفيد أن تتورط الولايات المتحدة في مثل هذه المعارك التي تكلفها كثيرا بحيث تصبح تلك الدول في وضع أفضل في معادلة التوازن. والمقاومة العراقية هي العنصر الأساسي الذي كلف الأمريكان كثيرا، و منعهم من تحقيق الاستقرار الذي يمكنهم من استغلال الثروات العراقية. إن الولايات المتحدة التي

ذهبت إلى الحرب في العراق دون الاستماع إلى آراء الآخرين، هي الآن تستجدي الآخرين كي يتحملوا معها العبء، وبرغم أن الولايات المتحدة تزعم بأن غزو العراق تم على يد قوات تحالف من حوالي 40 دولة، من بينها بولندا وألبانيا التي شاركت بمائة جندي، لكن الحلفاء الرئيسيين الذين هم قادرون على أن يساهموا في التكاليف مثل ألمانيا وفرنسا وروسيا غائبون. ويدرك الألمان والفرنسيون أهمية دورهم الذي حاولت الولايات المتحدة التقليل من شأنه، إن لسان حالهم يقول: اذهب وخذ العالم كله لكن مادمت لم تأخذ من يدفع معك ويتحمل معك التكلفة الاقتصادية إذا أنت لا يوجد معك تحالف، بإمكانك أن تستأجر جنوداً من دول فقيرة وبإمكانك أن تصرف عليهم كأنهم جنودك فقط.

د. أحمد الأطرش:

في سياق الحديث عن السيناريوهات فإن الوضع الراهن في العراق زج بنا تلقائياً في المحور الثالث من موضوع الحلقة ألا وهو آثار احتلال العراق في الشرعية الدولية والمؤسسات الدولية. لا شك أن الدكتور إبراهيم لديه ما يقول في هذا الجانب ولكنني أرى أنه إذا ما استمرت الولايات المتحدة في سلوكها الحالي في العراق فإن مآل ذلك هو الإخفاق والفشل. المخرج الأمثل بالنسبة للإدارة الأمريكية، حسب تقديري، هو محاولة شرعنة هذا الاحتلال باتباع أسلوب بأكبر عدد ممكن من الدول عن طريق تسخير المؤسسات الدولية، وعلى رأسها الأمم المتحدة. اعتقد أنه لا مجال بعد للخسائر المادية والبشرية والنفسية التي تتعرض لها أمريكا يومياً وخصوصاً أن الخسائر لا تمر جزافا في الولايات المتحدة. أعتقد أنكم سمعتم في وسائل الإعلام مؤخراً عن الاستياء الشديد الذي قوبل به وزير الدفاع الأمريكي (رامسفلد) من قبل عناصر من القوات الأمريكية الموجودة في العراق إثر زيارته لهم، وتصريحه بأن الأمن لم يستتب بعد في العراق وإن بقاءهم مازال أمراً ضرورياً وحاسماً. أتصور أن الطبخة التي تعمل الإدارة الأمريكية على إعدادها في مطابخها السياسية في واشنطن هي إيجاد صيغة للحفاظ على ماء الوجه، ومحاولة إقناع الرأى العام العالمي بأن تصرفها سليم وبناء، مع العمل - وكما أشرنا - على

تحويل المسؤولية إلى الأمم المتحدة بالأسلوب الذي تراه هذه مناسباً بما في ذلك من استخفاف بهذه المنظمة الدولية. إذن، المخرج الوحيد أمامهم والوسيلة الوحيدة للبقاء في المنطقة هو توريط أكبر عدد ممكن من الدول في ميدان المعركة عن طريق الأمم المتحدة سواء كان ذلك بجيوش رمزية أو مساعدات لوجستية أو وسائل أخرى. الهدف هو تبرير البقاء بأقل قدر ممكن من الخسائر التي تتكبدها أمريكا. الوقائع الميدانية والتحليلات المتوفرة تشير إلى أن العناصر الموالية لنظام صدام حسين ليست بالوحيدة التي تقاوم الاحتلال بل إن فئات وطوائف كثيرة ومتعددة الانتماءات تشارك في المقاومة إلى درجة نتجت عنها تحالفات ظرفية وتكتيكية بين أعداء الماضي، وهذا مؤشر خطر وضع الإدارة الأمريكية في مأزق ربما لم توضع له حسابات من نوع خاص.

أ. موسى الأشخم:

الولايات المتحدة الأمريكية تلقي تهمة الإرهاب ومقاومة الاحتلال الأمريكي على الرئيس العراقي السابق صدام حسين والموالين له في محاولة منها لإحراج المقاومة العراقية وحرمان العراقيين المناوئين له من الالتحام بالمقاومة ولكن مسألة القول بأن صدام وأتباعه فقط هم الذين يقاومون الاحتلال تعد مجرد خرافة مفضوحة. في الواقع أن الشعب العراقي بكامل فئاته هو الذي يقاوم الوجود الأمريكي في العراق والإدارة الأمريكية لا تريد أن تعترف بتلك الحقيقة.

د. إبراهيم أبو خزام:

إذا سمحت لي أن أتناول نقطتين، تتعلق الأولى بسؤال طرحته حضرتك عن دور المقاومة العراقية وتأثيرها في الولايات المتحدة وبالتالي في التوازن العالمي...

أعتقد أن هناك قانوناً طبيعياً " الاحتلال يؤسس المقاومة " هذه بديهية تاريخية، فلا يمكن لمحتل أن يتوقع استسلام الطرف المحتل إلى زمن طويل.

المشكلة أن المخططين الاستراتيجيين الأمريكيين بنوا افتراضاتهم على معلومات خاطئة، منها أن الشعب العراقي سيرحب بالاحتلال ويقبله ... أظن أن جزءاً من الفرضية كان صحيحاً، أي رغبة الشعب في إسقاط النظام، هذه حقيقة، فهناك من العراقيين - كثير منهم -

كان مستعداً للتحالف مع الشيطان لإسقاط النظام ، لكن الولايات المتحدة انكشفت سريعاً كقوة احتلال فبدأت المقاومة ...

إن المقاومة الآن بمختلف اتجاهاتها ، هى مقاومة وطنية للاحتلال ، وهذه المقاومة هى التى ستقوم بالدور الرئيسي ، المحافل الدولية و الإقليمية وحركة الفكر والإعلام لن تحدد المصير الأمريكي ، الذي سيحدده هو المقاومة العراقية ، فإذا تلمت هذه المقاومة واستطاعت تنظيم نفسها فإنها ستقوم بدور مفصلي في التاريخ ... واعتقادي الشخصي الذي أستمده من تجربتي مع شعب العراق وقراءاتي لتاريخه تجعلني أرجح زيادة زخم هذه المقاومة ولن يكون هناك من خيار للولايات المتحدة إلا الهروب أو الوقوع في مستنقع شبيه بورطة فيتنام...

أما الثانية فقد ذكر الأخ حسين عرضاً قاعدة مهمة في العلاقات الدولية وهى عمل القوى البازغة في النظام الدولي على توريط الطرف المتجبر في مزيد من الصراعات الدولية والحروب بقصد إضعافه تدريجياً أنا أعتقد أن هذه الأطراف سعيدة الآن بتورط الولايات المتحدة في هذه المآزق ، وهي تتمنى في قرارة نفسها أن تغرق أمريكا في صراعات من نوع الصراع العراقي ... إن هذه الأطراف لا تعبر علانية عن أمانيها ، وهى تعارض ظاهرياً هذا التورط ، لكنها في الحقيقة مغتبطة به ... لقد تورطت الولايات المتحدة في البلقان وأفغانستان والصومال الخ وهذا هو الذي ينهك الخصم ...

وهناك ملاحظة جديرة بالإشارة هى أن الولايات المتحدة في حروبها المبكرة في الخليج والبلقان كانت تعتمد على تمويل الآخرين ، فحرب الخليج مولها بعض العرب واليابان والألمان لأن لهم مصلحة ظاهرة فيها ... أما حرب اليوم وحروب المستقبل الأمريكية فإنها ستعتمد على التمويل الذاتي وهذا إنهاك مهم ومؤثر في الاقتصاد الأمريكي.

أ.موسى الأشخم:

إذا سمحت لي بالمقاطعة الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب العالمية الثانية استخدمت نفس التكتيك حيث وقفت موقف المتفرج على الحرب العالمية الثانية ولم تشارك فيها فترة طويلة حتى تنهك أطرافها وتظهر هى بمظهر القوة التي تستطيع أن تنقذ القوى الكبرى السابقة التى أنهكتها الحرب وتخطف ثمار الانتصار.

د. إبراهيم أبو خزام:

نعم من يرجع إلى تاريخ الحرب العالمية الأولى ، أمريكيا تدخلت عام 1917 أي في السنة الرابعة للحرب ... وفي الحرب العالمية الثانية تكرر المسلك نفسه ، فتدخلت الولايات المتحدة في السنة الثالثة ... هذه سياسة معروفة ، تنتظر وتتربص وتتدخل في الوقت المناسب بعد إنهاك أطراف الحرب وتخطف ثمرة الحرب ... هذا ما يسمى عمل " الموازن أو حافظ الميزان " في العلاقات الدولية وهي نظرية شائعة ومعروفة عملت بها الولايات المتحدة في الصراعات الكبرى السابقة ... أما الآن فالقاعدة أصبحت مقلوبة بالنسبة لأمريكا ، فهي طرف الصراع الرئيسي على طريق الإنهاك ، فمأزق العراق وأفغانستان وإندونيسيا وكوريا الشمالية وربما إيران هذه المآزق ستقلب التدبير الأمريكي التاريخي ، وعند إنهاكها سيأتي من يقطف الثمار ...

تبقى نقطة جوهرية لا أريدها أن تفلت منا في هذا الحديث هي حتمية انتصار المقاومة ، هذا قانون تاريخي لم يختل أبداً ... هناك من يتحدث عن ميزان القوى بين أمريكا والعراق ويعتقد أن المقاومة لاحظ لها ، هذا استنتاج خاطئ تماماً ... فالحالة الوحيدة التى لا يعمل فيها توازن القوة هي " حروب التحرير الشعبية " فهذه لا تخضع لمنطق توازن القوة ... نحن في ليبيا هزمنا إيطاليا ... وتغلب الجواد على الدبابة ومرغت فيتنام أنف أمريكا في التراب ودحرت الجزائر فرنسا وهى قوة عظمى ذات شأن ... هذا قانون تاريخي أيضاً.

نعم هذا صحيح وقد أفيدك بإيجاد مصطلح جديد نوعاً ما . فموضوع توازن القوى يتم التحدث عنه دائماً من منظور عسكري بحت ، أما حين توزن جميع مقدرات الدولة فالأفضل استعمال مصطلح " توازن القدرة " وهو مختلف تماماً ويشير إلى مجموع قدرات الدولة العسكرية والاقتصادية والبشرية والمعنوية وحجم قيادتها أيضاً ، فهو يشمل الجوانب المادية المعنوية جميعاً ، وقد لا تتساوى الدول في قوتها العسكرية لكن المسائل المعنوية تعيد الميزان إلى اعتداله وعلى سبيل المثال فإن الفلسطينيين لا يتوازنون مادياً مع الكيان الصهيوني الذي هو دولة ذرية ولكنهم يقارعون هذا العدو معتمدين على مجموعة قيمهم الروحية ، والشيخ أحمد ياسين لا يتوازن مع شارون في الشكل ولا في القوة ، لكنه ربما أقوى منه بعدالة قضيته وإيمانه بها .

أ. موسى الأشخم:

دعني أخالفك صورياً هنا، أنا أقول بأن هناك توازناً في المقاومة الشعبية للمحتل لأنه ثمة قوة غير منظورة يمكن أن نسميها قوة العقيدة قوة الحق هذه القوة هي التى توازن القوة المادية للدبابة أو السلاح الثقيل والمتطور هناك نوع من توازن القوى أو حتى تفوق القوى إن جاز التعبير فيما يتعلق بالمقاومة الشعبية إذا أدخلت القوة المعنوية أي العقيدة أو الشرعية في الحسبان .

أ.حسين اللموشي:

عودة إلى مسألة الصدمة و الترويع والمقابلة التي أجريت مع (هارلن اولمان). فنجاح الصدمة والترويع في العراق، في تصور المحافظين الجدد، كان سيمكن الولايات المتحدة أن تضرب عصافير عدة بحجر واحد، فهي كانت ستستعيد هيبتها، و ترهب الفلسطينيين ومن يدعمهم و بالتالي تستطيع فرض حل للقضية الفلسطينية يتماشى مع الولايات المتحدة. لكن (أولمان) لمّح إلى أن المقاومة العراقية هي التي تستخدم الصدمة والترويع ضد الولايات المتحدة.

ويرى البروفسور (فيكتور هانسون)، وهو مؤرخ عسكري محافظ، في كتابه (المجزرة والثقافة) الذي حلل فيه بعض المعارك العسكرية الكبرى التى خاضها الغرب ضد الشرق من أيام الحروب بين الفرس واليونان إلى معارك فيتنام، وخلص إلى أن الغربيين انتصروا في هذه المعارك لأنهم قتلة أكفاء، هذا أيضاً امتداد لهذا لموضوع الصدمة والترويع. أي أنك أنت تستطيع أن تقنع خصمك بأنك ذو قوة قاهرة هذه الصورة اهتزت في 11 سبتمبر و هي تهتز الآن في العراق، إنني أعتقد أن نتائج المقاومة العراقية ستلحق ضرراً كبيراً بالاستراتيجية الأمريكية ليس في العراق فحسب بل ستكون لها انعكاسات على صعيد عالمي، فهي ستشجع على تحدى امريكا في بقاع أخرى مثل أمريكا الجنوبية بصورة أو بأخرى.

أ. موسى الأشخم:

سياق الحديث نقلنا تلقائيا إلى المحور الثالث وهو آثار احتلال العراق في الشرعية الدولية وفي المؤسسات الدولية.

د. إبراهيم أبو خزام:

في هذا المحور قد أساعدكم على وضع منهجية تعينكم على البحث في موضوع الشرعية الدولية المحاط بكثير من الغموض، فما هي الشرعية الدولية المحتملة بعد احتلال العراق ؟ و ما هي المؤسسات المعبرة عن الشرعية الدولية ؟

إن الحديث عن الشرعية الدولية يجب أن يتناول هاتين النقطتين ، مضمون الشرعية و المؤسسات المعبرة عنها.

الشرعية الدولية كما هو معروف هي عبارة عن القواعد الرئيسية للقانون الدولي ، و هي قواعد متعددة المصادر ، أبرزها كما هو معروف القواعد المكتوبة والأعراف التي يصنعها سلوك الدول ... والالتزام بالشرعية الدولية يعني الالتزام بحرفية القواعد ومضمونها وفقا لصدورها واحتلال العراق - في نظري - كشف بشكل كبير دخول مرحلة جديدة من مراحل الشرعية الدولية.

قبل احتلال العراق كان هناك مجموعة من القواعد الرئيسية التي شكلت مضمون الشرعية الدولية وأهم هذه القواعد على الإطلاق هي الاعتراف بسيادة الدولة ومساواتها مع الدول الأخرى والامتناع الكلي عن التدخل في شئونها الداخلية .. إذن السيادة المساواة وعدم التدخل ... هي القواعد الرئيسية التي تأسس عليها القانون الدولي الحديث ، الذي نشأ مع معاهدة " وستفاليا " عام 1648 وهي معاهدة أوربية ووضع الأوروبيون فيها هذه القواعد الصارمة.

إن احتلال العراق وهو أول عمل ينسف بشكل سافر هذه القواعد ويحل محلها قواعد بديلة يمثل في نظري انتكاساً خطيراً للقانون الدولي الذي بنته البشرية خلال أربعة قرون .

إننا نعرف أن هذه القواعد لم تحترم بدقة خلال القرون الماضية ، فقد عرف التاريخ الأوربي بالذات انتهاكات متكررة لهذه القواعد ، ولكن كان هناك احترام ظاهري على الأقل لأسس الشرعية الدولية ، فالمساواة بين الدول كانت تحترم شكليا في المعاهدات بين الدول غير المتساوية فعلياً ، فعندما تبرم الكويت أو قطر معاهدة دفاعية مع أمريكيا يتصدر نص المساواة هذه المعاهدة ، بالرغم من أن ذلك لا يتأسس على حقائق موضوعية.

فتلاحظ هنا التزاماً صارماً بالمبادئ رغم مجافاة ذلك للواقع ... وقد كانت هناك

تدخلات دولية في شئون الآخرين ، لكن ذلك يتم بشكل مستور وهى تدخلات تعد غير مشروعة في القانون الدولي ولا تتوافق مع الشرعية الدولية.

إن احتلال العراق قد قلب هذه القواعد بشكل تام ، فالتدخل تم خارج الإطار الدولي ودون مساندة من حلفاء حقيقيين ، لكن من المؤسف أن هذا الاحتلال جرى تشريعه فيما بعد بواسطة قرارات مجلس الأمن الدولي، إن ما جرى يجب النظر إليه من زاويتين ، زاوية هدم المبادئ الرئيسية للقانون الدولي وزاوية الأسباب التى دعت إلى هذا الهدم الخطر.

فمبدأ التدخل وعدم احترام سيادة الدولة أصبحا مبادئ جديدة تتأسس عليها الشرعية الدولية الجديدة... وكما تعرف فإن القانون الدولي هو قانون السوابق والأعراف فلا يوجد قانون دولي مكتوب مثل القانون الوطني يمكن الرجوع إليه للتعرف على الشرعية... مبدأ التدخل أصبح مشروعاً... وما هي الأسباب والذرائع ؟ لا أريد أن أخوض في ذلك كثيراً ، لكن التدخل في العراق تم بذريعة تدمير أسلحة الدمار الشامل وفيما بعد إسقاط النظام ... هذه الذرائع أصبحت مقبولة دولياً ويمكن الاستناد إليها مستقبلاً في أي تدخل وستبرز أسباب جديد مثل مقاومة الإرهاب أو تغيير النظام نحو الديمقراطية أو إعمال مبدأ تقرير المصير أو حتى مقاومة الأمراض أو المخدرات أو الجريمة أو الحفاظ على البيئة... احتلال العراق يبدو أنه سيوجد قواعد جديدة للشرعية الدولية ويمدها بالذرائع وهى لن تكون محددة أو منضبطة ، فمن السهل التذرع بمقاومة الإرهاب ... الخ.

أما عن المؤسسات الدولية المعبرة عن الشرعية الدولية ، فمن المفترض أن هذه المؤسسات هى الحكم للفصل في النزاع حول الشرعية أو مضامينها ، ولكن ما حدث مخجل للغاية ، فمجلس الأمن كان ضعيفاً شبيهاً بشاهد الزور ولم يستمر في معارضته للاحتلال بل بالعكس استسلم تماماً للإرادة الأمريكية وجعل ما قامت به مشروعاً من خلال قرارات اعترفت بالأمر الواقع ... الاحتلال كان انتهاكاً صريحاً لميثاق الأمم المتحدة ، انتهاكاً للنصوص ولروح الميثاق أيضاً ومجلس الأمن الذي هو الأمين الأول على تطبيق الميثاق قبل هذا المتغير الجوهري.

ودون إغراق في التحليل أقول إن هناك جهداً وعزماً أمريكياً على تغيير مضامين

الشرعية الدولية كما أن المؤسسات أصبحت عاجزة عن تكريس هذه الشرعية.

والسؤال مجدداً هل ستنجح الولايات المتحدة في مسعاها ؟

أظن أن معركة سياسية كبيرة ستدور في الوقت القريب بين هذا التوجه الأمريكي والتوجه العالمي.

كما يجب أن نلاحظ أن الولايات المتحدة أصبحت تبحث خارج إطار الأمم المتحدة عن أطر إقليمية تغطى تجاوزاتها وتحاول أن تصنع من خلالها قواعد الشرعية الدولية ، فهي تلجأ إلى حلف الناتو أو مجموعة الثمانية " الدول الصناعية الكبرى "كأطر جديدة لإفراز قواعد الشرعية وهذا يشير إلى فقدان الثقة بهيئة الأمم المتحدة والعمل على تهميشها حين تعين لها معارضة المسلك الأمريكي ... فالملاحظ أن مطبخ القرارات انتقل من الأمم المتحدة إلى هذا الأطر الجديدة ... وأصبحت الأمم المتحدة مجرد ختم تمهر به القرارات التى تتخذ من خارجها .

أ. حسين اللموشي:

وأنا أتفق تماماً مع كلام الدكتور إبراهيم بأن الأمم المتحدة تعكس الأوضاع عشية انتهاء الحرب العالمية الثانية واستجابة لتحديات المرحلة. وقد كتب (توماس دونيللي) الذي عمل نائبا للمدير التنفيذي في (مشروع القرن الأمريكي الجديد) مؤخرا مقالا بمجلة (ناشيونال سيكيورتي اوتلوك) بعنوان (ما بعد العراق: الحفاظ على تسيد الولايات المتحدة و مأسسة الأحادية القطبية).

يقول (دونيللي):

"لقد صُممت الأمم المتحدة و أقيمت - جزئيا- لحماية الدول ذات السيادة من التحديات التي مثلتها الشيوعية الثورية، و بالتالي أعطيت آليات التدقيق و التوازن (التي من أبرز أمثلتها حق النقض الذي تتمتع به الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن) المبنية على مبدأ سيادة الدولة، التي ساعدت في ضبط السلوك السوفيتي - وبالتالي- حماية النظام الليبرالي للغرب"

ويرى الكاتب أن تلك الآليات عرقلت الجهود الأمريكية لاستصدار قرار بغزو العراق، و بالتالي فإنها لا تخدم النظام العالمي الجديد كما يراه المحافظون، والكاتب يرى أنه لابد من إصلاح جذري للأمم المتحدة أو إقامة مؤسسات بديلة عنها تثمن "الحرية" أكثر من تثمينها

للاستقرار، و تكرس نفسها لمساعدة الشعوب المقموعة في تأمين حقوقها السياسية الفردية دون أن تقيد نفسها بمبدأ سيادة الدولة، و هكذا نرى أن الولايات المتحدة وقفت مع مبدأ سيادة الدولة ما خدم ذلك مصالحها، و تراه الآن عقبة ينبغي التخلص منها لأنها تريد إعادة تشكيل العالم بما يتلاءم مع وضعها كقوة عظمى وحيدة. فالولايات المتحدة لم تعد راضية حتى بتقاسم النفوذ مع فرنسا أو مع ألمانيا ولا مع دول أخرى في مجلس الأمن. طبعا هذا توجه المحافظين الجدد سادة واشنطن اليوم. و هكذا فالشرعية الدولية ليست أكثر مما يراه الأقوياء مناسبا لمصالحهم.

أ.موسى الأشخم:

دعني هنا أضيف إلى ما قاله الأستاذ حسين اللموشي أن الولايات المتحدة من خلال غزوها للعراق وأفغانستان تسن سابقة دولية خطيرة حيث من الممكن أن تحذو حذوها دول أخرى وتتدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى أو حتى تغزوها بذات الحجج التي استخدمتها الولايات المتحدة الأمريكية وثمة سوابق تدل على ذلك فالهند قد تستخدم إحدى الحجج الأمريكية للحرب على باكستان وإسرائيل قد تستخدمها لضرب سوريا أو إيران ..الخ.

د.إبراهيم أبو خزام:

هذا صحيح وما يشير إليه الأخ موسى صحيح ومهم ، فالقوة متغيرة ، اليوم الولايات المتحدة قوية ، وغداً ستكون هناك دول أخرى قوية ، وأوربا نفسها بها دول قوية وأخرى ضعيفة ... الخطير جداً هو تشريع مبدأ التدخل فإذا شرع هذا المبدأ فإنه ستعطى الفرصة للآخرين للتدخل ... فمن الممكن تصور تدخلات متبادلة بين الهند وباكستان أو جنوب أفريقيا يمكنها التدخل مجدداً في ناميبيا وروسيا قد تتدخل بالقوة في شئون جيرانها الذين انسلخوا عنها ... هذه الشرعية الدولية قد تستمر لنصف قرن قادم وخلال هذه الفترة ستتغير موازين القوى وسيكون من الخطر الاعتراف بمبدأ التدخل فهو سيقود العالم إلى فوضى حقيقية وخاصة في ظل عدم تدقيق المفاهيم ، الولايات المتحدة مازالت تعارض تحديد مفهوم الإرهاب ليتسنى لها استخدام هذه الذريعة بطريقة مزدوجة وهذا ينطبق على المفاهيم الأخرى مثل

تقرير المصير ... الذي قد يستخدم لمصلحة الأكراد لكن لا يلتفت إليه في حالة الشعب الفلسطيني...

والخلاصة هو أن تشريع المبدأ سيكون مضراً للغاية ويجب عدم الاستسلام للأطروحات الأمريكية أو أنها ستحدث فوضى عالمية لا يمكن التعايش معها.

أ.حسين اللموشي:

النفط كسلعة غير مشمول بالاتفاقية والعمل كسلعة لا يدخل فيها أيضا. أي أن الولايات المتحدة مثلا تطالب المكسيك أو الهند مثلا بفتح أسواقها أمام السلع الأمريكية، لكن عندما تطالب المكسيك أو الهند بفتح سوق العمل الأمريكي أمام العمالة المكسيكية أو الهندية فإنها تلجأ إلى مبدأ الحماية، و تطالب تلك الدول برفع معايير العمالة بحيث تفقد القدرة على المنافسة، هذه الاتفاقيات مصممة لخدمة الدول القوية و مقابل انصياع الدول الفقيرة فإنها سوف تُمنح الفتات. إن وقوف الدول الفقيرة موقفا موحدا في اجتماعات (كانكون) من أجل الحصول على صفقة عادلة جُوبه بتشدد من الدول الصناعية أدى إلى إفشال الجولة.

أ. حسين اللموشي:

قبيل غزو العراق قرأت مقالا ساخرا نشرته (الموندو) بقلم (خافير اورتيز) عنوانه " الدكتاتور العظيم" فيه مقارنة بين ألمانيا النازية و الولايات المتحدة في ظل (بوش) فقال " إن النظام الهتلري امتلك سطوة عسكرية مروعة ارتكزت على قاعدة صناعية متقدمة كانت تعمل بكل طاقتها و كانت غير مسبوقة في عديد المجالات في مقدمتها التسليح. (الفوهرر) و هو الذي جاء إلى السلطة عبر الانتخاب الشعبي أخذ في التباهي بتفوق دولته ونموذجه المجتمعي و لم يُخف نواياه في السعي للسيطرة على العالم بأسره. لقد بلغت قوته و غطرسته و التأييد المحموم الذي حظي به مبلغا جعل أغلب الحكومات الغربية تخشاه. و نتيجة لخوفهم استطاع الاستهزاء بالقانون الدولي، ساعده في ذلك رضى الحكومات الغربية عن معارضته المحمومة للشيوعية التي اتهمها أنصاره النازيون بممارسة الإرهاب" وانتقل الكاتب إلى مقارنة ألمانيا النازية بالعراق وخلص إلى أن العراق دولة ضعيفة منهكة لا تشكل خطرا و لا تصدق مقارنتها بألمانيا النازية، ثم تساءل قائلا:" هل يا

ترى يوجد شخص ما في العالم اليوم يمتلك سطوة عسكرية عارمة ترتكز على قاعدة صناعية متقدمة غير مسبوقة خصوصا في مجال الأسلحة، و يباهي بتفوق دولته ونموذجه المجتمعي و لا يُخفي نواياه في السعي للسيطرة على العالم، و الذي لا تعرف غطرسته حدودا، و هو يستهزئ بالقانون الدولي كيف شاء دون اعتراض من الحكومات الغربية و لو همسا؟

كلمة "دكتاتور" معناها " الشخص الذي يُملي" - أي أنه الشخص الذي يأمر الآخرين بفعل هذا و الامتناع عن ذاك. فهل هناك يا ترى شخص ما في هذا الوقت يأمر العالم كله بما يجب فعله و يعتقد أنه فوق كل القوانين عدا تلك النابعة من إرادته الإمبراطورية. إذا لم يخطر ببالك من ينطبق عليه ما ذكرناه، فينبغي عليك أن تسرع بعرض نفسك على طبيب مخ." وعنوان المقال (الدكتاتور العظيم) فيه غمز أيضا فهو أيضا عنوان لشريط سينمائي يسخر من (هتلر) للممثل الكوميدي (تشارلي شابلن).

أ. موسى الأشخم:

أعجبني تعبير لـ (تشومسكي) قال فيه: يبدو أن الولايات المتحدة لا تريد أن تعرف الإرهاب و التعريف الوحيد الذي يمكن أن يستخلصه المرء من تصريحات المسئولين الأمريكان هو أن الإرهاب يعتمد على من يطلق الرصاصة، إذا كان الذي يطلق الرصاصة غير أمريكي ويستهدف أمريكيين فالعمل إرهاب أما إذا كان الأمريكان هم الذين يطلقون الرصاص فتعريف الإرهاب لا ينطبق وبتعبيره " إذا كانت الرصاصة تنطلق من غيرنا ضدنا فالعمل إرهابي و إلا فلا" وبالتالي هذا يقودنا إلى أنه ثمة نظرة عنصرية في هذا التعريف إذا كان العمل العنفي يقوم به الأمريكي فهو ليس إرهاباً وإذا كان العنف يستهدف الأمريكان ويقوم به غير الأمريكي فهو عمل إرهابي .

د. إبراهيم أبو خزام:

هذا صحيح من حيث هو قانون تاريخي فما من أمة تجبرت إلا وانتهت ودمرت ... وهناك كثيرون يتحدثون عن هذا القانون التاريخي أبرزهم في أمريكا "نعوم شومسكى "فهو في سلسلة من الكتابات ينصح الولايات المتحدة الأمريكية بالنهج العقلاني.

وبهذه المناسبة أتذكر مقالاً كتبه منذ زمن "محمد حسنين هيكل "يقول فيه: إن أمريكا تستطيع أن تستولي على القلوب بثقافتها وطريقة حياتها، ولو عملت الولايات المتحدة بالأساليب العقلانية فإنها تستطيع أن تنشر طريقة حياتها، فطريقة الحياة الأمريكية استدعائية وجذابة وهناك كثير من الشعوب تتمنى أن تنسج مع الولايات المتحدة علاقات حميمة ثقافية وعلمية وسياسية، لكن القوة أعمتها عن هذه الحقائق ... وعلى أية حال فإن سياسة العجرفة والطغيان هي من سيقودها إلى حتفها، هذا ليس كلامي، إنه كلام أمريكي آخر هو "بول كندي "ففي كتابته سقوط ونهوض القوي العظمي والاستعداد للقرن الحادي والعشرين يعتقد بحتمية سقوط بلاده ما لم تعد قراءة التاريخ الإنساني وتستفد منه ليس بالعجرفة والطغيان أو الحرب بل بالفهم العميق لدروسه.

د. أحمد الأطرش:

لا ننسى دائماً أن المواطن الأمريكي العادي، وحسب معايشتي الشخصية لهم، لا يهمه في المقام الأول إلا ما عليه من واجبات مقابل ما له من حقوق، وتحديداً العلاقة بين دفع الضرائب التي يدفعها بالخدمات التي يحصل عليها، وهذا يحصل غالباً على الصعيد المحلي. أما على الصعيد الاتحادي (الفيدرالي)، فإن السياسة الخارجية الأمريكية مبنية علي هدفين رئيسيين ألا وهما الأمن القومي الأمريكي والمصلحة القومية الأمريكية. أى تصرف (أو حتى الإيحاء به) يمس أو يتعارض مع أمنهم أو مصلحتهم يعتبر تمرداً على "بيت الطاعة الأمريكية". صحيح أن التفوق العسكري الأمريكي ساهم إلى حد كبير في الرفع من قدراتهم ومستوى معيشتهم، ولكن الصحيح أيضا أن ثمة وهما ترسخ في عقول شعوب الدول المقهورة والمتخلفة عن الحياة الرغيدة في أمريكا. صحيح أن لدى الأمريكان مشاكل وأن شرائح من المجتمع الأمريكي تعاني من ظروف معيشية قاسية وصعبة، وأن بعض الفئات من المجتمع الأمريكي مازالت تقتات على مخلفات القمامة إلى حد القول بأنه توجد ظواهر وممارسات في الولايات المتحدة لم أرها في أفريقيا أو في مناطق فقيرة أخرى في العالم. الحقيقة التي ينبغي عدم

تجاهلها هى أن قــــوتهم ازدادت على حساب ضعفنا. نحن نسينا أنفسنا ونسينا ترتيب بـــيتنا في الداخل، ومن أهم ذلك العمل الدءوب والجاد على ترسيخ ثقافة المواطنة وزرع روح الانتماء الصادق.

أما الوضع بالنسبة لمستقبل التنظيم الدولي مع الأخذ في عين الاعتبار ماضي هذا التنظيم فهو أن الأمم المتحدة يجب أن ننظر إليها كمنظمة مرحلة مثلما حدث للمنظمات التى قامت قبلها وانتهت. لذا يجب تكثيف الجهود من أجل الدفع بالتنظيمات الإقليمية، وخاصة الفاعلة منها، إلى الأمام، وما الاتحاد الأفريقي إلا أبرز الأمثلة على ذلك. ما حصل أخيراً في ليبيريا وإخفاق الولايات المتحدة في المساعي التى قامت بها في وضع حد للنزاع هناك، والتي أشك في حسن نواياها رغم الإفصاح بأنها تنطلق من "دوافع إنسانية"، كان بسبب التدخل الفاعل لمنظمة (الاسكوا) باعتبار أن المشكل أفريقي ويجب حله في إطاره الأفريقي. إن الاهتمام الشديد بالجانب المحلي ثم الإقليمي سواء في المجالات الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية وغيرها سيفوت الفرص على الولايات المتحدة للتدخل في شؤوننا، والاتحاد الأوروبي، وكما ذكرت سلفا أقرب دليل على ذلك هذا الاتحاد أحدث ثورة في تاريخ العلاقات الأوروبية الأمريكية. لو أن العالم يسير وفق هذه الخُطى فسيحدث توازن في ثوب جديد وسينتج عنه ردع من جديد أيضا.

أ. موسى الأشخم:

نقطة جوهرية آثارها الدكتور الأطرش وهي تحيلنا على نظرية الاستعمار والفراغ، الاستعمار ينشأ لاختلال توازن القوة إذا لم تبن أمة ما قوتها فستستدعى المستعمر. فالطاغية دائما يستمد طغيانه من ضعف الآخرين.

د. إبراهيم أبو خزام:

على كل حال لدى تعقيب بسيط يتعلق برسالة الأمم والإمبراطوريات ، ففي كل التاريخ كان للإمبراطوريات ادعاء برسالة عالمية وتاريخية ، وحتى الإمبراطوريات الاستعمارية تذرعت بعبء الرجل الأبيض ، ومن يقرأ التاريخ الأمريكي ، وأنا أحد الذين قرءوه ، يجد بعضاً من هذا الادعاء ، وللإنصاف فإن التاريخ السياسي الأمريكي يحفل بالمبادئ

والمثل والقيم ، لكن ما يشير إليه من سيطرة المركب العسكري الصناعي هو الذي ذهب بروح الثورة الأمريكية ، وأتذكر أن خطاب إيزنهاور الوداعي عام 1960 حذر بلاده بشكل واضح تماماً من خطورة هذا المركب الذي بدأ يصعد منذ ذلك الوقت وينخر الدولة ، والواقع أن هذا المركب الخطر الذي يتزعمه الصهاينة تمكن من الجسد الأمريكي ، وأصبحت هذه الإمبراطورية هى الأولى التى لا يقودها سياسيون بل مركب هدفه الربح والمتاجرة بالدولة وبالإنسانية معاً.

لكن مع ذلك فهناك أصوات في الولايات المتحدة ، وإن كانت ضعيفة ، تقاوم هذه الروح وهي ما يعطي بعض الأمل في عودتها إلى رشدها.

أ.موسى الأشخم:

على نفس شاكلة تعامل الولايات المتحدة مع المنظمات الدولية غير الاقتصادية تعاملت مع المنظمات الدولية الاقتصادية وأود هنا وأنا أنتقل إلى المحور الأخير إذا سمحتم لي أن أبدأ برأي لنعوم تشومسكي يقول فيه بأن المؤسسات الدولية لا يمكن لها أن تنال رضا الولايات المتحدة وتعدها ناجحة في القيام بوظائفها إلا إذا حققت مصالح الولايات المتحدة ، وفي هذا الإطار تتعامل الولايات المتحدة مع المنظمات الاقتصادية الدولية سواء كانت تلك المؤسسات مؤسسات تقليدية وهى التى تعرف بمؤسسات بريتون وودز كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي أو كانت مؤسسات حديثة كالمنظمة العالمية للتجارة الدولية فما يحقق منها مصالح الولايات المتحدة يعد مؤسسة ناجحة وما يفشل منها في تحقيق تلك المصالح يعد مؤسسة فاشلة بل وفاقدة لمصداقيتها ودورها وكافة السياسات التى تدعو إليها تلك المؤسسات ليست أمريكيا إلا أدوات وذرائع للتدخل الأمريكي في السياسات الاقتصادية للبلدان الأخرى وخاصة البلدان الضعيفة.

غير أن الولايات المتحدة غير مقيدة بتلك السياسات التى تدعو إلى رفع كافة أشكال القيود والحماية الكمية وغير الكمية عن السلع المَستوردة ورفع كافة أشكال الدعم عن السلع المصدرة والولايات المتحدة في حل من تلك السياسات التى تمليها تلك المؤسسات الدولية أو تنص عليها الاتفاقيات التى

أبـــرمت في إطار منظمة التجارة الدولية في الوقــت الذي تعد فيه تلك السياســـات والاتفاقيات ملزمة للدولة الأخرى بل وقد تتخذها الولايات المتحــدة في المستقبــل ذريعة لإشـــعال حـــروب جديدة وغزو بـلدان أخرى دون أن تلزم نفسـها بـتلك السياســات والاتفاقـيات، والأمثلة عديدة لاختراق الولايات المتحـــدة السياســـات التي تمليها على البـــلدان الأخرى من خلال تلك المؤسسات الاقتصادية الدولية وخاصــة منظمـة التجـارة الدوليـة، منهـا القـيود على صادرات الحـديد والصلب الأوروبـــــية ومنها دعمها لمنتجاتها الزراعية بـمـا يناقــض اتفاقــية منظمة التجارة الدولية، فسياســـــة ازدواجية المعايير تطبقــها الولايات المتحـــدة ليس فيما يتعلق بأمور السياسة الدولية فحسـب بـل فيما يتعلق بالاقـتصاد الدولي أيضاً، فما ينبغي أن يتقيد بـه الآخرون لا ينبـغي أن تتقيد بـه الولايات المتحـدة فالولايات المتحدة تطبق سياسـة الكيل بـمكيالين في إطار المنظمات الاقـتصادية الدولية كما تطبقـــها في إطار المؤسســـات الدولية الأخرى وكما تفعل في انتهاكها للقـــانون الدولي، والمضحك أن الولايات المتحـدة كانت تطالب الحكومة العراقـية باحترام القانون الدولي واتفاقية جنيف في معاملة الأسرى بينما تناقض هى القـانون الدولي وتنتهكه بــغزوها للعراق من الأســـاس وأيضا كانت للتو تعرض الأســــــرى العراقـــيين عبــر شاشـــات الـ CNN وغيرها من القـنوات الإذاعية الأمريكية وتناسـت ذلك حـين طالبـت الحـكومة العراقـــية بــعدم عرض أســـراها على شاشـات المرئية وفقاً لبروتوكول جنيف وهذه الازدواجيــة فــي المعاييــر ذاتهـا مطبقــة في إطار الاقــتصاد الدولي وفي تعامل الولايات المتحـدة مع الاتفاقـــيات الاقـتصادية الدولية. احـتلال العراق يعد نقـطة فاصلة بـين عصرين ســواءً فيما يتعلق بالتوازن الدولي حيث الانتقـال من عصر ثنائية القطبـــية والتوازن الدولي إلى عصر أحـــادية القطبـــية والهيمنة الأمريكية على العالم سواءً في السياسـة أو في الاقـتصاد الأمر الذي يعد فيه غزو العراق فعلاً حـــــــدثاً مفصلياً يكرس الهيمنة الأمريكية على المؤسســـــات الاقـتصادية الدولية وعلى الاقـتصادات الدولية بشـكل عام وعلى التجارة الدولية بشكل خاص.

أ. حسين اللموشي:

أريد أن أعرج على مثال آخر لا علاقة له بالعراق يتعلق بالتجارة الدولية وحقوق الملكية الفكرية التي يُروج لها دوليا بشدة هذه الأيام. و يُعدد كتاب بعنوان (The Age of Consent) صدر قبل شهرين للكاتب (جورج مونبيوت) أمثلة خرقت فيها الدول التى أصبحت الآن صناعية حقوق الملكية الفكرية مما خدم ذلك مصالحها وضرب أمثلة بهولندا وسويسرا وبريطانيا و الولايات المتحدة، و لم تلتزم تلك الدول بتلك الحقوق إلا عندما اصبح ذلك يخدم مصالحها.

د. إبراهيم أبو خزام:

أنا لدى ملاحظة تتعلق بالعولمة في الجوانب الاقتصادية ، وأنا لست متخصصاً مثلكم في القضايا الاقتصادية ، لكن في الجانب الاقتصادي هناك ازدواجية المعايير في السياسات الغربية ، وهناك مفارقات عجيبة ، فالغرب يضع القوانين ولكنه يتنكر لها عندما تتعارض مع مصالحه ، فالولايات المتحدة هي الدولة الأولى التى تحمست وقادت العمل لوضع اتفاقية عالمية للتجارة الحرة " القات " ولكن عند تعارض هذه الاتفاقية مع مصالحها فإنها تتنكر لها ، فهي في حرب الآن مع البرازيل" حرب الفولاذ " وهي حرب في الواقع بين أمريكا الشمالية والجنوبية ، فهذه الأخيرة بزعامة البرازيل و الأرجنتين وضعت اتفاقية للتجارة الحرة فيما بينها وتخشى الولايات المتحدة من ظهور اتحاد أوربي جديد غرب المحيط ولذلك فإنها تعمل على ضم هذه الدول إلى اتفاقية التجارة الحرة الخاصة بدول أمريكيا الشمالية " نافتا " ولكن هذا المسعى فشل مما يشير إلى تشقق الهيمنة الأمريكية على دول غرب المحيط الأطلسي ...

على العموم فإن الولايات المتحدة مزدوجة دائماً فهي الدولة الوحيدة المعارضة بقوة للمحكمة الجنائية الدولية المختصة بمحاربة مجرمي الحرب بينما تعمل على محاكمة مجرمي الحرب بوسائل أخرى ليست شرعية ، وهي لا تقبل أيضاً الديمقراطية عندما تتعارض مع مصالحها ، فهي لم تقبل نتائج الديمقراطية في تشيلي وحاربت سلفادورا للندى وأطاحت به رغم أنه منتخب ديمقراطياً ولم تقبل نتائج انتخابات النمسا التى أفرزت حزب الحرية وزعيمه " هايدر " وأسقطت " مرة قاوقجي " النائبة التركية

لأنها محجبة ، إن مسلك الغرب غريب حقاً فهو يعترض على الحجاب لأنه رمز إسلامي كما يراه وفي فرنسا طردت مئات الطالبات بسبب التحجب ، ولم ينفع في ذلك القول بأنه حرية شخصية ، أي باستطاعة المرء أن يمشي عارياً في شوارع الغرب محتجاً بحريته الشخصية لكن المرأة لا تستطيع أن تتحجب كتعبير عن حرية اختيارها . وعودة إلى اتفاقية التجارة الحرة فإن الولايات المتحدة ستتمسك بهذه الاتفاقية مادامت تخدم مصالحها وستتنكر لها عندما تتعارض معها ، وهناك اليوم صراع أوربي أمريكي حول سياسات الدعم الزراعي رغم أن نصوص " القات " قادرة على حسمه إذا تم الابتعاد عن سياسة المعايير المزدوجة .

د .أحمد الأطرش:

حسب وجهة نظري أن اللقاءات مع الأكاديميين عبر الفضائيات العربية وغير العربية يخدم عدة مصالح للدولة فهو وسيلة ترشيدية وتنويرية لسياسة الدولة لكونه -في الغالب - كلاماً غير مسئول. فإذا لقى استحساناً ويشكل مصلحة وطنية يمكن للدولة أن تتبناه بصفة رسمية، وإذا ما حصل استياء منه أو نتجت عنه إحراجات من نوع خاص يقال في العادة هذا كلام أناس مثقفين ويندرج تحت حرية التعبير، وبالتالي يسهل للدولة التنصل من المسؤولية .

د. إبراهيم أبو خزام:

نعم .. يوجد كاتب مشهور ، أمريكي يبدو أنه من أصل إيطالي ، اسمه " أموري د . رينكور "كتب منذ الستينيات كتاباً أسماه " القياصرة القانون "به تحليل تاريخي جميل تذهب خلاصته إلى أن الديمقراطية اليونانية ، وهي ديمقراطية مباشرة أنتجت النظام الإمبراطوري الروماني ، يبدو أن الديمقراطية الليبرالية الأوروبية ستنتج النظام الإمبراطوري الجديد في أمريكا ، فهو يتنبأ بظهور نظام قيصري في أمريكا شبيه بالنظام القيصري الروماني وأعتقد أننا لسنا بعيدين عن ذلك اليوم.

المجتمع الدولي مازال مجتمعاً متخلفاً من الناحية البنيوية ، فهو ليس مثل المجتمع الوطني يجتمع على غاية واحدة ، المجتمع الوطني تحركه روح واحدة نتيجة للتعايش الطويل الذي يوحد النوازع ، أما على المستوى العالمي فللأسف لا توجد

هذه الروح الجماعية ، فالقانون الدولي حديث النشأة عند المقارنة بالقانون الوطني وكذلك فإن التنظيم الدولي هو ابن القرن العشرين ، فالمجتمع الدولي مازال بدائياً ، ولذلك تظل القوة هي العنصر الحاسم ، وكان كيسنجر كثيراً ما يردد " إن الأحداث الهامة في التاريخ صنعتها هذه ، مشيراً إلى قبضته ".

أ.موسى الأشخم:

نحن شاكرون جداً ، والحقيقة نحن استفدنا حتى على المستوى الشخصي من هذا الحوار وبالتأكيد القراء سيستفيدون في تقديري من إسهاماتكم جميعاً أكرر شكري لكم.

د. إبراهيم أبو خزام:

نحن بدورنا نشكرك ، أود أن أوضح أن هذا تقليد جميل ، أن تكون هناك ندوة ، وأتمنى أن تكون في كل عدد من أعداد المجلة ، وأنتم بهذه الندوة وفرتم لنا منبراً ، ومن المؤسف أن المثقف الليبي يعوزه المنبر للتعبير عن رؤاه وأفكاره ، وكما تعرف في تقاليد بعض الدول العربية العريقة مثل مصر تقاليد مشابهة ، فمجلة السياسة الدولية ، تدعو في المناسبات المهمة والأحداث الكبرى ، تدعو أبرز المثقفين والمفكرين إلى موائد مستديرة وتنشر نتائج تفكيرهم وهذا مفيد جداً ، وأنا أحلم بمثل هذا التقليد في الجماهيرية.

الإعلام دائماً مهم ، من حيث هو بالون اختبار ، وما يجرى فيه ليس مجرد دردشة مثقفين ، فهو لامتحان السياسات واستكشاف الآفاق ولمساعدة مؤسسات الدولة ،هذا مهم جداً ، فالحديث في منابر الإعلام ليس عبثياً ، بل يحاول أن يساهم ليس فقط في تنوير الرأي العام ، بل مساعدة صانع القرار نفسه ، وأنت تعرف أن الولايات المتحدة وبكل مؤسساتها السياسية تعتمد على جهود المثقفين وتبنى قراراتها -ولو جزئياً على إسهاماتهم - ومؤسسات الدولة تكلف المفكرين والمثقفين لإدارة الحوارات وتحاول أن تستفيد منها في بناء سياساتها وتبريرها أيضاً ، وهناك مؤسسات ثقافية تقوم بدور سياسي كبير مثل معهد واشنطن ومعهد بروكينجز ومجلس العلاقات الخارجية فهي تساهم في صنع السياسات ...

إننا على أية حال نشكركم على هذه الفرصة .

دراسات

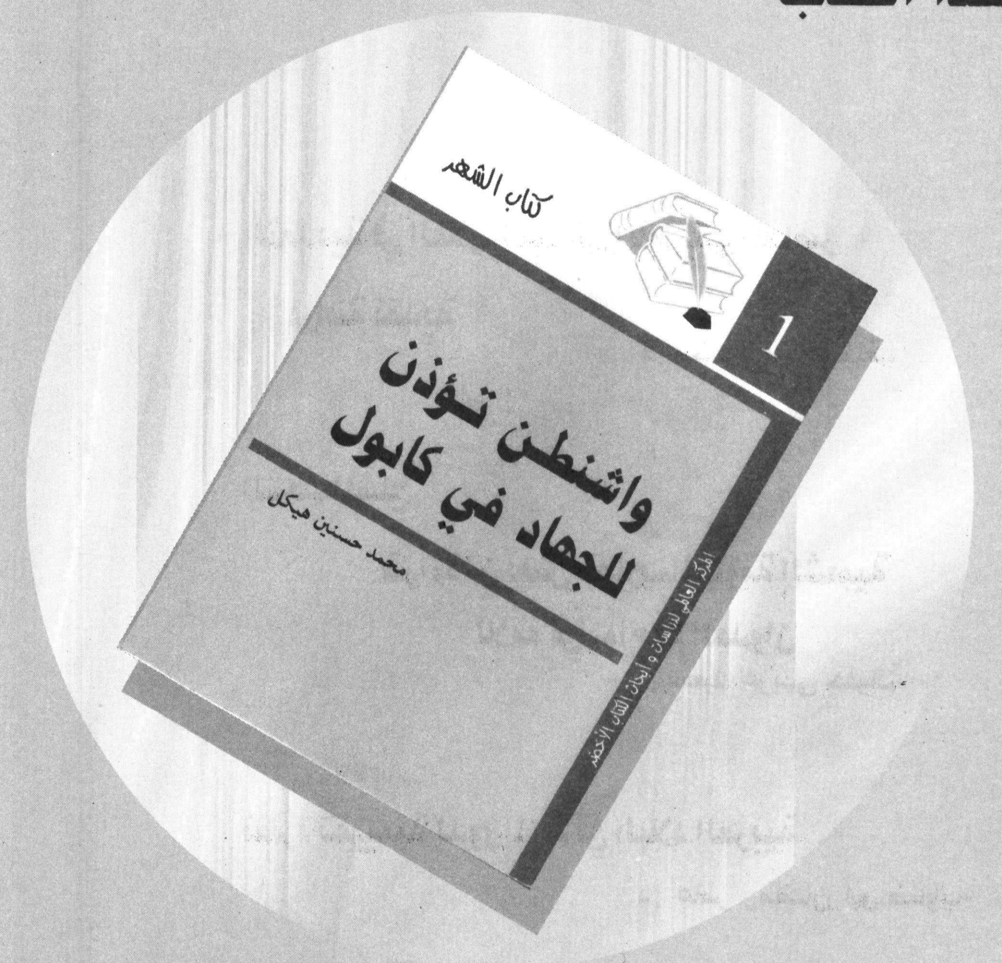
التعددية في الفكر السياسي الأمريكي المعاصر
دراسة نقدية
د. محمود محمد خلف

الشعب المسلح
قراءة من بعض تجارب المقاومة الشعبية للأمة في مواجهة العدوان
أ. سعيد عريبي حفيانة

نظرة تقييمية لدور المرأة في البلاد العربية
د. عامر رمضان أبو ضاوية

من إصدارات المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

هذا الكتاب



كتاب (طالبان) الإسلام والنفط والصراع الكبير في وسط آسيا.
كتاب" الحروب غير المقدسة (أفغانستان . أمريكا والإرهاب الدولي).
كتاب" غسيل الواقع.
ثلاثة كتب رصدت أحداث وحقائق ما جرى في أفغانستان على جبالها وكهوفها متقصية بالبحث في دخائل الأمور وخفاياها ضمن لعبة السياسة الدولية.
هذه المصادر الثلاثة هي جهد دؤوب موثوق في معلوميته ومصداقيته تقنع الباحث عن الحقيقة بأنه قد وجد جواباً لسؤاله لذلك اختارها المؤلف طلباً لأقصى قدر من الموضوعية.

التعددية في الفكر السياسي الأمريكي المعاصر (دراسة نقلية)

د. محمود محمد خلف
أستاذ العلوم السياسية المشارك
جامعة الفاتح / طرابلس

استهلال:
هذه الدراسة تتناول بالتحليل المساهمات الفكرية الحديثة في الفكر التعددي الأمريكي المعاصر، وتناقش أهم الافتراضات الأساسية التي تركزت عليها دعائم الفكر التعددي .

التعددية تم تحليلها وقد فهمت على أنها الشكل السياسي لليبرالية الأمريكية المعاصرة، وقد نظرت إلى المجتمع السياسي على أنه مكون أساساً من جماعات كثيرة ومتنوعة ذات مصالح متنافسة ومتصارعة ، وتتفاعل جميعها داخل العمليات السياسية . كما تطرح هذه الدراسة المشكلات الرئيسة التي واجهها الفكر التعددي الأمريكي وتناقش الحلول التي طرحها لها رواده من المفكرين والمنظرين التعدديين الأمريكيين ، وتتعرض الدراسة بالنقد إلى الأسس التي قامت عليها التعددية ومثالبها في إطار الحياة السياسية الواقعية داخل الولايات المتحدة الأمريكية ومع ذلك ، فإن التعددية تظل في نظر علماء السياسة وبصفة خاصة علماء النظرية السياسية المعاصرين الأكثر ملاءمة في تحليل المجتمع الأمريكي وفي السياسة الأمريكية الداخلية .

ولقد قسمنا الدراسة إلى مجموعة أجزاء تناولنا في البداية تحديداً لمفهوم التعددية ثم تطور الفكر التعددي

* قدمت هذه الدراسة إلى المؤتمر الرابع حول فكر معمر القذافي طرابلس ، نوفمبر 1998

الأمريكي، والمشـــــكلات التي واجهتها التعددية والكيفية التي واجهتها بـــــها ، والانتقـــادات الموجهة إلى الفكر التعددي الأمريكي المعاصر ، ثم تقـــــييم لمدى مســاهمته في بـــناء النظرية السياســـية المعاصرة وبــــــصفة خاصة النظرية الديمقراطية .

وهكــــــــذا فإن هذه الدراسة تشتمل على ما يلي :

1) **تحديد مفهوم التعددية .**

2) **تطور الفكر التعددي :**

أولاً - البـدايات الأولى للفكر التعددي الأمريكي : أليكس دي توكفيل .

ثانياً - التعددية ومدخل تحــــليل الجماعات : بينتلي وترومان .

ثالثاً - الفكر التعددي عند روبــــيرت دال .

3) **المشـــــكلات التي تواجهها التعددية الأمريكية :**

أولاً - المضمون : المصالح العامة في مواجهة المصالح الخاصة .

ثانياً - البُنيات : المركزية في مواجهة اللامركزية .

4) **الانتقادات الموجهة إلى الفكر التعددي الأمريكي :**

أولاً - إشكالية التركيز على الجماعات .

ثانياً - البرجماتية والتعددية .

ثالثاً - الجماعات ومشكلة الحرية .

رابعاً - التعددية ومشكلة عدم المساواة .

خامسـاً - تقييم مسـاهمة الفكر التعددي في بـــناء النظرية السياســـية المعاصرة .

1) تحديد مفهوم التعددية :

التعددية ، في أوســـع معانيها ، مفهوم ليبرالي واسع الاستعمال بدأ يرتبط بالحـياة السياسية الأمريكية منذ مطلع العشـرينيات من القرن العشـرين مع تطور أطر ونماذج التحـليل في الأوساط الأكاديمية ، والتي تمثلت بشكل رئيســي في مدرسـة تحـليل الجماعات Group Analysis ، ثم مع الســـــتينيات في مدرســـــة التعددية Pluralism[1] .

واليوم يمكننـا أن ننظـر إلــى التعدديــة علـى أنهـا جـزء لا يتجـزأ مـن النظريــة السياسية الليبرالية في شكلها المعاصر في الولايات المتحـــدة وكذلك في أوروبـــا ومناطـق أخـرى مـن العالـم ، والتعدديـة الأمريكية هي النمط السائد والأكثر شيوعاً في العالم الغربـــي بـــالنظر إلى العملية

السياسية والصراع السياسي الذي يُحل في إطار نوع من عمليات المساومة والوفاق السلمي بين الجماعات المتنوعة التي يتركب منها المجتمع السياسي .

ويميز علماء السياسة بين أنواع متعددة من التعددية في معناها الواسع ؛ فيفرقون بين التعددية الفلسفية، والتعددية الأخلاقية، والتعددية الثقافية ، والتعددية السياسية ... إلخ . وينصب اهتمامنا في هذه الدراسة على التعددية السياسية . والمقصود بالتعددية السياسية ذلك التيار الفكري الذي سيطر على الولايات المتحدة على مستوى النظرية الممارسة في الحياة السياسية ، والذي ينظر إلى السياسة وإلى العملية الديمقراطية على أنهما يعبران عن تنافس وصراع جماعات طبيعية تكون المجتمع السياسي ككل ، وأن هذه الجماعات هي العنصر الأساسي في تكوين التعددية السياسية ، وأن النظام السياسي التعددي الأمثل هو ذلك الذي يسمح لأكبر عدد من الجماعات بالتعبير عن مصالحها ومطالبها بدون كوابح وبشكل تفاوضي وسلمي . والتعددية تتميز بالتنوع ، بمعنى أن التعدديين الذين ساهموا في التنظير للتعددية تباينوا في آرائهم واختلفوا أحياناً ، بل نستطيع القول بالنظر إلى الفكر التعددي في أمريكا وأوروبا بأن هناك تعدديات متنوعة ، مثل التعددية الإنجليزية والتعددية الأمريكية ... إلخ .

وتركز التعددية الأمريكية بشكل خاص على تحليل جماعات الضغط Pressure Groups واللوبيهات Lobbies ، وعلى سلوك هذه الجماعات . وجماعات الضغط هي جماعات منظمة تستهدف الضغط على السلطة السياسية بقصد التأثير عليها في عملية صنع القرارات السياسية ، ومن أمثلتها النقابات العمالية ، ومنظمات الشباب ، والهيئات والمنظمات الدينية ، والاتحادات التجارية ... إلخ ، وأما اللوبيهات فهي جماعات الضغط السياسي المميزة للنظام الأمريكي ، وتشير الكلمة "لوبي" ، في الحياة السياسية الأمريكية ، إلى المنظمات غير الرسمية التي تحترف التأثير على أعضاء الكونجرس والتي كثيراً ما تضم أعضاء كونجرس سابقين وقيادات نسائية قوية ... إلخ ، من خلال وسائل شتى دون أن يشغلها كثيراً شرعية الهدف أو وسائل التأثير ، غير أنها لا تمثل جماعات ضغط ، بل هي مجرد هيئات تعمل مسخرة لحساب

جماعات الضغط والمصالح بقصد التأثير على أعضاء الكونجرس من أجل دعم مواقف وقرارات معينة في عملية التشريع لمصلحة تلك الجماعات ، وكثيرون ينظرون إلى ظاهرة اللوبي على أنها ظاهرة مهددة للديمقراطية الأمريكية إذا لم يقيد نشاطها إلى مدى كبير .

وحتى نتمكن من التحديد الدقيق لفمهوم التعددية الأمريكية وخصائصها المميزة سوف نتتبع تطور الفكر التعددي .

2) تطور الفكر التعددي الأمريكي

في حقيقة الأمر لقد طور السوسيولوجيون اهتماماً بالأمبيريقية في سلوك الجماعة في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ومن أمثلة ذلك إيميل دوركايم وكتابه حول تقسيم العمل في المجتمع Division of Labor in Society ، وكذلك ماكس فيبير في كتابه نظرية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي Theory of Social and Economic Organization ، وأيضاً باريتو وكتابه العقل والمجتمع Mind and Society ، جميعاً اهتموا بدراسة الاختبارية الاجتماعية العلمية لدراسة البيئة والسلوك الجماعي . وفي الولايات المتحدة الأمريكية . أصبح هذا بؤرة التركيز في التحليل عند علماء السياسة بداية مبكرة مع 1900 وصولاً إلى ذروتها في الخمسينيات من هذا القرن مع ديفيد ترومان وآرثر بنتلي . وكلاهما اهتمّ بتوجيه الاهتمام بعيداً عن الدراسات الدستورية والقانونية إلى سلوك الجماعات . الساحة السياسية ، في نظرهما ، تتكون من جماعات مختلفة تعبر عن مصالحها وتضع أو تمارس ضغوطاً على الحكومة . حتى التمييز بين الحكومات وضع أساساً على طريقة التعبير عن المصالح . كل الجماعات لوحظ أنها تهتم بالإضراب ونوع من مساومة الحكومة لا تسعى لتحقيق المصلحة الوطنية المجردة ، فالمصلحة الوطنية المجردة ، بالمعنى الضيق ، تحضير بين المصالح في مجال السياسة العامة . بالتالي ، هي الناتج الكلي لضغوط الجماعات . الهيئة التشريعية تتحكم بين صراع الجماعات والتي تصدق على انتصارات التحالف الناجح . السياسة العامة هي إذاً التوازن الذي يتحقق في هذا الصراع في لحظة معينة . الخاسرون اليوم يفترض أنهم سيفوزون غداً [3] .

أولاً- البـــــدايات الأولى للفكر التعددي الأمريكي : أليكس دي توكيفل

أكد أليكس دي توكيفل علـى أهميـة الديمقراطية لمجتمع تكون فيه السلطة والوظائف الاجتماعية لا مركزيـة ، وفي الحقيقــة فإن التعددية الأمريكية المعاصرة تجد جذورها الأصلية في فكر توكيفل ، حـيث أكد على تعددية المجتمع الذي تتنوع فيه السلطة بين عدد كبير من الاتحادات ، والمنظمات والجماعات المستقلة نسبياً . كما أكد على الدور الحـيوي الذي تلعبـه الصحف المستقلة نسبياً (الفصل 11 من كتاب الديمقـــراطية في أمريكا ، الجزء الأول) ، والمحـــامون كمهنة مستقلة (الفصل 16) ، والاتحـادات السياســـية (الفصل 12) ، وكذلك الجمعيات في الحياة المدنية ، وليست الخاصة بالشـــــركات التجارية والصناعية فحسب ، بل واتحادات من ألف نوع آخر - دينية ، أخلاقية ، جادة أو غير جادة ، واسـعة أو محـدودة ، ضخمة أو صغيرة [4].

وواضح من قـراءة الديمقـراطية في أمريكا أن توكيفل كان واحـــداً من الأوائل الذين أكدوا على وجود علاقـة وثيقـة بـين المؤسسـات الديمقـراطية ومجتمع تعدد الأحـــزاب ونظام معين للحكم . ورغم التغييرات الجوهرية في أشــــكال معينة في أنماط كل الدول الديمقراطية الحديثة ، فإن السلطة لا مركزية موزعة بـوجه عام بـــين مجموعــة متنوعــة مــن المنظمــات السياسية ، والمهنية ، والاقـتصادية ، والاجتماعية ، والثقــافية ، والدينية . ومــن الواضــح أن وجـود منظمـــات مستقلة نسبياً غير كاف للديمقراطية ، ولكنها في تصور التعدديين ضرورية بكل تأكيد للديمقراطية والحرية على نطاق قومي [5] .

فإنشاء كنيسة مستقلة نسبياً ، وحركة نقابات عمالية ، ومنظمة للمزارعين ، واتحادات للمثقفين ، لم يكن كافياً لجعل دولة مثل بولندا ديمقراطية ، ولكن في اعتقــاد التعدديين أن هذه المنظمات المستقـــلة كانت ضرورية تماماً لأية حرية ديمقراطية تمتع بها البولنديون قبل استيلاء العسكريين على السلطة .

وفي إطار مســاهمة توكيفل في الفكر التعددي ، من الممكن أن نضيف أنه

كان قد لفت الأنظار إلى أهمية اللامركزية الدستورية في الولايات المتحدة، والفصل بين السلطات إلى ثلاثة مراكز مستقلة نسبياً، والتقسيم الإقليمي للسلطة بين حكومات الاتحادات وحكومات الولايات، وإلغاء المركزية في الولايات بعد ذلك إلى وحدات محلية، ولا مركزية العملية القضائية من خلال نظام أنجلو أمريكي للمحاكمة بواسطة محلفين، وهو نظام كان توكيفل متأثراً به بقوة. وكان قد علق بحق بأنه لا حاجة إلى أن تحاكي الدول الديمقراطية الأخرى خصائص النظام الدستوري الأمريكي. غير أنه مهما كانت النظرية الدستورية الرسمية لأية دولة، فإن السلطة القضائية في كل دولة ديمقراطية ليبرالية تعتبر مستقلة نسبياً عن السلطتين التنفيذية والتشريعية، ويحتفظ البرلمان بقدر طفيف من الاستقلال على الأقل عن السلطة التنفيذية، وإن كان استقلالا ضئيلاً في بعض الدول أحياناً، وتميل كل المنظمات الإدارية إلى أن تكون مستقلة نسبياً بعضها عن بعض، وعن السلطة التنفيذية والبرلمان، بينما يحتفظ ببعض المهام للحكومات المحلية. وفيما يتعلق بهذه الأخيرة فقد حدث ما كان دي توكيفل يخشى وقوعه تماماً: إذ إن الجمهوريات الثالثة والرابعة والخامسة في فرنسا احتفظت كلها بالنظام النابليوني الخانق الخاص بالمقاطعات مع سيطرتها المركزية المحكمة على التقسيمات الإدارية[6].

ومن الواضح أن توكيفل كان ينظر إلى التعددية كأحد الشروط التي يتطلبها النظام الديمقراطي، فقد اشترط توكيفل بالإضافة إلى التعددية (التنظيمية)، انتشاراً عاماً للرفاهية الاقتصادية، أو "الرخاء المادي"، واللامركزية الدستورية، وأخيراً سلوك الشعب الذي ينبغي أن يكون متمشياً مع تقاليد وقيم وأخلاق تدعم الديمقراطية.

ثانياً - التعددية ومدخل تحليل الجماعات

في سنة 1908 طبع آرثر بينتلي Arthur Benetly كتابه عملية الحكومة Process of Goverment وطبع ديفيد ترومان في فترة قريبة

لاحقة كتابه حول العملية الحكومية Governmental Proess مركزين على أن دراسة السياسة والحياة السياسية تتمثل جوهريا في دراسة وفهم وتحليل سلوك الجماعات (Groups) التي يتكون منها المجتمع السياسي ، أي مجموعة ذلك المجتمع من الأفراد الذين يتفاعلون في سعيهم إلى تحقيق الأهداف السياسية المشتركة أي أن التركيز على ذلك التجمع أو الجماعة وليس على الأفراد . ورأوا أن الجماعات هي التي تشكل العمليات السياسية وتؤثر فيها تأثيرا بالغا . واعتقد بنتلي أن الجماعات هي العنصر الوحيد الهام في الحياة السياسية وأنه " عندما تذكر الجماعات فإن كل شيء يذكر على نحو سليم ، وعندما أقول كل شيء فإني أعني به كل شيء . بينما نجد أن ترومان قد اعترف إلى حد ما باستقلالية الأفراد ، مع أنه اختار التركيز على تحليل الجماعة كوحدة أساسية في تحليل العملية السياسية . واعتقد منظرو مدخل الجماعات أن الأفراد يتجمعون معا من أجل تحسين فرصهم للحصول على الغايات والسلع العامة . إن الخلاصة الجوهرية المتعلقة بهذا الدافع إلى التجميع أو الترابط هي أن الأفراد كانوا حقا ودائما قادرين على تحقيق غاياتهم من خلال عضويتهم في جماعات ونشاط الجماعات . هذا ، وفوق كل شيء ، السبب الرئيسي في استمرار الأفراد في الانضمام إلى جماعات " [8].

وقد أوضح أولسن Olson في دراسته الشهيرة ، منطق العمل الجماعي ، نقدا للاتجاه التقليدي في تحليل الجماعات . وقد طرح بأن الأعضاء العقلانيين ذوي المصلحة الشخصية في تحليل الجماعات الواسعة لا يعملون من أجل الصالح العام ، وكنتيجة لذلك فإن الجماعات غالبا ما تخفق في تحقيق غاياتها [9]. ولكن يتمسك الكثيرون من المحللين السياسيين بمنهج تحليل الجماعات لأن الاستنتاجات التي توصل إليها أولسن لا تنطبق على كل أنواع الجماعات مثل الجماعات الصغيرة ، كما أن أولسن في نظرهم يتناسى أن منطق تحليل الجماعات مبني على أساس تحليل أنماط التفاعل

بين الجماعات والأفراد في مواجهة الجماعة نفسها . كما أن الأفراد دائماً يتصرفون في التفاعل مع الجماعة بطريقة تراعي قيم الجماعة وإلا فإنهم لن يستطيعون الاستمرار في عضويتهم ، كما يتناسى دور القيادة الفردية في تقليص فرص بقية الأفراد في استغلال الجماعة ، ولو أمعنا النظر إلى الكتابات المبكرة في تحليل الجماعات نجد أنها ذات صلة ضعيفة بمضمون التعددية كما تطورت فيما بعد . وكانت الجماعات ينظر إليها كعنصر أساسي في تحليل السياسة ، ولكن لم يتطرق منظرو تحليل الجماعات إلى أن الجماعات ضرورية في تجميعها لتحقق الديمقراطية التعددية ، وهذا ما أوضحه على نحو مستفيض منظرو التعددية في مطلع الستينيات وعلى رأسهم روبيرت دال .

ثالثاً - الفكر التعددي عند روبيرت دال:

في نهاية السبعينيات من هذا القرن ، أعاد روبيرت دال صياغة الافتراضات الأساسية للتعددية [11] . لقد اعتقد دال أن صراع الأفراد والجماعات من أجل الحصول على الاستقلالية autonomy في علاقاتهم في مواجهة سيطرة الآخرين ، مثله مثل الجهود التي تبذل من أجل الحصول على السيطرة على الآخرين ، هو اتجاه جوهري في الحياة السياسية . فالصراعات من أجل تحقيق الاستقلالية تنتج عنه صراعات وانقسامات عندما تكون هذا الصراعات موفقة ، كما هي غالباً ، فهي تشكل توجهات نحو التعددية لأن الصراعات والانقسامات ، في تصوره ، لو أخمدت مثلاً عن الطريق إخماد الاستقلالية أو منع التعبيرات الجماهيرية عن الصراع والانقسامات ، فإن نظاماً للهيمنة يستطيع أن يحول دون نمو نظام سياسي واجتماعي تعددي ، في اعتقاده ، كلما قلت الموانع والحدود للمعارضة المنظمة كان الاتجاه نحو الاستقلالية والتعددية ظاهراً في الحياة السياسية والاجتماعية .

وفي النظم التعددية ، التي يطلق عليها دال اصطلاح Polarchies ، والتي بحكم معناها تتضمن أدنى مستوى

لتلك الموانع والحدود ، فإن استقلالية النظم الفرعية التابعة والتعددية المؤسساتية تكون دائماً إحدى الخصائص المميزة للنظام السياسي والاجتماعي .

ويقسم دال التعددية إلى نوعين :

أولاً ، التعددية التنافسية Conflictive Pluralism وتشير إلى ذلك العدد من الصراعات والانقسامات ونماذج الانقسامات الثابتة نسبياً التي تؤخذ في الحسبان عند تحديد خصائص الصراع بين مجموعة من الأفراد ويستبعد دال من هذا النموذج النظام الثنائي الضيق . أما النوع الثاني فهو التعددية المؤسساتية Organisational Pluralism التي تشير إلى عدد واستقلالية التنظيمات التي تؤخذ في الحسبان عند تحديد خصائص الصراع بين مجموعة الأفراد ، ويذهب دال إلى أنه كلما تعاظم عدد ودرجة استقلالية التنظيمات التي تسمح بمقدار مهم من الاستقلالية للوحدات الفرعية في نظامها أطلق عليها غالبا نظما تعددية ، ويذهب دال إلى تفسير درجة التعددية المؤسساتية (التنظيمية) في داخل النظام السياسي ، وفي إطار الدولة الواحدة ، باستخدام المؤشرات التالية :

1- مقدار التعددية التنافسية .
2- طبيعة النظام الاجتماعي- الاقتصادي .
3- طبيعة النظام السياسي .
4- التركيب الموجود للمؤسسات السياسية .

وفيما يخص العلاقة بين التعددية وطبيعة النظام الاقتصادي لا يرى دال أن النظام الرأسمالي أو النظام الاشتراكي ضرورة لبناء التعددية ، حيث كتب : " إن مستوى التعددية في أي دولة لا يتوقف على ما إذا كان النظام الاقتصادي رأسمالياً ، بمعنى أن المشروعات فيه تكون مملوكة ملكية خاصة ، أو ما إذا كانت مملوكة للمجتمع عامة . وهي ، أي التعددية ، لا تعتمد على درجة اللامركزية في اتخاذ القرارات ، أي بمعنى ، ذلك المقدار من الاستقلالية المسموح به للمشروعات . وإن درجة الاستقلالية التي تتمتع بها المشروعات تبدو نظرياً مستقلة عن أنماط الملكية وبالتالي عن الرأسمالية والاشتراكية . إن نظاماً

رأسمالياً يمكن ، ولكن لا يحتاج إلى أن يكون على درجة عالية من اللامركزية ، كما أن نظاماً اشتراكياً يمكن ، ولكن لا يحتاج إلى أن يكون على درجة عالية من المركزية [11].

وأما عن النظام السياسي التعددي فهو ، في نظر دال ، يشير إلى ذلك النظام الذي يكون فيه حق المشاركة موسعاً إلى حد كبير ، وتتوفر فيه ضمانات المؤسساتية لمعارضة تكون قوية بالمقارنة (بمعايير تاريخية) ، وتكون الحدود والموانع للمعارضة محدودة ، أما نظم الهيمنة أو السيطرة ، أو ما يطلق عليها Hegemonic Regimes فتكون فيها الضمانات المؤسساتية ضعيفةمع ضعف أو غياب المعارضة القوية [12].

ويضيف دال أن التعددية هي في العادة متلازمة ، كسبب وكنتيجة معاً مع تحول نظم الهيمنة ليبرالياً وديمقراطياً.

ونلاحظ أنه بالرغم من أن دال ينظر إلى التعددية كقوة ديناميكية فهي مع ذلك تميل إلى الحفاظ على عدم المساواة بين أفراد الجماعات ، يقول دال حول العلاقة بين التعددية والمساواة : " إن تجميع التنظيمات التعددية المحددة يستطيع خلق نظام مستقر يستخدم فيه حق الفيتو المتبادل (من قبل التنظيمات التعددية ضد التقليل من عدم المساواة ، وبشكل عام ضد التغيرات البنائية في الوضع القائم) "[13]، حيث إن كل جماعة منظمة داخل النظام السياسي ستسعى إلى الحفاظ على مصالحها الاقتصادية ، وبالتالي تحول دون اتخاذ أي قرار يؤدي إلى تحقيق المساواة.

ويرى دال أن المؤسساتية السياسية الموجودة في بلد ما ، وبالرغم من أنها جزئياً تتحدد بطبيعة النظام السياسي ودرجة التعددية التنافسية ، تستطيع أن تقوم بمساهمة مستقلة وبإضافة إلى عدد واستقلالية التعددية في ذلك البلد.

والنظم التعددية ، عند دال نظم تتعدد وتتنوع فيها المؤسسات السياسية (أحزاب ، نقابات ، جماعات ضغط ، جمعيات ، اتحادات ، صحافة ... إلخ).

ويحدد دال ثلاثة أنواع من الحالات أو النماذج التي يبدو أن لها تأثيرات على النظم التعددية ، هناك أولاً ، نظام تعدد

الأحزاب الذي يتصور أنه يزيد عدد ، إن لم يكن استقلالية الأحزاب السياسية ، ثانياً ، يقول دال: إنه في بعض النظم التعددية ، كما في سويسرا والولايات المتحدة ، تساعد القواعد الدستورية والممارسات السياسية نحو مشاركة متوسعة في سلطة الحكومة بواسطة أداتين هما الفدرالية وفصل السلطات وتكون النتيجة هي زيادة الاستقلالية وعدد التنظيمات السياسية الحكومية وغير الحكومية ، بينما في تعددات أخرى ، مثل نيوزيلندا وبريطانيا ، يلاحظ أن هناك درجة أقل من التقسيم الدستوري للسلطات ، من حيث التجزئة ، هو نظام أحادي وليس فيدرالياً مصحوباً بحكومة برلمانية ، وليس فصلاً محدداً للسلطات بين السلطة التنفيذية والتشريعية ، وبالتالي يتبع ذلك حكومة ذات سلطة أكثر تركيزاً ، وينتج عن ذلك درجة أقل من التعددية بين التنظيمات الحكومية والأخرى غير الحكومية . وثالثاً ، وأخيراً ، فإن عدد التنظيمات التعددية واستقلالها النسبي يزداد مع وجود " الديمقراطية الدستورية "بمؤسساتها ونماذج الممارسة السياسية التي تتيحها ، كما هو الحال في هولندا ، أو كما في الديمقراطية التعاونية في السويد والنرويج .

وفي حقيقة الأمر ، إذا أردنا أن نلخص أفكار دال حول التعددية أو النظام التعددي فإننا نستطيع أن نحدد خصائص ذلك النظام فيما يلي :

1- وجود مجموعة قوى سياسية في شكل جماعات وتنظيمات سياسية مؤثرة ، وليس بالضرورة مجرد تعددية في النظام الحزبي ، أي أن التعددية ليست مجرد وجود أحزاب سياسية .

2- أن يكون لمكونات أو عناصر التعددية (التنظيمات) قدرة على أن تكون لها ، كما يقول دال " صوت مسموع "لدى الحكومة على قدم المساواة مع التنظيمات الأخرى ، أي أن يكون لكل مجموعة طريقة للوصول Acess إلى صانعي القرار السياسي .

3- أن هذه القوى السياسية المتصارعة (التعددية) تتقاسم السلطة السياسية دورياً من خلال

العملية الانتخابية . وعندما تنتهي فترة حكم مجموعة تقبل تسليم السلطة سلمياً إلى المجموعة التي تليها ، وهكذا .

أن التعددية هي جزء أساسي من النظام الديمقراطي في نظر دال ، وليست كل النظام الديمقراطي ، فالنظام الديمقراطي يتطلب إلى جانب عنصر التعددية متطلبات أخرى كثيرة مثل وجود القيم الديمقراطية ، ودستور ، وصحافة حرة ، وفصل للسلطات ... إلخ .

4- أن التعددية تكون منظمة من خلال اعتراف الجماعات والقوى السياسية بعضها ببعض ، وقبول كل طرف منها للطرف الآخر كعضو فعال في العملية الديمقراطية [14] .

وبالرغم من تحديده للخصائص المميزة للنظام السياسي والاجتماعي التعددي يرى دال أنه إذا كانت درجة معينة من التعددية شرطاً ضرورياً كخاصية جوهرية ونتيجة للنظام الديمقراطي ، فإن التعددية تخلق مشاكل معينة لم يتم إلى الآن إيجاد حلول مرضية لها في إطار الفكر الأمريكي المعاصر .

3) المشكلات التي تواجهها التعددية في أمريكا :

يحدد المنظرون الأمريكيون المعاصرون نوعين من المشكلات التي تواجهها التعددية ، يتعلق النوع الأول بمضمون التعددية ويتعلق النوع الثاني ببنيات التعددية .

أولاً - المضمون : المصالح العامة في مواجهة المصالح الخاصة :

لقد تناول الليبراليون التقليديون والمحدثون هذه الإشكالية [15] . وخلاصة الجدل القديم أنه من الممكن التوفيق بين هذين النوعين من المصالح . ويتجه الفكر الليبرالي الأمريكي المعاصر إلى معالجة أو فحص موقع المصلحة الشخصية (self-intrest) في الحياة السياسية كمفترض من خلال النظر إلى الحياة السياسية على أنها تشتمل الحياة والقيم الأخلاقية . هذه الفكرة تصور كل مواطن على أنه فرد يحمل آمالاً ورغبات متميزة ، والذي هو في

الوقت نفسه مرتبط مع آخرين - يشكل جزءاً منهم ويشارك بشكل مستمر في تشكيل الحياة السياسية والاجتماعية المشتركة . كما أنها تنظر إلى الانقسام والخلاف السياسي ليس فقط على أنه مصالح متصارعة وإنما أيضاً كمطالب متنافسة حول ما الذي يربط "نحن" ، الأفراد المتميزين بأولئك الأفراد الآخرين المتميزين مثلنا من خلال الأدوار الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية ، التي تشكل في مجموعها مفهوم "المواطنة" العام . وماذا يجدر بنا عمله أو السعي نحوه تجاههم .

يعتقد هؤلاء المنظرون المعاصرون بأن البحوث التي كانت تتبنى ببساطة فكرة واسعة حول المنفعة (utility) أو المصلحة (interest) لتقبل بوجود تفضيلات أو اختيارات غير أنانية ، أو تلك البحوث التي استخدمت تصنيفات تضع فيها الدوافع المصلحية والدوافع غير المصلحية في موقع متعارض ، كلا هذين النوعين من البحوث لا يظهر أهمية ولا القيود أو المحددات للمصلحة الشخصية في السياسة [16] .

فالنظرة الأولى ترفض الرؤية الضيقة (والموضوعية) للمصلحة الشخصية ، بينما تحتفظ بالأساس بالاعتقاد بأن البشر يسعون إلى تحقيق أي شيء يكون في مصلحتهم . وتفهم الفاعلين السياسيين على أنهم أنانيون كخاصية عامة وليس على سبيل الحصر . بمعنى أنهم يتبعون مصالحهم ، ولكن هذه المصالح ليس بالضرورة أنانية . النظرة الثانية تتبنى نظرة ضيقة (وموضوعية) للمصلحة الشخصية على ، أنها تقدر الذات ، وتسعى إلى فهم أهميتها الاختبارية المتميزة في مواجهة أسس أخرى للرأي العام والخيارات السياسية . ومن خلال تأكيد ما تفسره على أنه مصلحة شخصية ، فإنها تترك مساحة للسياسات التي لا تدخل فيها المصالح الشخصية [17]، وعليه اتجه الليبراليون التعدديون الأمريكيون اليوم إلى اكتشاف كيف أن مصالح المواطنين يتم تدعيمها أو تحديها من خلال فهم بقية الأفراد "للخير" و "الحق" ، وهي القيم التي تسعى إليها الحياة السياسية في تصورهم .

وهذا هو فعلا ما يكون قد توصل إليه روبيرت دال وآخرون عندما اقترحوا أن التعددية تستطيع التغلب على إشكالية المصلحة الشخصية في مواجهة المصلحة العامة من خلال إدراك المواطنين ونظرتهم إلى وجود خير عام أو مصلحة عامة واسعة وقومية وجماعية ، وإذا استطاع هؤلاء المواطنون فهمها على نحو سليم ، فإنه سيكون بإمكانهم تحديد القرار السليم الذي ينبغي اتخاذه في حالة وجود مطالب خاصة ومتعارضة[18]، وبالتالي فإن القرار السليم يمكن أن يحدد أي مطلب من المطالب يستحق أن يُعطي أولوية ، أو هو الناتج الذي يتخطى كل المطالب الأخرى[19]، فإذا تعرف كل مواطن على " الصالح العام " ، وأعطاها أولوية ، فإنه من المفترض أن المؤسسات المستقلة لن يكون في مقدورها الاستمرار في رفض التغيرات التي تهدف إلى تحقيق الصالح العام " The Common Good " .

اعتقد دال أن أشكال عدم المساواة التي تظل أو تبقى تكون نتيجة القوة النسبية للمؤسسات والتنظيمات المختلفة أكثر من كونها نتاجا لمبدأ أوسع للعدالة أو الخير العام الذي يتبناه كل أفراد الدولة على نحو مقصود ، والذي أيضا تتبناه القوى المنظمة أو المؤسساتية المختلفة . في وجهة النظر هذه ، فإن قدرا كبيرا من الصراع ينشأ بسبب كون أشكال عدم الاتفاق -في الأساس - غير عقلانية . هذه الصراعات تظهر لأن الضمير الاجتماعي ، كما يقول دال ، لبعض أو كل الفعاليات السياسية هو ضمير مشوه . أشكال عدم العقلانية تحدث لأن بعض الجماعات ببساطة تسيء فهم طبيعة ، وأسباب ، ونتائج الأشياء موضوع النزاع ، أو أنهم يهملون مصالحهم الطويلة الأجل وذلك من أجل المصلحة الآنية أو القصيرة الأجل ، أو لأنهم بدون حكمة يضحون بمصالحهم التي تحملها مطالبهم العريضة التي تمثل كياناتهم كمجموعات من أجل مطالب فردية ذات طابع أناني تجسد الفردية ، أو العائلة ، أو المجموعة الضيقة ، أو جماعة محددة من المجتمع[20].

ويفترض التعدديون ، بناء على ما سبق ، أنه إذا تمكنت جميع أطراف الصراع دائماً من فهم مصالحهم الحقيقية أو الواقعية ، فإن كثيراً من الصراعات سوف تختفي ، أو على الأقل ، فإن الفهم الأفضل سيسهل عملية البحث عن ، واكتشاف حلول الصراع التي تعود بنفع على جميع الأطراف . وبالتالي ، تحتاج الجماعات والمؤسسات النظامية إلى الاتفاق حول مفهوم موحد للصالح العام يتفق عليه الجميع حتى يمكن للتعددية أن تؤدي وظيفتها في تسيير العملية السياسية سلمياً وعلى أسس عادلة .

ويتضح من العرض السابق أن الفكر التعددي لم يستطع أن يحل التناقض الأساسي بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة إلا بمحاولات العودة إلى الأخلاق والكوابح التي تعود إلى الضمير والتربية الأخلاقية . وفي الوقت نفسه نجد أن المجتمعات الليبرالية المعاصرة ، وبالذات المجتمع الأمريكي ، لا يزال في حاجة كبيرة إلى إعادة بناء فلسفة أخلاقية جديدة يكون لها تأثير على الأفراد والمؤسسات السائدة في المجتمع الأمريكي .

ثانياً- البُنيات المركزية في مواجهة اللامركزية :

يذهب التعدديون إلى النظر إلى الجماعات والمؤسسات والتنظيمات على أنها تمثل نظماً فرعية (subsystems) داخل نظام أوسع للهيمنة أو السيطرة ، وإذا مثلت المؤسسات نظماً فرعية في نظام أوسع للهيمنة أو السيطرة ، فبالتالي يكون النظام مميزاً بالميل نحو اللامركزية إلى المدى الذي تكون فيه النظم الفرعية مستقلة . ويوضح دال ذلك بقوله إنه من حيث التعريف ، تكون (أ) مستقلة في علاقتها بـ (ب) ، بالنظر إلى السلسلة من العمليات ، إلى الحد الذي لا تتحكم فيه (ب) في (أ) بالنظر إلى تلك العمليات . وبالأخذ بعين الاعتبار هذه السلسلة من الأعمال أو العمليات ، فإن ازدياد استقلالية (أ) في علاقتها بـ (ب) ، يؤدي إلى نقصان تحكم (ب) في (أ) .

وفي بعض الأحيان ، فإن أحد هذه النظم الفرعية يتحكم في بقية النظم ، ولكن ليس بالضرورة على نحو كلي . ويطلق دال على ذلك الفرع النظامي المهيمن من ذلك النوع " المركز " . وبالتالي ، فانطلاقاً من نقطة معينة ، الاتجاه نحو اللامركزية يعني زيادة مقدار الاستقلالية للنظم الفرعية في علاقتها بالمركز [21]، وفي أحيان أخرى ، يطرح التعدديون الأمريكيون أن التعددية المؤسساتية تقود إلى أشكال من عدم المساواة غير المقبولة ، وتحول دون تبني سياسات مصممة أصلاً لتقليص عدم المساواة ، ويطرحون أن الحل الممكن لذلك هو تقليص مقدار استقلالية المؤسسات وزيادة سلطة تحكم المركز . فيما يتعلق بالمؤسسات والتنظيمات الخاصة فإن المركز في العادة يتمثل في حكومة الدولة . وفيما يتعلق بالمؤسسات الحكومية ، فإن المركز يتمثل في العادة في المستويات البيروقراطية الحكومية . إن المدافعين عن هذا الحل يقترحون في أحسن الأحوال قدراً أعظم من مركزية السيطرة في الحكومة وتقليصاً متوازياً في مقدار استقلالية شركات مشروعات الأعمال والتنظيمات الأخرى . وفي داخل الحكومة ، فإنهم يقترحون مقداراً أعظم من مركزية السيطرة على رأس الحكومة وتقليصاً موازياً في استقلالية الأجهزة البيروقراطية للدولة ، على حين نجد أن البعض الآخر من التعدديين الذين يدافعون عن استراتيجية المركزية يقترحون إلغاء تعددية المؤسسات ذاتها ، على أساس أن تلك التعددية المؤسساتية في جوهرها ذات طابع انقسامي بإفراط ، وبالتالي فهم يقترحون بدلاً من ذلك تبني نظام شديد الهيمنة والمركزية ونظام اقتصادي موجه . ومن خلال ذلك فقط ، على نحو ما يطرحون ، يكون بالإمكان تقليص أشكال عدم المساواة السائد في المجتمع السياسي سواء تلك الأشكال من عدم المساواة في الفرص أو العوائد الناجمة عن تطور مجتمع صناعي أو ما بعد الصناعي .

وسواء كان الحل لمشكلة المركزية الهدف منه حفظ أو حتى تقوية النظم

التعددية ، أو كان الهدف تغيير التعددية إلى نظام للهيمنة ، فإنه يواجه صعوبة خطرة ، فعلى نحو ما رأينا ، فإن المركزية تعني أن استقلالية نظم فرعية معينة قد قلصت وزيدت سيطرة المركز . غير أن زيادة تحكم المركز تتطلب زيادة في الموارد السياسية للمركز بالقياس إلى موارد النظم الفرعية . فإذا كان المركز يمثل القيادة المركزية في حكومة الدولة ، كما هو مطروح ، فإن هذه الموارد السياسية سوف تشمل عادة زيادة في الاعتماد على وسائل الإكراه المتاحة للقادة بالمركز . وهذا معناه أنه كلما حرمت النظم الفرعية تحت ضغط الحاجة من درجة استقلاليتها من أجل إحداث إعادة توزيع ضرورية للثروة إذا كان قدراً أكبر من المساواة هدفاً ، فإنه يتوجب الالتجاء إلى قدر أكبر من الهيمنة، بما في ذلك الإكراه المتاح للقادة بالمركز . عند تلك النقطة ، لن يكون للنظم الفرعية أي استقلالية ولا موارد تسمح لها بمقاومة سيطرة قادة المركز .

إن قولنا أن نظماً فرعية أخرى لا تملك سوى مقدار ضئيل من الاستقلالية ومقدار ضئيل من التحكم في مواجهة المركز يعني تماماً قولنا بأن ذلك النظام السياسي مبني على درجة عالية من عدم المساواة السياسية . وبما أن درجات التحكم التبادلية من أطراف فرعية أخرى تكون ضعيفة أو معروفة ، فإن دوافع القادة بالمركز لتقليص أشكال عدم المساواة تتولد فقط بفعل ضميرهم أو بتأثير أيديولوجيتهم[22] ، أي ليس كنتيجة لنمط أو وظيفة النظام السياسي . وهكذا فإن استراتيجية تبني المركزية التي تبرز أولياً كوسيلة لتقليص أشكال عدم المساواة تعرض المجتمع السياسي لمخاطر أن النظام لا يكون فقط مؤسساً على درجة عالية من عدم المساواة السياسية ، ولكن أيضاً يكون عرضة لتسهيل نمو نخبة حاكمة متميزة اقتصادياً واجتماعياً .

وبالنظر إلى هذه الوضعية ، فإن التعدديين يطرحون اللامركزية كاستراتيجية بديلة ، مع دمقرطة نظم فرعية مستقلة نسبياً ، سواء كانت نظماً فرعية حكومية ، سياسية أو

اقتصادية موالية ، أو غيرها . حتى هذا النهج ، كما يعترف دال نفسه ، يحمل في طياته صعوبات، فباستثناء حالات تحت ظروف غير عادية إلى حد كبير، فإن موارد النظم السياسية الفرعية المختلفة تميل إلى أن تتباين. والاختلافات في الموارد ناجمة عن تنوع واختلاف في المهارات، والطاقات، والخصائص الثقافية، والتراكمات السابقة (لرأس المال) والاستثمارات، والندرة الاقتصادية، والأسواق، والموارد الطبيعية المتاحة، وعوامل أخرى كثيرة [23]. وبالتالي ، فإن كل نظام فرعي يمكن أن يكون ديمقراطياً بداخله ويمكن أن تكون مبادئ التوزيع والحصص الموزعة داخل كل نظام فرعي مقبولة على أنها عادلة تماماً من طرف كافة أعضاء كل مؤسسة ، ومع ذلك إذا لم يتوفر هناك ضبط مركزي على عمليات التوزيع والحصص ، فإن أشكال عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية ستنشأ بكل تأكيد بين أعضاء المؤسسات المختلفة [24]. إن الجهود التي تبذل لتقليص أشكال عدم المساواة بين نظم فرعية عالية الديمقراطية وبالتالي فيما بين أعضاء تلك النظم الفرعية يتطلب ، في نظر دال ، هيمنة مركزية على توزيع الحصص أو الأنصبة ، أي قيود من نوع ما على الاستقلالية النظامية . غير أن دال لا يحدد ذلك النوع من القيود التي ينبغي فرضها على النظم الفرعية في عملية التوزيع ، ولا مقدار أو درجة تلك القيود .

وحقيقة الأمر ، أن التعدديين في تحليلهم لآلية عمل التعددية يهملون بشكل واضح دور التشريع ، وهي المسألة التي أولاها الليبراليون الكلاسيكيون ، أهمية خاصة وعولوا عليها كثيراً في تحقيق القيم الليبرالية .

ففي اعتقادي ، أن التشريع بمفهومه الواسع يشكل آلية هامة لا تستطيع النظم التعددية الاستغناء عنها فهو على سبيل المثال يمكن أن يكون آلية هامة جداً في تقنية وضبط عمليات إعادة توزيع الدخل القومي كسياسة عامة ، كما يمكن أن يكون أداة تمارس قدراً هائلاً من الضبط على سلوك الجماعات داخل المجتمع السياسي ككل .

4- الانتقادات الموجهة إلى الفكر التعددي الأمريكي :

بالرغم من الحقيقة القائلة بأن التعددية الأمريكية American Pluralism تعتبر من المساهمات الكبرى في بناء وتطوير الحياة السياسية في النظام السياسي الأمريكي في وقتنا الحالي ، حيث لعبت التعددية السياسية داخل أمريكا دوراً هاماً في تمييز وتحديد خصائص المؤسسات السياسية والحياة السياسية الأمريكية لعقود طويلة من الزمن ، بالرغم من الاعتقاد السائد بأن التعددية قد أصبحت سمة أساسية وجزءاً لا يتجزأ من البنيان السياسي الديمقراطي في أمريكا ، إلا أن الفحص الدقيق للافتراضات الأساسية التي بنيت عليها التعددية ودراسة الفكر التعددي بتمعن يوضح لنا أن التعددية الأمريكية تعاني من مجموعة من المثالب والإشكاليات الخطرة .

وسنقوم في هذا الجزء بتوضيح أهم الانتقادات التي تعرض لها الفكر التعددي الأمريكي المعاصر .

أولاً - إشكالية التركيز على الجماعات:

أوضحنا أن التعددية تحلل المجتمع السياسي في ضوء الجماعات التي يتكون منها المجتمع السياسي ككل ، وأنها أعطت أهمية كبرى للجماعات سواء في البناء السياسي أو الحياة السياسية .

وتعتبر الجماعات هي الوحدة الأساسية في البناء الديمقراطي ، وأن الكيانات الاجتماعية الأولية هي جماعات لم تخلقها السلطة السياسية المركزية أو تعتمد عليها [25]. التعددية كما وصفها كاتب يدعى بأنها تتبع الخطوط الطبيعية للسلطة في النظام الاجتماعي ، وأن الارتباط الأولي لكل فرد ليس بالدولة وإنما بجماعات تكون اتحادات عمالية ، كنائس ، أو نوادي محلية ، كنتيجة لذلك رفضوا الضرورة المطلقة لنظام قانوني متحد أو لنظام سياسي[26].

وكما أوضح أندرو فينست فإن واحدة من المشاكل الأساسية هي في التعامل مع التعددية السياسية ، على مستوى كل من النظرية والممارسة ، وهل المعنى استعمل في كل من القيمي والوصفي ؟! ثانياً ، لا يوجد جسم موحد للنظرية التعددية . بهذا المعنى أو الاستعمال ، فإن التعددية الأمريكية تحركت في مجال نظرية جماعية

المصالح وجماعات الضغط ، واعتمدت على عناصر أمبيريقية ووصفية في التنظير لدور الجماعات . ولكن هل الجماعات هي المكون الأساسي الوحيد للمجتمع السياسي ؟ إن التعددية تهمل تحليل الطبقات ، والصفوات السياسية ، ودور الأفراد ذوي النفوذ الهائل على العملية السياسية ، المجتمع الأمريكي يمكن تحليله على أنه مجتمع طبقي كما توجد فيه صفوات سياسية تلعب أدواراً هامة في العملية السياسية . التحليل الطبقي من الممكن أن يعطي نتائج أفضل حول طبيعة النظام السياسي وطبيعة التعددية الأمريكية ، ومن الممكن أن يبين كيف أن عدم المساواة الاقتصادية بين الطبقات لن تساهم إلا في إخفاق الحياة التعددية [27].

وواضح أنه من الخطأ النظر إلى المجتمع الأمريكي على أنه مكون من جماعات ذات خصائص موحدة ، فالتعدديون يقولون إن الجماعات في أمريكا تميزت بما يلي :

1- القدرة العالية على التنظيم .

2- وضوح مصالحها وقدرتها على توضيح هذه المصالح .

3- الوصول إلى وسائل الإعلام .

4- الوصول إلى صاحب القرار (الحكومة) Access في أي وقت ممكن .

وحقيقة الأمر ، فإن هناك جماعات كثيرة جداً في الولايات المتحدة لا تزال تفتقر بوضوح إلى العناصر الأربعة المذكورة آنفاً . فكثير من الجماعات الدينية والجماعات التي تمثل بعض مصالح الأقليات والمهاجرين والمقيمين في أمريكا إقامة لم تكتمل إجراءاتها الروتينية ، كل هذه الجماعات تقريباً لا تستطيع أن تساهم في الدفاع عن مصالحها ولكنها ذات مطالب واضحة ولا تستطيع أن تحقق شيئاً من النظام التعددي .

بعض الجماعات ، كما نلاحظ ، تستطيع القيام بدور محدد لخدمة مصالحها على مستوى البلدية أو المدينة ، ولكنها تخفق في تحقيق مصالح نفس الجماعات الواسعة على مستوى الولاية أو الاتحاد الفدرالي .

بالإضافة إلى ذلك ، نجد أن هناك جماعات أخرى في المجتمع الأمريكي لا تستطيع الوصول إلى وسائل

الإعلام المؤثرة بسبب عدم توفر التمويل الكافي، حيث إن الإعلام الأمريكي مكلف بالنسبة لهذه الجماعات ، وعلى أفضل الاحوال قد تتمكن هذه الجماعات من التعبير عن مصالحها في جريدة محدودة الانتشار ، وبالتالي لن يكون لها أي "صوت مسموع" في العملية الديمقراطية .

ومما سبق نجد أن التعدديين الأمريكيين لا يميزون هذه الجماعات بعضها عن البعض الآخر ، ويتجاهلون الفوارق الكبيرة في الموارد المتاحة ، وطبيعة الجماعات ، قدرتها التنظيمية ، وأصولها الإثنية ، ... إلخ ، وهذه عوامل تجعل ادعاء التعددية مجرد ادعاء لا يدعمه الواقع السياسي .

ثانياً - البرجماتية والتعددية :

التعددية ارتبطت بالمدرسة البرجماتية Pragmatist School ، وشكلت البرجماتية بالتالي الخلفية الفلسفية للتعددية وأعطتها المبرر الأخلاقي والمعنوي . دعاة البرجماتية من أمثال وليام جيمس William James وجون ديوي John Dewey يذهبون إلى أن التعددية ليست مساوية للنسبية . البرجماتيون مهتمون بالأساس بتطبيق الأفكار . التشاور والتروي هو طريقة التصرف . الإنسان لا يقف ولا يتفرج ، الأفكار هي خططنا للأعمال . الأفراد نُظر إليهم على أنهم فواعل تشكلوا بالعقل . كما طرحت البرجماتية بأن المعرفة ليست جامدة ، كما أنه ليس هناك تأكيد نهائي ، كل المعتقدات مفتوحة للاختبار والنقد ، حتى الأفكار التي كانت صالحة . نستطيع القول بأننا نعيش ليس في عالم واحد ، ولكن في عوالم متعددة ، هذا هو الطرح الأساسي خلف كتاب وليام جيمس العالم التعددي The Pluralistic Universe ، مثل هذه الروح ليست بائسة ، إنها بالأحرى تتضمن عملية نقدية مستمرة للجماعة . الجماعة البرجماتية تغلف عملية البحث العقلاني ، بالنسبة لمنظرين تعدديين مثل جون ديوي ووليم جيمس ، فإن التعددية ذات توجه عملي ينظر إلى الأفكار بالتأملية الأحادية [28] .

ولقد رأينا أن الاتجاهات الحديثة في الفكر التعددي الأمريكي قد دعت إلى أن هناك حاجة ملحة إلى فلسفة جديدة تدعم التعددية، وتكون قادرة على إعادة ربط السياسة والعملية الديمقراطية بالأخلاق. أي أن هؤلاء التعدديين أصبحوا يشكون في جدوى وفعالية الفلسفة البرجماتية بالرغم من التأثير القوي الذي مارسته بصفة خاصة برجماتية جون ديوي على القلية الأمريكية. فقد نظر إلى هذه الفلسفة على أنها سطحية وأنها ساهمت خلال تطورها بأن أصبحت السند الرئيسي للمفهوم المادي العلمي لعالمنا [29]، وليس للبرجماتية العمق أو الأصالة التي تحمل التقاليد والأعراف والقيم ذات الدلالة الثابتة: الخير ليس إلا ما يجلبه لنا من طيبات عملية في حياتنا اليومية، والديمقراطية ممارسة تقاس قيمتها بنتائجها. الإنسان رومانسي وخيالي أحياناً وواقعي أحياناً أخرى، وهكذا المواطن، وكذلك الجماعات. وعلينا أن نلاحظ إن إشكالية العلاقة بين البرجماتية والتعددية لا تكمن في البرجماتية ذاتها، ولكن في رغبة التعدديين البحث عن فلسفة بديلة تكون أكثر ملاءمة لتطور المجتمع الأمريكي.

ثالثاً - الجماعات ومشكلة الحرية:

على الرغم من أن التعددية ليست لها فلسفة عميقة في فهم القيم السياسية وتحليلها على نحو ما نجده لدى الليبراليين التقليديين، إلا أن معظم كتابات التعدديين المعاصرين يرون أن الحرية ليست أولياً النتيجة لإقامة حقوق دستورية، ولكن بالأحرى هي تلك الناتجة عن توزيع السلطة بين جماعات طبيعية. الفرد في ذاته لا يملك الحرية إلا داخل الجماعة. وكما لاحظ فينسنت وآخرون فإن كل التعدديين متفقون على أن الحرية يمكن أن توجد فقط في إطار الجماعات المتعددة، مثل ذلك التماسك الجماعي هو الذي يميز المجتمع [30]. وكذلك يعتقد التعدديون أن الجماعات تحتاج إلى الحرية للتطور. إنهم ليسوا بكيانات توجد بفضل السلطة المركزية. الحرية لا يمكن إنجازها بالنضال على المستوى الفردي. هناك

قضيتان هنا ، من جانب الفرد ، باستثناء حالة نادرة ، عامة ، غير قادرة على مقاومة أي تصرف من الدولة المركزية . الجماعة فقط يمكن أن تقف ضد السلطة المركزية . الجماعات لديها مصادر ليست متوفرة للفرد . إن الوضع الإنساني العام ، في تصورهم ، هو حياة الفرد وتأديته لوظائف مع آخرين . وعلى أية حال ، فإن الحرية لدى التعدديين فهمت بشكل واسع بإعطاء مساحة للأفراد للاختيار وتطوير شخصيتهم داخل جماعات تحكم نفسها ذاتياً ، كما أنها ارتبطت بشكل قريب في العقل التعددي بتوزيع السلطة وخاصة في عقيدة مثل الفيدرالية federalism .

يتضح مما سبق أن التعددية تطرح مفهوماً مختلفاً للحرية عن الطرح الليبرالي التقليدي الذي يركز على الفرد. والحقيقة أن تمييز حرية الجماعات عن حرية المجتمع ككل ممكن أن يكون من الصعوبة بمكان . فهل توجد حريات مختلفة لجماعات مختلفة ؟ وإذا اعترفنا بحرية الجماعات فهل هي نفسها حرية المجتمع السياسي ككل ؟ ثم بالإضافة إلى ذلك ، هل يمكن أن تتضارب حرية بعض الجماعات مع حرية بعض الجماعات الأخرى في مجتمع اعتقدت التعددية أنه يعبر عن مصالح متناقضة ومتنافسة ؟ وكيف نحدد حرية الجماعات في مثل هذه الحالات التي يشتد فيها الصراع وتعجز التعددية عن مواجهته ؟ على سبيل المثال ، حرية الجماعات ، إذا افترضنا أن جماعات السود التي هاجت في لوس أنجلوس في صيف عام 1994 واتجهت إلى العنف والتدمير وحرقت جزءاً هاماً من المدينة ، كانت تعبر عن حريتها في معارضة النظام السياسي الأمريكي السائد ، فلماذا اتجهت حكومة الولاية والحكومة الفيدرالية إلى استخدام العنف المضاد لإخماد ثورة السود ؟ وواضح أن تطور الأحداث أثبت أن الحكومة الفيدرالية لم تكن تعترف بمثل ذلك النوع من الحرية . لماذا اتجهت تلك الجموع السوداء إلى العنف؟ الحقيقة إننا لا نجد إجابات شافية على مثل هذه التساؤلات الهامة من الفكر التعددي الأمريكي المعاصر . وهذا يعتبر عجزاً خطراً في التعددية .

رابعاً - التعددية ومشكلة عدم المساواة:

من الجوانب الهامة التي إنشغل بها الفكر التعددي الأمريكي - كما أوضحنا عند دال مثلاً - الاهتمام بالكيفية التي يمكن بها التقليص من أشكال عدم المساواة التوزيعية في المجتمع تحقيقاً لنوع معين من العدالة الاجتماعية والاقتصادية. المساواة في مفهومها الذي تطور عبر الفكر السياسي ليس قيمة ليبرالية وإنما ارتبط بتطور الفكر الاشتراكي بشكل خاص. إنما الليبراليون التعدديون حاولوا فقط تحقيق قدر من العدالة في توزيع أو اقتسام الفرص أو حصص الثروة التي قد تخضع للتوزيع (في شكل دخل أحياناً) في لحظة معينة.

إن المشكلة التي يواجهها المجتمع الأمريكي اليوم لا تكمن في عدم وجود جهود تبذل من قبل التعدديين لطرح سياسات ديمقراطية قد ينجم عنها التقليص النسبي في أشكال عدم المساواة، ولكنها تكمن في تصوري في أن شرائح واسعة من المجتمع الأمريكي لا تؤمن بالمساواة، بعبارة أخرى قضية المساواة لا تشغل بال المجتمع. عندما قال شيشرون قولته عن اضمحلال الدولة التي خدمها وجاء هوراس، فقال مؤكداً:

" إذا ما وضع الناس المال فوق كل شيء بحث الناس عن الحب فلم يجدوه فهل سيختلف مصيرنا عن مصير روما ؟".

وكما أوضح هارولد لاسكي في كتابه محنة الديمقراطية Democracy in Crisis فإن المجتمع الذي لا يؤمن بالمساواة يحتوي على البذور التي ستجلب له الدمار[31]. وربما يتعرض المجتمع التعددي للمخاطر نفسها.

لقد رأينا أن التعدديين أخفقوا في مواجهة الإشكالية التي تمثلت في أن الجماعة التعددية تسعى إلى مزيد من التحسين في أوضاعها الاقتصادية بالقياس إلى الجماعات الأخرى خارج السلطة وهذا يهدد سياسات التقليل من عدم المساواة، كما أن نظم الهيمنة لن تختار تطبيق سياسات بديلة للتقليص من أشكال عدم المساواة إلا إذا اختارت قيادات المركز هذه السياسات فقط بحكم

ميولها الذاتية والأيديوليجية . وبقى التعدديون في حيرة : إن دعم التعددية معناه إن فرص تقليص أشكال عدم المساواة محدودة جداً . لقد أدرك المنظرون السياسيون الأمريكيون على اختلاف أنماطهم منذ قيام الثورة الأمريكية أهمية التوزيع القائم للملكية في إرساء أية دعائم لنظام ديمقراطي في الجمهورية الجديدة . وقد دار صراع مرير في تحديد توجه الثورة الأمريكية بين المحافظين والتقدميين (الثوريين) ، وانتهى الجدال بأن مال كلا الجانبين إلى الاتفاق على أن أفضل حل لن يتمثل في تهديد أو تغيير قاعدة الملكية القائمة ، وإنما من خلال الانتشار الواسع للموارد الاقتصادية ، وإن ذلك يحتاج إلى بعض التنظيم[32] . وتم تقديم إسهام متواضع لملكية المزارع - فقد وزعت 600 ألف مزرعة فقط من بين زيادة في الاستصلاح الزراعي بلغت أربعة ملايين مزرعة بين 1860- 1900، و 80 مليون فدان فقط من بين أكثر من 430 مليون فدان أضيفت إلى جملة الأراضي في المزارع خلال تلك الفترة [33]، غير أن الدستور في أعمال المحكمة الأمريكية العليا أوضح فيما بعد أن الأمريكيين لم تكن لديهم الرغبة في دعم توجه تقليص أشكال عدم المساواة . وأوضحت القضايا التي فصلت فيها المحكمة الدستورية العليا (مثل قضية لوكنر ضد نيويورك سنة 1905 ، وقضية موهيد ضد تيبالدو سنة 1936) تمسك الأمريكيين بشرعية الملكية ، وعدم الرغبة في المساواة الاقتصادية النسبية . وهكذا ساعدت المحكمة الأمريكية العليا في عملية التحول الأيديولوجي ، بمنح الشركات الكبرى حصانات دستورية ضد تنظيمات الولايات والحكومة الفيدرالية .

والحقيقة أنه بالرغم من أن بعض التعدديين الأمريكيين المعاصرين قد نبهوا إلى مخاطر عدم المساواة ، وبالرغم من أن بعضهم طرح فكرة الملكيات التعاونية ، إلا أن التعددية في جوهرها تعبر عن بنية سياسية ومؤسسات سياسية وليس لها نمط ملازم من النظام الاقتصادي .

خامساً - تقييم مساهمة التعددية في تطور النظرية السياسية المعاصرة

يعتقد ادوارد بيرنز بأن أفكار بينتلي كانت ذات مغزى عميق بالنسبة للنظرية السياسية ، ورغم ذلك فإن بينتلي لم يكن فيلسوفا ، وكان يزدري التعميمات وما كان يطلق عليه " المادة الفكرية " كقوى دافعة للعمل البشري . كان بينتلي وضعيا مثل اوجست كونت أو باريتو ، وكان ينحو إلى اعتبار الأفكار العامة مجرد انعكاسات لمصالح الجماعة . ويتمثل هذا المفهوم في موقفه تجاه الدولة وتجاه السيادة . فقد سخر من فكرة الدولة بوصفها كائناً ميتافيزيقياً يقف وراء الحكومة . إن كل ما يوجد في الحكومة نفسها . وتتألف الحكومة من أنشطة الجماعات والمصالح الممثلة فيها[34] ومصطلح، "سيادة" لا معنى له أيضاً . وقد يكون مفيداً كسلاح للدفاع عن حكومة قائمة أو لعقلنة قانون أو سياسة معينة ، ولكن " بمجرد أن يخرج من صفحات كتب القانون أو النشرات السياسية يكون اضحوكة تافهة مكشوفة[35] .

إن العنصر الرئيسي في نظرية بينتلي السياسية هو مفهومه عن الحكم "كنشاط" . وهذا المفهوم أصبح أساس تطور المدرسة السلوكية . لقد رأى بينتلي أن الحكومة ليست موظفين أو نظاماً دستوريا ، بل هي شبكة ضخمة من الأنشطة ، وأن نطاق هذه الأنشطة وطابعها هما اللذان يحددان قوة الحكومة[36] . واتفق ترومان مع بينتلي في نبذ فكرة " المصلحة العامة " التي فوق مصالح الجماعات المختلفة "بيد أن ترومان يضيف عنصراً جديداً تماماً لم يدركه بينتلي ، وهو تلك الكتلة الضخمة من المصالح غير المنظمة أو ما يطلق عليه "قواعد اللعبة" . وهذه المصالح غير المنظمة عبارة عن ميول ومعتقدات أكثر منها اتحادات أو جماعات . ولكنها مع ذلك مصالح ، وأي إخلال جدي "يؤدي إلى تفاعل منظم وتأكيد مطالب واضحة إلى حد كاف لتحقيق الانسجام "[37] .

وبالنسبة للتعدديين مثل دال وغيره، فإن التحليل السلوكي للسلوك السياسي أصبح مركزياً في فهم ودراسة العملية السياسية للديمقراطية بشكل خاص والنظام السياسي بشكل عام. أصبحت السلوكية نهجا بارزاً في النظرية السياسية، كما أنها ساهمت في ترعرع النظرية السياسية الديمقراطية في أمريكا. غير أن المدرسة السلوكية انتقدت فيما بعد ووصفت بأنها "ضيقة الأفق لأنها تهمل التاريخ وسطحية لأنها ترفض الأعمال الأصلية الكلاسيكية، وتتجه نحو التقليد أو المحاكاة لأنها تتبع غالباً أفكاراً من مجالات أخرى بدون فهم عميق لتلك الأفكار، ومضللة لأن دقتها غالباً ما تكون غير منطقية، وعقيمة لأنها تتعامل فقط مع مسائل سهلة وتافهة، وغير حيوية لأنها تفترض الحياد، وغير ذات أساس أخلاقي لأنها تتهرب من مواجهة الإشكاليات القيمية، ولا يمكن الاعتماد عليها لأن إحصاءاتها ووسائلها الرياضية تتطلب معرفة لا يمتلكها معظم علماء السياسة [38].

ومع ذلك، فإن الفكر التعددي الأمريكي المعاصر ساهم بقدر كبير في نمو وتطور النظرية الديمقراطية الليبرالية في الولايات المتحدة في النصف الثاني من القرن العشرين. ولا أحد ينكر أن المساهمات النظرية والدراسات الامبيريقية التي أنجزها ذلك الجيل من المنظرين التعدديين قد تمخضت عنه بروز واضح المعالم وخصائص النموذج التعددي الأمريكي في ممارسة الديمقراطية. وهكذا صارت التعددية السياسية جزءاً لا يتجزأ من النظرية الديمقراطية في أمريكا على مستوى النظرية والممارسة في آن واحد.

خلاصة واستنتاجات

من بين المشاكل الواضحة في التعددية الأمريكية أنها لا تمثل مدرسة بل اتجاهاً أو نزعة في التحليل. إنّ الكتاب التعدديين لم يكونوا فلاسفة بالمعنى التقليدي كما لم يكونوا دقيقين في استخدام مصطلحاتهم. التعددية أيضاً من الصعب أن ننظر إليها كنظرية

سياسية بالمعنى الواسع ، وإنما كمساهمة فعلية على المستوى النظري والعملي في النظرية الديمقراطية الليبرالية في شكلها المعاصر في مجتمع ما بعد المرحلة الصناعية أو مجتمع (العولمة) .

إن تحليل منطق التعددية يبين لنا أنها لم تواجه إشكاليات هامة . فهي لم تحل إشكالية استشراء أشكال عدم المساواة ، وتوصلت إلى حقيقة مرة ، وهي أن المزيد من التعددية ربما يقود إلى تقويض سياسات تهدف أصلاً إلى التقليص من أشكال عدم المساواة . التعددية لم تواجه التساؤل حول ما إذا كان من الممكن أن تكون بعض الجماعات تعسفية ووحشية ومحطمة للحرية . وإذا أمكن تجريبياً التأكد من أن الجماعات تعسفية، فإن ذلك قد يقود التعدديين إلى إعادة النظر في طبيعة الجماعات ، أي إعادة النظر في الأساس الذي بنوا عليه افتراضاتهم ونظرياتهم . لقد أهمل التعدديون دور أو تأثير الدولة على الجماعات ، ورأوا أن الجماعات فقط هي التي تشكل الدولة وتؤثر فيها .

التعددية السياسية مجرد آلية تسمح لأكبر عدد من الجماعات المكونة للمجتمع السياسي بأن تشارك في العملية الديمقراطية ، لكن التعدديين لا يوضحون لنا على وجه الدقة كيف تنظم الجماعات نفسها سياسياً حتى تستطيع أن تمارس أدوارها وتشارك في العملية الديمقراطية . التعددية كما وجدنا افتقرت إلى الأساس الفلسفي والأخلاقي ، ونظرت إلى الحياة السياسية من منظور ما تفرزه من نتائج عملية . البرجماتية السياسية في حاجة إلى فلسفة سياسية عميقة ذات بُعد أخلاقي افتقدته الليبرالية الأمريكية المعاصرة في تطورها خلال ربع القرن الأخير . وكل ما واجهته التعددية من انتقادات ، مع ذلك ، لا يقلل من الدور التاريخي والسياسي الذي لعبته في بناء النظرية الديمقراطية التعددية وتوضيح الخصائص المميزة للنظام السياسي الأمريكي المعاصر .

الهوامش

(1) تزعم الاتجاه الأول كل من آرثر بنتلي وديفيد ترومان Arthur Bentely و David Truman وتزعم الاتجاه الثاني روبيرت دال Robert Dahl انظر في ذلك :

Arthur Benetly, The Process of Goverament, Cambridge: Harvard Uni. Press, 1908, David Truman. The govemmental Process, New York : 1951, Robert Dahl Introduction to Economic Democracy, Berkely: Uni : of California Press, 1985

(2) انظر في ذلك : د. محـــمد طه بـــدوي ، النظرية السياســية ، النظرية العامة للمعرفة السياســية ، القاهرة ، مكتب المصري الحديث ، 1986 ، ص 237 - 239 .

(3) انظر في ذلك أندروفينســنت ، نظريات الدولة ، ترجمة د. مالك أبــو شــهيوه و د. محــمود خلف ، بيروت ، دار الجيل ، 1997 ، ص 236 .

(4) أليكس دي توكيفل ، الديمقراطية في أمريكا ،

Alex de Tocqunelle, Democray in America, translated by H. Reeve, New York, A. Knopp, 1951, vol 2, p. 128 .

(5) روبيرت دال ، مقدمة إلى الديمقراطية الاقتصادية ، ترجمة : محمد مصطفى غنيم ، القاهرة ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، 1985 ، ص 51 .

(6) المرجع السابق ، ص 52 .

(*) من رواد تحـليل الجماعات Group Analysis في أمريكا وأعمالهم المعروفة نجد على سبـيل المثال بالإضـافة إلى بنتلي وترومان :

Earl Latham. The Group Basis of Polities, New York : Cornell, 1952, Mancur Olson, The Logic of Collective Action, New York: Schocken, 1968, Robert Golembieweski, " The Group Basis of Politics", American Political Science Review, Dec., 1960, Chanles Hagan, " The Group in Political Science, " in Ronald Young ,ed. Approaches to the Study of

Polities, Evanston: Northwestrn Uni. Press, 1958, Samual Eldersveld " American Interest Groups " in Henry Ehrmann, ed. Interest Groups in Four Continents, Pittsburgh, Uni of Pittsburgh Press, 1958, Jean Blondel. An Introduction to Comparative Governments, New York, : Praeger, 1969, Harry Eckstein, Group Theory and the Comparative Study of Presure Groups " in Harry Eckstein and David Apter eds, Comparative Politics: A Reader, New York : Free Press, 1958 .

(7) A. Bentely, The Process of Govemment, Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1967, p.208 .

(8) James Bill and Robert Hardgtave, Compastive Polities: A Quest For Theory. Lanham: Uni: Press of Amenvica, 1981, p. 130 .

(9) المرجع السابق ، ص 132 .

(10) انظر في ذلك المرجع السابق ، ص 134 - 135 .

(11) Robert Dahl, " Pluralism Revisited" , Comparative Polities, January 1978, p. 191 - 203 .

(12) المرجع السابق ، ص 197 .

(13) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(14) انظر دراستنا : " الإطار النظري ، النظرية الديمقراطية في الفكر الليبرالي " في الديمقراطية في سويسرا ، د. محمود خلف و د. أمحمد عيسى ، طرابلس ، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ، ص 16 - 53 .

(15) انظر الفصل الثامن " الليبرالية " في الأيديولوجيا والسياسة : دراسات في الأيديولوجيات السياسية المعاصرة . د. مالك عبيد أبو شهيوة وآخرون ، الجزء الأول ، ص 217 - 305 ، مصراتة ، الدار الجماهيرية ، 1993 .

(16) المرجع السابق ، ص 369 .

(17) انظر أحدث الدراسات التي أنجزت في هذا الشأن :

Laura Stoker, " Interests and Ethics in Politics", Americn Political Science Review, June 1992, Vol. 86, p. 369-380.

(18) Robert Dahl, " Pluralism Revisited", op. Cit, p. 200.

(19) المرجع السابق ، ص 201 .

(20) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(21) المرجع السابق ، ص 202 .

(22) انظر في هذا بشكل مُفَصل :

Robert Dahl. Block, Participation and opposition, New Haven : Yale University Press, 1971.

وكذلك كتابه :

Democracy and Its critics, New Haven : Yale Uni. Press, 1989.

(23) Robert Dahl, " Pluralism Revisited", op. Cit., P. 203 .

(24) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(25) أندرو فينسنت ، نظريات الدولة ، مرجع سابق ، ص 229 .

(26) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(27) انظر على سبيل المثال :

Leonard Reissman, Class in Amesican Socity, Glencoe, llinois, Free Press, 1959, Melvin Tumin, Social Stratification: The froms and Function of Inequality, Englewood: P sintice Hall, 1967.

(28) أندرو فنسنت ، نظريات الدولة ، مرجع سابق ، ص 228 .

(29) لمزيد من التفصيل انظر " البرجسونية والبرجماتية " في تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، بوخنسكي ، ترجمة ، د. محمد عبد الكريم الوافي ، بنغازي ، جامعة قار يونس ، 1990 ، ص 186 - 192 .

(30) فينسنت ، مرجع سابق ، ص 241 .

(31) Harold Laski, Democracy in crisis, New York, Free Press, N. Y, p. 66.

(32) Robert Dahl, Introduction to Economic Democracy, op. Cit, p.73 .

(33) المرجع السابق ،ص 75 .

(34) انظر إدوارد بيرنز ، النظريات السياسية في العالم المعاصر ، ترجمة د. عبد الكريم أحمد ، بيروت ، دار الآداب ، 1988 ، ص 409 - 411 .

(35) Arthur Bentely, The Process of Government, op. Cit, p. 264 .

(36) أدوارد بيريز ، النظريات السياسية ، مرجع سابق ، ص 410 .

(37) المرجع السابق ، ص 414 .

(38) E. Kirkpatrick and W. Andrwes. " Political Sciemce in the United States" in William Andrew's International Handbook of Political Scimce, Westport Greanwood Press, 1982, p. 373 .

الشعب المسلح

أ. سعيد عريبي حفيانة

قراءة
من بعض تجارب المقاومة الشعبية
للأمة في مواجهة العدوان

المقدمة:

الشعب المسلح غير قابل للهزيمة مقولة تستند إلى إعادة استقراء لتاريخ البشرية كما أفرزه كفاح الشعوب لمواجهة إمبراطوريات الشر التي عبرت التاريخ، وملأته حرائق ودماراً وخراباً.

المقولة صاغها عقل وعي التاريخ ودرس وقائعه بفكر يقارن بين أحداثه وتجددها، لا ينعدم فيها التشابه مهما تقادم عنصر الزمن الذي يحيطها، وإن الاستعمار في دورة التاريخ يمكن أن يعود متى توافرت اشتراطاته.

القراءة التي نوردها هنا لبعض تجارب المقاومة الشعبية للأمة في مواجهة العدوان لا تذهب إلى قراءة تاريخ العالم بأسره، فذلك قد يكون مجاله باباً أو أبواباً أخرى، وإنما تقصره على الأمة العربية بامتداد وجودها الجغرافي والبشري والحضاري عبر أدوار من تاريخ المنطقة، ولا نضيف شيئاً جديداً إذا قلنا بأن المصدر الفلسفي والتاريخي لفكرة الشعب المسلح هي النظرية الجماهيرية.

فعندما يتم تحرير السلطة من احتكار الطبقة أو الطائفة أو القبيلة أو العشيرة أو الحزب أو من دكتاتورية الفرد، ويصبح ذلك أمراً متحققاً في الواقع، عندها تكون السلطة، سلطة كل الناس، ولا يتعزز دور الجماهير في ممارسة سلطتها واقعياً إلا بضمانات يكون فيها الشعب الذي يمارس السلطة يملك وسائل حمايتها والدفاع عنها من أخطار الداخل والخارج.

في مقاومة العراق الباسلة للعدوان الأمريكي البريطاني يبرز عنصر الشعب المسلح، فالذي يخوض المواجهة على مدى اسبوعين ضد آلة العدوان الإجرامي هم عامة الناس، فلاحون وقرويون ومواطنون بسطاء وأفراد عشائر وعمال ومثقفون وكوادر حزب البعث، الكل يشترك في مواجهة العدوان بحرب متحركة سريعة الوقع على امتداد الجبهة تنقض على مؤخرات قوات العدو ونقاط تمركزه لتزرع الإرباك والاضطراب فيها، من أم قصر حتى كربلاء والنجف مروراً بالناصرية والبصرة والحلة ... وغيرها، وتجربة المقاومة العراقية للعدوان لا تنعدم فيها وسائط الدعم المتبادل حركة وإسناداً تعتمد فيها المقاومة الشعبية على كثافة النيران التي توفرها القوة النظامية ويمكن أن تتسع مقاومة العدوان إلى انصهار بين عناصر المقاومة بالعنصر النظامي في حرب مقاومة شعبية واحدة تكون أكثر التصاقاً بالأرض تجعل من العدوان مغامرة غالية التكاليف.

العدو الأمريكي البريطاني أعد آلته الحربية الثقيلة لمواجهة عسكرية تقليدية، اعتقد المخططون لها خطأ أن العراق التزم مواقع المراوحة ولم يستفد من ظروف الحروب السابقة وهو ما كذبه الواقع. فقوات العدوان لم تجد أمامها كتائب وفرقاً وألوية بمختلف الأسلحة الثقيلة تتسم حركتها بالثقل قد يحولها التوحل في مواقع، منها أو من قوات العدوان إلى حرب مواقع. إنما وجدت مقاتلين يحسنون استخدام نقاط الضعف في استراتيجية العدو بهجوم تقوم به مجموعات سريعة الحركة جيدة التسليح، حتى إن أحد القادة العسكريين قال:

إن ما نواجهه في العراق هو تطوير جديد لأساليب حرب فيتنام.

وما يمكن القول به في هذا المجال هو أن المقاومة الشعبية ليست غريبة عن مدننا العربية، بذرتها كانت في مدن القنال في بور سعيد والإسماعيلية وغيرها أثناء العدوان الثلاثي وفي بيروت وصيدا وصور أثناء الإنزال الأمريكي عام 58ف على شواطئ بيروت، والاجتياح الشاروني للبنان عام 82ف.

العراقيون بالقراءة الملتزمة للمواجهة منتصرون حتى لو دمر العراق واحتل، منتصرون بتقييم معايير موازين القوة في ساحة المواجهة وأكثر من ذلك هم منتصرون وهم يواجهون عصا الجبان الطويلة متمثلة في طائرات بي 52، والشبح وإف 18 وغيرها وصواريخ كروز وتوما هوك، كل ذلك يكون ما يعبر عنه الموروث الشعبي في بلد خبر العدوان عندما يقول الناس: "عصاة الدلال

طويلة"، والدلال في اللهجة العامية لعرب ليبيا هو الجبان.

المعركة ليست معركة العراق وإنما هي معركة العرب، وإن عجز النظام الرسمي العربي أن يكون فيها مع العراق، لأن هذا النظام خاضع ذليل مرتهن الإرادة للعدو بعقد إذعان غير محدد المدة، وكما أراد المعتدون أن يجعلوا من العراق حقل تجارب واسعاً لإعادة صياغة أوضاع المنطقة، فهو يمكن أن يكون حقل تجارب للجماهير العربية يزيح الأقنعة ويزيل الغمام أمام الجماهير ويحدد لها من هم أعداؤها من أعتاب بيوتها حتى عواصم العدوان. والمهم في كل ذلك هو معدن الإنسان العربي وعمق ارتباطه بالأرض وذلك جسدته مقاومة الشعب العراقي بجدارة واقتدار.

نماذج من تجارب مقاومة الأمة في مواجهة العدوان

1) تكفر ابن إيناس

في عام 173 قبل الميلاد كان على عرش الإمبراطورية الرومانية، إمبراطور دموي المزاج، لم يكن مختلفاً في هذا الجانب عن إمبراطور مماثل له قال يوماً: "تمنيت لو كانت شعوب الإمبراطورية متمثلة في عنق رجل واحد كي أطبق عليه بقبضة يدي وأكتم أنفاسه"، كان ذلك رد فعل منه وقد أقلقه تزايد حركات التمرد والثورات المتوالية ضد حكم روما في البلدان التي تحتلها.

والإمبراطور "اغوسطين" هو صاحب أول تجربة للاستعمار الاستيطاني في التاريخ استهدف عنصر الأرض والإنسان والموارد، وكانت خطته في إحكام السيطرة على بلدان المغرب (شمال أفريقيا) في المصطلح الكنسي، تقوم على انتزاع الأراضي الخصبة في السهول والوديان وما وراء سفوح الجبال من السكان الأصليين وتخصيصها للجيش الروماني، تقام عليها مستعمرات مسلحة، ومراكز إنتاج توفر الغذاء والعمل لفرق الجيش وهي تمارس سياسة التهدئة للسكان المتمردين بما عرف في كل سياسات الاستعمار بالعنف المقنن "La Pacification"، وهي ذات السياسة التي طبقت في الجزائر عام 1954 ولا تزال آثار بعض تلك المستعمرات الاستيطانية التي أقامها الإمبراطور "اغوسطين" قائمة حتى اليوم في ليبيا، وما ترتب عن تلك السياسة من نتائج هو إقصاء سكان السهول والجبال والوديان الذين يمتهنون الرعي والزراعة إلى تخوم الصحراء القاحلة.

كان "تكفر" ضابطاً في جيش روما وصل إلى رتبة قائد فرقة، أتقن فنون التدريب والإعداد للحرب على النمط العسكري الروماني، وعندما سُرّح عاد إلى بلاده، فاصطدم بنتائج السياسة الاستيطانية الجديدة للإمبراطور أغوسطين ووجد القبائل التي ينتمي إليها مبعدة إلى تخوم الصحراء يطحنها الجوع في وضع مغاير لما عرفه. وبلاد "تكفر ابن إيناس" أو وطنه حدده الفضاء الذي قاد فيه حركة المقاومة ضد جيش روما، وهو وطن يمتد من سهول باجة مروراً بسرت الصغرى تخوم طرابلس الحالية في اتجاه الشرق، إلى سرت الكبرى، كما تورد روايات التاريخ، وفي مجال المقاومة التي قادها وحّد القبائل القاطنة في هذا الامتداد الجغرافي، عززه بعقد حلف مع "ملك المور" موريتانيا الحالية "يعرب بن عرس" وتلك إشارة عابرة لأصول عنصر الإنسان في هذه المناطق.

في مرحلة أولى استخدم تكفر أسلوب الحرب النظامية على قدر ما استوعبه وتعلمه من تجربة عمله في جيش نظامي، وخبرته كقائد فرقة فيه، لكنه أدرك أن التكافؤ لم يكن قائماً بين جيش القبائل الذي جمعه وأعده ودربه وشكل به فرقاً مقاتلة على النمط الروماني، وبين فرق أوغسطين المدربة والمدججة بالسلاح فضلاً عن أن ثقل حركة الفرق النظامية أمر لا ينسجم مع طبيعة السكان الدائمة الحركة من سفوح الجبال والسهول المنخفضة فاستبدل أسلوب الحرب النظامية، بأسلوب الضربات الخاطفة والهجمات السريعة على تجمع القوات الرومانية أو أثناء تنقلها، بما عرف "بالرازيا" تقاليدها في جبال الأطلس بالمغرب لا تزال قائمة حتى اليوم. فرق صغيرة تتسم بسرعة الحركة جيدة التسليح والتدريب تعرف المحيط والمناخ وطبوغرافية الأرض التي تتحرك فيها وهي منها، معرفة جيدة تهاجم منقضة، وتختفي في السهول والوديان وسهوب الصحراء. لكن أبرز عامل في هذه الحرب الشعبية، أن عنصرها المقاتل يجد في محيطه الاجتماعي حضناً دافئاً يزوده بالغذاء والكساء والملجأ ككل تجارب حروب التحرير في التاريخ.

استمرت حركة المقاومة التي قادها "تكفر" ثلاثة عشر عاماً امتدت جبهتها من سهول باجة حتى سرت الكبرى، ولم تستطع إمبراطورية الشر القديمة القضاء على حركة المقاومة تلك، إلا بتبني استراتيجية الأرض المحروقة بتدمير القرى والملاجئ السكانية التي كانت حضناً لها. كانت آلة الحرب الرومانية وقد أنهكتها المقاومة، تتحرك زاحفة على امتداد التجمعات السكانية

ضاغطة بقوة وعنف تدمر القرى وتحرق المحاصيل وتصادر الحيوانات استهدفت حرمان "تكفر "من الغذاء والكساء لجنوده انتهت به للأسر في آخر معركة خاضها ، من معارك حرب مقاومة شعبية في مواجهة إحدى أعتى الإمبراطوريات في التاريخ .

بقي شيء واحد في ذاكرة التاريخ خالداً هو أن "تكفر ابن إيناس "لم يستسلم بل قاتل حتى أسر ثم اعدم شنقاً . والتاريخ هنا يعيد نفسه بأحداثه واشتراطاته ، روما الأمس الإمبراطورية لم تكن غريبة في أساليبها عن إيطاليا في القرن العشرين ، وهي تحتل ليبيا على ادعاء بأنها أرض رومانية تمثل شاطئها الرابع .

وأهم من كل ذلك أن وحدة الحدث التاريخي متمثلاً في الاستعمار ووحدة العدو وقد استعيد رداؤه ودوره ممن غزوا الأرض العربية واحتلوها جعلت من تكفر ابن إيناس وعمر المختار وعبد الكريم الخطابي وسليمان الباروني وعبد القادر الجزائري رموز العنصر الإصرار على رفض الغازي المحتل واختيار النفي والغربة أو الموت بديلاً لذلك ، وأكثر من ذلك معانقة قضية الأرض والوطن على أعواد المشانق للبعض منهم .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الغرب عمد دائماً إلى استعادة إرث الإمبراطورية الرومانية سياسياً وعسكرياً وثقافياً ، فسياسة الرومنة لسكان المغرب العربي في عهود روما الغابرة هي ذات السياسة في احتلال المنطقة واستعمارها ، وهي ذاتها في فرض الفرنسة والتطلين بالقوة من غلاة المستعمرين فاشيست وعنصريين .

وما طبقته روما بعد احتلالها لقرطاج وتدميرها وحرقها ، وتعبيراً عن حقد لا مثيل له أغرقت أرضها بالملح كي لا تخصب ولا تنتج زرعاً ، نفذه الغرب في أكثر من جزء من الأرض العربية خاصة في ليبيا والجزائر والمغرب ولكن الملح الروماني الذي أغرق قرطاج أرضع من ثديه المالح المر المقاومة العسكرية والثقافية والدينية في صيغ وأشكال جديدة ، كانت وقوداً للحروب البونية التي استغرقت قروناً من الزمن ترفض روما وجوداً عسكرياً ، وروما ديانة وثنية أو مسيحية فيما بعد ، وروما نموذجاً لإمبراطورية الشر عنواناً للسيطرة والتحكم . فهل نعي التاريخ ؟

2- هزيمة الوندال بسهل الجفارة "معركة إيكابلون"

* الوندال موجات من الغزو لأقوام قذفت بهم أصقاع أوروبا الشمالية الباردة ، اكتسحت جيوشهم الجارفة بلدان الغال

"فرنسا الحالية"، وجزيرة ايبيريا "أسبانيا والبرتغال"، التهمت هذه الموجات الأخضر واليابس في طريقها حتى وصلوا نقطة العبور الفاصلة بين الشاطئين الأوروبي والعربي الإفريقي من البحر المتوسط.

* وككل موجات الغزو عبروا المضيق واكتسحوا المغرب والجزائر وتونس حتى ليبيا، حيث احتلوا سواحلها وتوغلوا إلى داخلها نحو السهول، فكانت موقعة الصدام الحاسم معهم "معركة ايكاباون "بسهل الجفارة حملت اسم القائد الذي قاد هذه المعركة وألحق الهزيمة بالوندال فيها.

* معارك المجبودة، أسلوب المواجهة مع الوندال:

معارك المجبودة، كما يورد وصفها العلامة ابن خلدون في كتابه "ديوان المبتدأ والخبر ...."يمكن أن يفهمها الباحث والدارس بأنها ابتداع وحسن استخدام وسائط مصدرها البيئة التي تحيط بالإنسان، وهو يقاوم أو يواجه ما يتهدد وجوده من مخاطر.

"المجبودة" أسلوب للحرب يرتبط بالجمل "اللصيق في وجوده بإنسان البيئة العربية من الجزيرة حتى المغرب، انتقل مع الإنسان في موجات هجرته مثله في ذلك مثل نواة النخيل وشجرة الزيتون.

وتستخدم الإبل بصفة الجمع في معارك المجبودة في شكل حصن دائري يبدأ تكوينه من نقطة المركز تضيق في البدء ثم تتسع حتى يتكوّن الحصن على شكل غابة دائرية المحيط جدارها أجساد الإبل الضخمة المدربة على مثل هذه الأوضاع يمتطيها رماة الحراب ويحتمي بقوائمها النبالون ويختلط عند احتدام المعركة رغاء الإبل بأصوات الرجال في مواجهة من يقاتلون لتحدث رعباً مريعاً في صفوف العدو عرفها من قبل أو اصطدم بها لأول مرة كالحال في المواجهة مع الوندال.

ذلك هو الوصف الذي يورده ابن خلدون لمعارك المجبودة بالعنصر الأساسي فيها الجمل، بشيء من التصرف، وتعتبر هذه الوسيلة حاسمة في تراث القتال في بيئة الإنسان العربي، ويمكن أن نستحضر من تاريخ المقاومة الليبية هذه الصيغة فنقول " الجمل كان دائماً وسيلة تنقل، وأداة عمل ومصدر طعام وترس حماية في مواجهة العدو، وفقدانه يعتبر رزيّة للقيمة التي يمثلها في الحياة عند من يمتلكونه.

* قبائل السهل والجبل في مواجهة الوندال:

توغل الوندال في زحفهم إلى الداخل متتبعين آثار العمران ووجود عنصر السكان حتى وصلوا سهل الجفارة بالمنطقة الغربية بطرابلس في اتجاه سلسلة الجبال المطلة عليه. وهنا يبرز دور زعيم محلي تعرفه المصادر التاريخية تحت اسم " ايكاباون " جمع هذا الزعيم قبائل السهل والجبال المحيطة به وأعد منهم جيشاً لمواجهة الوندال.

كانت الاستراتيجية التي تبناها في الحرب هي طريقة حصن الجمال الدائري كما أورده ابن خلدون في وصفه لمعارك "المجبودة". وعندما بدأت المعركة انطلقت خيول الوندال في هجومها فاصطدمت بحصن من حيوانات غريبة الشكل لم ترها خيول الوندال الأوروبية ولم تألفها من قبل لا هي ولا من يمتطونها، رغاء الإبل مختلطاً بالغبار وصياح الرجال ووابل الحراب والرماح الطويلة والنبال يقذفها الرجال حصدت الخيل وراكبيها، فجفلت خيل الوندال وألقت بمن عليها وارتدت هاربة فلاحقهم جيش "ايكاباون" بفرسان يعرفون الأرض ومسالكها، ويستخدمون خيولاً ليبية عرفها تاريخ الحروب بقصر القامة وقوة التحمل في قطع المسافات وتنكب المسالك الصعبة يشبعون فلول الوندال قتلاً وأسراً.

هكذا تحطمت زحوف الوندال الغازية على صخرة المقاومة وهي تواجه وجوداً اجتماعياً استنبط وسائط قتال وأحسن استخدامها من واقع بيئته، ظهر فيها الجيش الذي هزم الوندال جمهرة من قبائل جمعتها غريزة البقاء وضرورات الدفاع عن وجود جماعي يهدده غزو أقوام قذفت بها أصقاع أوروبا كالجراد إلى المنطقة.

وهزيمة الوندال في سهل الجفارة أمام مقاومة قبائل السهل والجبل في ليبيا تكررت بعد قرون للبيزنطيين على أبواب تونس في معركة قادها مملوكي يدعى "سليمان الخصي"، استخدم فيها مرة أخرى الجمال بتكتيك معارك المجبودة، وفي جميع هذه المواجهات نلاحظ أن الوضع الاجتماعي بمعطياته المستقرة على الأرض وهو غالباً ما يكون خارج إطار الدولة المعقدة هو الذي يواجه العدوان ويهزمه، كالحال في حركة جهاد الليبيين فيما بعد الغزو الإيطالي وانهيار الإدارة العثمانية واختفاء وجودها الفعلي في حياة الناس كأداة تنظيم وإدارة وحماية

لوجودهم ، من ذلك الوضع المنهار برزت المقاومة الشعبية في حركة جهاد الليبيين نموذجاً لكفاح الشعب المسلح أملته الضرورة وأفرزه الواقع ، وذلك في تقديري المتواضع أن الغزو والعدوان يستهدف بشكل متكرر في تاريخ الصراعات الأرض والإنسان والموارد . والأطر المنظمة في شكل سلطة أو إدارة في غالب الحالات قلما تسندها شرعية الارتباط بهذه العناصر كي تدافع عنها ، كما تفعل جموع الناس مدفوعة بضرورات حماية وجودها والدفاع عنه في مواجهة خطر لا راد له إلا الاستجابة للتحدي الذي يفرضه .

3- عنصر الإنسان في المواجهات القديمة

إن المثير للانتباه هنا ليس هزيمة الوندال ولا وحدة القبائل في السهل والجبل تحت زعامة أفرزها واقع اجتماعي محدد في مواجهتها الخطر يهدد وجودها تمثل في الغزو الوندالي أو غيره . وإنما المثير هو استخدام الجمل وسيلة قتال وحرب بذات الطريقة والكيفية التي استخدمها الإنسان في بيئته الأصلية الجزيرة العربية ، وانتقال هذه الأداة مع عنصر الإنسان وهو يجوب الأصقاع حالاً مرتحلاً يبحث عن بيئة استقرار تتشابه الظروف المناخية والبيئية فيها بالتي نزح منها . فالقادم من مناطق جبلية استقر في مناطق مماثلة ومن هاجر من نجوع البوادي والواحات سلك طريقاً للهجرة يؤدي به إلى مدارج الاستقرار في بيئات شبيهة في ظروفها وأحوالها ونمط النشاط الذي يقيم به حياته .

لاشك أن الإنسان جاء مهاجراً يحمل معه تراثه القتالي بما في ذلك أدوات القتال الإبل والسيوف والنبال وأسلوب الحرب كما تمثله معارك " المجبودة " ، ويحمل معه تراثه المعيشي كما يبدو في امتهانه الرعي وزراعة المدرجات في المناطق الوعرة التي تبدأ بأعلى السفوح حتى قيعان الوديان السحيقة وبناء السدود التعويقية بشكل هندسي ومعماري مذهل ، وحرف البناء والنقش والحدادة والنسيج وصناعة الفخار كأقدم ما قامت عليه الحضارات القديمة وأبرزها حضارة اليمن موطن الهجرات الأولى لعنصر الإنسان لهذه المناطق .

وهنا يثور السؤال : هل كان سكان سهل الجفارة وسفوح الجبال المطلة عليه نبتاً شيطانياً منزوع الصلة ببيئة الهجرة الأصلية ؟ لاشك مرة أخرى أن حصون وقلاع يدرج ونوح وآل كندة ومدن الحارث وآل ميلة وخرائب مدينة الجدة خولة وهنشير كليب الذي يخفي تحت

رماله مدينة كاملة والجزيرة الصخرية المعلقة متمثلة في مدينة شروس ومدينة فرسطاء وغيرها، يعزز ذلك كله دلالات الأسماء التي تحملها القبائل المستقرة في المنطقة مثل قبائل سلطان والحارث وعمرو ونوح وبني معين وثموديين نسبة إلى قبيلة ثمود اليمنية القديمة. شواهد ومعالم تؤكد الارتباط بمواطن الهجرة الأولى ببيئاتها المتنوعة.

وظاهرة أخرى هي وجود الأطم الصحراوية بحصونها وفن معمارها، هي ذاتها الموجودة في واحات الصحراء العربية، وهي ذاتها التي تزين مداخل مدن اليمن ومدارج الحصون الجبلية. وأكثر من ذلك دلالات الأسماء، حتى في أقدم روايات النسابة لعنصر الإنسان كما أوردها النسابة الصنهاجيون وهم حميريون، والتي تبناها ابن خلدون كما هي، في تحديد أصول "البربر"، حيث يورد ابن خلدون في تلك الرواية الجذر الأصلي لهم تحت اسم "مدغيس الابتر"، فما الفارق بين "مدحج" إحدى المدن اليمنية العريقة و"مدغيس" بل إن "مدغيس الابتر"، هو في الواقع مدقيس كمذحج. وفي لهجة عرب الهجرات القديمة يرد لفظ "آوال ؟ بمعنى الكلام أو الحديث، والتأويل بمعنى إيراد المعاني على غير مدلولها، وهي من جذر العربية الفصحى، أوّل، يؤول، تأويلاً، و"آوال" هو أول ملوك اليمن "آوال بن يمن". حتى اللباس المعروف "بالحولي" هو في اللهجة العربية القديمة، وهي حميرية في الأصل يتحدث بها عرب الهجرات العربية القديمة في جبل نفوسة، يسمى "أخماسي" أو "أخميس"، وهو في أصله ثوب يمني يسمى "خميس" طوله خمسة أذرع، ينسج من الصوف يلبسه ملوك اليمن، وقد هدى به ملك اليمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم عند وفادته عليه يعلن إسلام قومه، والنسّاجات لهذا النوع من الثياب في المنطقة يحددن الثوب بطول قامة الإنسان، فينسج الثوب "خموسي" بمقياس خمس أذرع "وتسوعي" و"عشوري" بمقياس الأذرع المناسبة لقامة حامل الثوب، خمس أذرع أو تسع أو عشر.

يعزز ذلك تلك الأسماء الحميرية أمثال يعرب ويشجب ويكيف ويخلف ويعمر ويحمد في اليمن وهي ذاتها السائدة في المنطقة من يخلف إلى يعمر إلى يحمد إلى يدر إلى يونس إلى يانس ويدرج وغيرها.

انتقل الإنسان من بيئة الهجرة الأولى، يحمل معه كل تراثه من اللغة وأدوات النسيج والثياب وأنواعها، وأدوات الحرث والزراعة وفنون النقش والحدادة والبناء، بل

حتى التقسيم الاجتماعي المرتبط بتلك المهن ، وحتى في فنونه التعبيرية في مجال الموسيقا تجد آلة " الزكرة " وآلة " المقرونة " موقعها في هذا التراث كآلة للعزف الموسيقي يمتد حضورها من اليمن إلى الجزيرة العربية إلى العراق إلى الأردن إلى بادية الشام ، إلى ليبيا حتى الجزائر وتونس والمغرب مثلها مثل الجمل ونواة النخيل والزيتون في انتقالها .

كل هذه المعطيات تؤكد أن عنصر الإنسان الذي يُدفع إلى مهاوي التغريب والاغتراب بعمليات متوالية من التفسير القسري لمكونات وجوده ، هو عربي المنبت والجذور .

تلك خاتمة كان لابد أن نوردها هنا ، تحدد هوية الإنسان الذي قاتل الرومان والوندال ومن اتبعهم فيما بعد من أقوام الغزو التي دنست منطقة المغرب العربي واستهدفت الإنسان تغريباً والأرض استعماراً وحرقاً وتدميراً والموارد والثروات نهباً وسلباً .

إنها إشارة عابرة لجذور الإنسان في هذه المواجهات القديمة تلح على الفكر والوجدان نعلم أن الفضاء المتاح لا يحتويها ولا يفيها حقها ، وإن مجالها فضاء لبحث آخر ، إذا قيض الله للإنسان عمراً .

4 - عبد الكريم الخطابي وثورة الريف:

ثلاثة أبعاد ، تبدو في الثورة التي قادها عبد الكريم الخطابي في الريف ، هي وثيقة الصلة بمفهوم الشعب المسلح بالعنوان الذي حملته هذه الحلقات .

الأول: عندما ينهار الوضع أو الإطار السياسي للسلطة ، أياً كان شكل تنظيمها وسيطرتها على أوضاع الناس ، فإن وضعاً جماهيرياً عاماً ينهض ليملأ الفراغ الذي تخلفه السلطة وهي تنهار في مواجهة الغزو الخارجي ، فنظام الإقطاع قاعدة النظام الأسري الحاكم في المغرب انهار أمام غزو مزدوج فرنسي أسباني ، كل له أطماعه في المغرب ولكن يجمعهما هدف واحد هو احتلال المغرب وإخضاعه ، فكانت ثورة الريف في بدايتها ضد الاستعمار الأسباني ثم عندما اشتد خطرها على الوجود الفرنسي . تم الاتفاق بين فرنسا وأسبانيا على توحيد جهودهما الحربية للقضاء على ثورة الريف واحتلال المغرب لينفرد كل منهما بجزء منه ، ولجهت ثورة عبد الكريم الخطابي في الريف بمقاومة مسلحة الأطماع الفرنسية والأسبانية في المغرب معاً ، ذلك هو البعد الأول .

الثاني: إن ثورة كتلك التي قادها عبد الكريم الخطابي في الريف ما كان لها أن تقود حركة المقاومة وتضمن استمرارها وهي تعتمد على نظام إقطاعي متعفن يسترق الإنسان والأرض، وهنا أدرك عبد الكريم بحسه السياسي والاجتماعي الثاقب أن نظام الإقطاع يستعبد الناس وقود الثورة، وإن تحريرهم من سيطرة الإقطاع أصبح أكثر من ضرورة فعمد إلى انتزاع الأرض من الإقطاعيين ووزعها على الفلاحين يفلحونها وينتجون غذاءً لجند المقاومة، وكانت تلك أولى تجارب الإصلاح الزراعي في الواقع العربي، وذهب في خطوة أخرى إلى أبعد من ذلك فتحرر هو وحرر سكان الريف من التبعية السياسية لنظام أسري قبل الحماية الأجنبية حفاظاً على وجوده فأعلن قيام جمهورية الريف في عام 1913م.

الثالث: إن عبد الكريم الخطابي وهو يقود المقاومة في الريف ضد فرنسا وأسبانيا، ويعلن الجمهورية قد سجل أولى تجارب حروب التحرير الشعبية في التاريخ الحديث، استفاد بها غيره، وهنا ترد إلى الذاكرة تلك الواقعة التي تعزز هذه الحقيقة فعندما ذهب وفد من المقاومة الفلسطينية لزيارة إلى الصين الشعبية، وكان بالوفد قادة من الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والتقوا بالزعيم الصيني "ماوتسي تونغ" طلبوا منه أن يحدثهم عن تجربة حرب الأنصار في الصين علهم يستفيدون منها في كفاحهم ضد عدوهم الكيان الصهيوني، فرد عليهم قائلاً:

" إنكم تطلبون مني أن أحدثكم عن تجربة حرب الأنصار الصينية، علكم تستفيدون منها، وأنا تعلمت أول دروس حرب التحرير الشعبية من التاريخ العربي الحديث"

دهش الحاضرون وهم يستمعون لرده، وزالت الدهشة عندما قال:

"لقد تعلمت أول دروس حرب التحرير الشعبية من مدرسة عبد الكريم الخطابي وثورته في الريف"

شعر الحاضرون بحرج شديد ودهش أكثر شدة مصدره الجهل بتاريخ ثورة تقع على أعتاب محيطهم البشري والجغرافي.

تلك هي الأبعاد الثلاثة لثورة الريف التي قادها عبد الكريم الخطابي، لكن عاملاً آخر هاماً يبرز فيها، أكده الخطابي، هو أنه كذب لعبة تقسيم عنصر السكان التي دخلت بها فرنسا إلى المغرب، كما فعلت إيطاليا في ليبيا

بشكل مغاير لكنه لا يختلف في أهدافه . ففرنسا طرحت ما يعرف تاريخياً بالظهير البربري ، وهي تريد بذلك النظام وبالتسمية التي يحملها أن تدخل انشقاقاً يقسم عنصر الإنسان في المغرب بوجوده البشري وثقافته وحضارته وانتمائه إلى أرومة واحدة إلى عنصرين أحدهما أصلي والآخر وافد ، وقد اعتمدت على ما مهدت له المدرسة التاريخية الفرنسية وبعض الاتجاهات في مدارس الاستشراق الفرنسية ، ومن الأسف أن تحمل تلك الدراسات اسم الاتجاه الاستشراقي الاشتراكي ، كان في مقدمة من روجوا له "جاك بيرك" أسوأ من كتب عن الظهير البربري ، بل هو صاحب الفكرة في أصلها أوجدها وقدمها لتكون سياسة لفرنسا في المغرب تمتد آثارها إلى الجزائر عندما كان يعمل مديراً لمكتب الحاكم العام الفرنسي للمغرب ، وكان في مجال آخر صاحب فكرة أسوأ منها عندما أنشأ كرسي الدراسات البربرية بجامعة السوربون فيما يعرف " بالكلية الفرنسية " .

وبقدر ما قبل الإطار الرسمي للسلطة الخاضعة ، الحماية المزدوجة للمغرب وقبل الظهير البربري كنظام اجتماعي وسياسي وتشريعي ، يقيم التجزئة والتقسيم بين أبناء الشعب الواحد ، فإن عبد الكريم الخطابي قاد ثورة الريف وقوض نظام الإقطاع فيه وأعلن قيام الجمهورية وأقام أو تجارب الإصلاح الزراعي في أكثر المناطق كثافة سكانية وتقاليد ثقافية لعرب الهجرات القديمة ، رافضاً فكرة الظهير وسياسة التفرقة والتمييز في المغرب والريف وكان هو نفسه أحد سكانه .

تماماً كما فعل المجاهد سليمان الباروني وهو يقود حركة المقاومة ضد الاستعمار الإيطالي باسم العروبة والإسلام في جبهة تمتد من " سواني بن يادم "حتى الجبل الغربي ، ويعلن قيام الجمهورية الطرابلسية في تاريخ وزمن سابقين ، ويتمسك كل منهما الباروني والخطابي بالزى الذي يرتديه عرب الهجرات العربية القديمة في الجبل وفي الريف . الأول كان يرتدي الجرد والبرنوس والثاني يرتدي "جلابية" الفلاحين البسطاء المقلمة بالعمامة البيضاء المحيطة بالرأس ، وكلاهما رفض العيش تحت حراب المحتل وفضل النفي أو الهجرة والاغتراب قبل أن تخرج أفاعي الخيانة من جحورها وبعد أن تشتت سمومها فتكاً بجسم المقاومة تمهد الطريق للمحتل بمبررات وذرائع صاغها هو ولم تكن من منطق أي منهما .

ومرة أخرى يستحضر الإنسان من الذاكرة مكونات تلك الصلة التاريخية العميقة للإنسان

بأرومة واحدة ودين واحد ولغة وثقافة واحدة حملها الإنسان مهاجراً عبر أدوار متلاحقة من التاريخ من موطن الهجرات الأول الجزيرة العربية، فعبد الكريم الخطابي كان يقول في خطبه التعبوية للمقاتلين في الريف " إننا نقاتل الأسبان والفرنسيين هنا في الريف لكي تقوى الجمهورية في طرابلس وتنتصر على الإيطاليين ".

* **إخماد الثورة والنفي**

بعد سنين طويلة من المعاناة والمقاومة لجيشين أحدهما فرنسي والآخر أسباني جمع بينهما ضرورة القضاء على ثورة الريف، لدعم نظام الحماية وخشية أن تمتد الثورة إلى بقية الأقاليم الأخرى من المغرب، فجنرالات الحملة الفرنسية الأسبانية على الريف يدركون أن لشعب المغرب تجارب عميقة في الثورات، وقيام نظم حملت مسؤولية تعزيز حكم العرب في الأندلس، وأكثر من ذلك صده للحرب الصليبية التي قادها الأسبان والبرتغاليون وممالك المتوسط المسيحية الأخرى المتعصبة على الثغور العربية الإسلامية على امتداد المتوسط شملت المغرب والجزائر وطرابلس والإسكندرية والمنصورة.

أمام سياسة الحصار وقطع المؤن وعزل الريف، التي سارت بشكل متواز بما تسميه تجارب الغرب الاستعمارية سياسات التهدئة، تمكنت الحملة الأسبانية الفرنسية المشتركة من إخماد ثورة الريف بالقوة وإلقاء القبض على المجاهد عبد الكريم الخطابي ونفيه إلى جزيرة الرينيون، تمكن بعد سنين من الاعتقال والنفي من الهرب ولجأ إلى القاهرة، عاش فيها حتى مات على مبدئه، كان وجوده بمصر حضوراً جسدياً وتجربة نضالية حية ومكان حج لكل المناضلين من الأجيال اللاحقة من ثوار تونس والجزائر والمغرب. إن شخصية عبد الكريم الخطابي المتسمة بالبساطة والتواضع، وقوة العزم والتصميم، أجبرت ألد أعدائه على الاعتراف به قائداً لثورة أرعبت الأسبان والفرنسيين فكان وصف الجنرال جور له "بالأسد" علامة تقدير انتزعها منه رجل بحجم الخطابي.

هنا كما نرى يبرز عنصر المقارنة كعامل مشترك بين تكفر بن إينلس وعمر المختار وعبد الكريم الخطابي وسليمان الباروني من رموز المقاومة الذين ثاروا على روما بالأمس، ومن ورثوا تجاربها، فرنسيون أو إيطاليون أو أسبان في تاريخ لاحق.

وأكثر من ذلك، وذلك ليس من باب الصدف أن يخوض تجربة كفاح جيش التحرير ضد فرنسا ونظام الحماية، بعد أن عزلت فرنسا محمد الخامس ونفته ونصبت مكانه عميلاً هو السلطان الجلاوي، أقول أن يخوض تلك التجربة ريفي من نفس المنطقة ومن نفس الانتماء بروح نضالية وثقافة عربية إسلامية معلم مثلما كان عبد الكريم الخطابي هو المناضل محمد الفقيه البصري.

ذلك هو القانون الذي يلثغ بترديد نقيضه المحللون القابعون في أقبية الفكر الكنسي المظلمة العفنة اليوم، وهم قعاة، وقد أدرك عبد الكريم الخطابي وهو يتحدث عن وحدة العدو ووحدة أهداف من يقاتلونه وهو في الأساس الغرب، وقد جاء يحمل ادعاء رسالة تمدين وتحرير وتحضير للسكان المحليين من أثقل سلاسل كبلت كاهل البشرية متمثلة في الإسلام، كما يقول أكبر غلاة الصليبيين المتعصبين "ارنست رينان" وذلك عين ما تدعيه قوات العدوان الأمريكي والبريطاني على شعب العراق اليوم بنفس اللهجة، وبنفس الخطاب، وبنفس الادعاء الأخرق، للتفرقة بين أبناء الشعب الواحد شيعة وسنة في العراق، وعرباً وبربراً أو أمازيغ في المغرب، وكأنما العدوان والاحتلال يستهدف عنصراً دون الآخر، وإن آلة العدوان تفرق فيمن تقتل بين من هو شيعي وسني، في العراق، وبين من هو عربي وعربي في المغرب أحدهما قديم في وجوده والآخر حديث العهد نسبياً، يجمعهما المنبت ومواطن الهجرة الأولى ومكونات اللغة والتاريخ حملت ثقل وغثاثة لغة أهل اليمن كما يقول الهمداني أو فصاحة غيرهم من عرب الجزيرة.

نظرة تقييمية لدور المرأة في البلاد العربية

د. عامر رمضان أبو ضاوية
أستاذ العلوم السياسية بجامعة الفاتح

تمهيد:
المرأة هي المرأة في جميع المجتمعات الإنسانية المتخلفة سواء في الماضي أو في الحاضر ...

فهي كائن بشري مقهور، وإن اختلفت بعض مظاهر هذا القهر في مجتمعاتنا العربية الإسلامية عنها في المجتمعات المتخلفة الأخرى، وهذا بالطبع لاعتبارات متعلقة بالدين الإسلامي من ناحية، وبالمجتمعات الفكرية الإسلامية من ناحية أخرى ...

هذه العبارة التمهيدية يمكنها أن تحدد الخطوات البحثية التي سنسير عليها في هذا البحث .. حيث سنبدأ أولاً بالتأهيل النظري لظاهرة قهر المرأة في المجتمعات المتخلفة على وجه العموم، ثم نبين أوجه هذا القهر، ثم نحاول أن نتعرف على مدى فعالية المرأة في البلاد العربية على وجه الخصوص سواء في عصر الجاهلية أو في عصر الإسلام، ثم نركز على الدور الوظيفي للمرأة في الإسلام كدين مُنزل من السماء، ثم نوضح كيف بنى الإنسان العربي المعاصر (الرجل) رأيه في مسألة المرأة من حيث دورها وفعاليتها ... محاولين في النهاية إبراز أهمية الحاجة إلى إعادة صياغة مفهوم العلاقة بين الرجل والمرأة لتفعيل التنمية السياسية التي نرمي إلى تحقيقها ...

وفيما يلي عرض مفصل لكل من هذه النقاط :

1- التأهيل النظري لظاهرة قهر المرأة في المجتمعات المتخلفة على وجه العموم :

المرأة هي المثال الحي لوضعية القهر الذي تعيشه بلادنا العربية المتخلفة ... فإذا كنا قد " أشرنا مراراً " إلى ظاهرة تخلف بلادنا العربية وحاجتها إلى الخروج من هذه الوضعية بالتنمية الشاملة على وجه العموم ، وبالتنمية السياسية على وجه الخصوص ... فمن الملائم هنا أن نؤكد على أن ثمة حقيقة علمية قد أظهرتها العديد من الدراسات السيكولوجية المعاصرة [1]، وهي أن التخلف يبدو في شكل متكرر في جميع المجتمعات المعنية ألا وهو هدر قيمة الإنسان هدراً جسدياً ومادياً ومعنوياً ، ومن ثم في شكل قهر لا حماية للإنسان منه ولا ضمان له ضده ... وكل هذا وذاك بسبب اعتباط الطبيعة وتسلط الحكام !

إن موقف الإنسان المتخلف من وضعية القهر والاعتباط هذه هي التي تقف وراء ما يعانيه من عقد النقص والعار والمهانة والاستكانة وفقدان الثقة بالنفس والجماعة ... وبالتالي وخاصة ما نلاحظه عليه من رضوخ استسلام أحياناً أو من عدوانية مفرطة أحياناً أخرى ....

وكأن لسان حالنا يريد أن يقول: إن القهر الاجتماعي الذي يعيشه الإنسان المتخلف هو الذي يقف وراء كل المآزق الحياتية ، وأنه كلما زادت الضغوط الخارجية عليه برزت الحلول الاستسلامية والانكفاء على الذات ... أو اللجوء إلى السيطرة الخرافية على المصير ... أو الذوبان في التسلط ...

أما حين تتأكد له قوى الدفاع والمجابهة بعض الشيء ، فإن أول ما يبرز هو الحلول العنيفة التي كثيراً ما تتخذ أشكالاً عديدة ... من هذه الأشكال : صياغة العلاقة بين الرجل والمرأة صياغة ظالمة ... حيث نلاحظ أن الرجل من خلال دفاعه عن نفسه يتهرب من مأزقه الوجودي بصب هذا المأزق على المرأة عن طريق تحميلها كل مظاهر النقص والمهانة التي يشكو منها ، سواء بسبب علاقته بالمتسلط القاهر أو بسبب الطبيعة المعتبطة . لهذا نجده يفرض على المرأة غبناً فوق غبن في المجتمع المتخلف ... ومن هنا صارت المرأة المتخلفة محطة لكل إسقاطات الرجل السلبية والإيجابية على حد سواء ... ومن هنا

نجدها تدفع المجتمع برمته إلى أقصى حالات التخلف والقهر من خلال ما تغرسه في نفوس أطفالها من خرافة أو انفعالية أو رضوخ .

نستنتج مما تقدم أن الخصائص النفسية لشخصية الإنسان المتخلف - رجلاً كان أم امرأة - هي التي تقف وراء الكثير مما نشاهده من عقبات تعوق عمليات التغيير الاجتماعي ومن ثم التنمية على اختلاف أشكالها ، (سياسية ، اقتصادية ، شاملة ...) .

2- أوجه القهر الذي تتعرض له المرأة في المجتمعات المتخلفة ووسائلها الدفاعية لمجابهة مأزقها:

إن المرأة في جميع المجتمعات المتخلفة - عربية أو غير عربية - تتعرض للقهر ... غير أنها لا تستكين له وإنما تحاول بشتى الوسائل أن تدافع عن نفسها كي تخرج من مأزقها .... ولعل من أبرز ما تعانيه المرأة - في ظل التخلف من أشكال القهر هو استلابها اقتصادياً وجنسياً وعقائدياً ، واختزال كيانها بحيث لا نرى منها سوى ما نريد أو ما نحتاج ... ولعل أيضاً من أبرز ما تلجأ إليه المرأة للدفاع عن نفسها أو للخروج من مأزقها هو اعتدادها بأنوثتها وسيطرتها الخفية على الرجل !

وتفصيل ذلك هو كالآتي:

أ) أوجه القهر التي تعاني منها المرأة في ظل التخلف:

(1) استلابها اقتصادياً :

ونعني بهذا الاستلاب ما تتعرض له المرأة من تبخيس دائم لجهدها إلى حد أن الرجل يسمح لنفسه أن يستغل جهدها دون مقابل أحياناً أو بمقابل هزيل أحياناً أخرى .

غير أن هذا الاستلاب لا يتوقف عند هذا الحد ، بل يمتد ويتفرع إلى أوجه عديدة كتبخيس إمكانات المرأة والدفع بها إلى مواقع إنتاجية ثانوية أو بعيدة عن الخلق والإبداع ، أو طمس هذه الإمكانات من خلال حرمانها من فرص التدريب الملائمة ، وغرس عدم الثقة بإمكاناتها ... مما يجعلها تقتنع بمكانة مهينة هامشية .

(2) استلابها جنسياً:

ونعني بهذا الاستلاب ما تتعرض له المرأة من اختزال لجسدها

وجعله مجرد جنس أو أداة للجنس أو وعاء للمتعة الأمر الذي ينطوي على تضخيم البعد الجنسي لجسد المرأة بشكل مغرض أو على حساب بقية أبعاد حياتها ... إلى حد أنه صار مادة غنية للتشريعات في هذه المجتمعات ... فنجد كل تشريع بدأ يحدد المسموح والممنوع من تحركات الجسم وتعبيراته ومتطلباته ... وهكذا يمتلك الرجل جسد المرأة ليس من خلال رضاها وموافقتها وإنما بقوة القانون الذي يفرض القمع على هذا الجسد وعلى إمكاناته التعبيرية .

(3) استلابها عقائدياً:

نرى أن هذا الشكل من أشكال استلاب المرأة هو من أخطر الاستلابات التي تعرضت وتتعرض لها المرأة في المجتمعات المتخلفة ... إذ يعني دفع المرأة إلى قبول وضعية القهر التي فرضها عليها الرجل كجزء من طبيعتها كي ترضى بها ، وتكييف وجودها تبعاً لها ، بحيث نجدها تقاوم تغييره ، وكأن هذا التغيير هو خروج على طبيعة الأمور وعلى اعتبارات الكرامة والشرف !

من صور هذا الاستلاب إقناعها بدونيتها تجاه الرجل ، والإيقان بأنها كائن قاصر جاهل ثرثار عاطفي لا يستطيع مجابهة أي وضعية بشيء من الجدية أو المسؤولية .

(4) اختزال كيانها:

نرى أن اختزال كيان المرأة هو النتيجة الحتمية لكل أشكال الاستلابات السابقة ، حيث يتمثل هذا الاختزال في أحد أمرين :

إما تبخيس قيمتها أو المبالغة في قيمتها ... والنتيجة واحدة في الحالتين إذ - نحن معشر الرجال - لا نرى من المرأة إلا ما نريد أو ما نحتاج ...

ويطلق علماء النفس على الحالة الأولى اصطلاح " الاختزال السلبي" كما يطلقون على الحال الثانية " الاختزال الإيجابي " .

وسنتحدث بكلمة موجزة عن كل من هاتين الظاهرتين السيكولوجيتين ، وعلاقتها بالرجل ، لتكون الصورة أوضح:

أ - الاختزال السلبي لكيان المرأة وعلاقته بالرجل:

هنا لا يرى الرجل في المرأة إلا المرأة القاصرة أو المرأة الخادمة أو المرأة الغاوية أو المرأة الماكرة ... وغير ذلك من نعوت يلصقها بها ليبرر ما يمارسه عليها من قهر ... .

فهو مثلاً عندما ينعتها بأنها قاصرة ، فهو يعني أنها لا تعرف كيف تتحمل مسؤولية وجودها ، وبالتالي فلابد بعد ذلك من وصاية عليها أو إعالة لها ... وهي لقاء ذلك تدفع الثمن في شكل تبعية كلية للرجل .

وعندما ينعتها بأنها " خادم " من خلال استدعائه تلك القصة التقليدية عن خلق المرأة ، فهو يرمي إلى تسخيرها لخدمته وهي كبيرة ... أي كي تخدمه ... سواء خدمة الأخوة وهي صغيرة أو خدمة الزوجة وهي كبيرة ... وإذا كانت المرأة خادماً فمن الطبيعة إذن أن يستغلها الرجل دون تورع .

وعندما ينعتها بأنها " غاوية " ... فهو يرى أنها مجرد جسد يُشتهي أو مجرد وعاء جنسي أو إناء لذة ... له أن ينبذها أو يزدريها بعد قضاء وطره ...

وفي ظل هذا التصور ، نجدها تُشتهى ولا تُحترم ، وأنها صورة للشيطان وسبب كل الآثام !

وعندما ينعتها بأنها " ماكرة " ، فهو يريد أن يسقط عليها كل تناقضاته ، ويحملها مسؤولية كل صراعاته العلائقية ... فنجده لا يأمن لها ويحترس من كيدها ودسائسها ... .

في ظل هذه الصور وغيرها ، ينطلق الرجل في حرية ضد المرأة على أنها حرب لمحاربة الشر ونشر الوفاق بين الأشقاء .

ب- الاختزال الإيجابي لكيان المرأة وعلاقته بالرجل :

وعلى النقيض من الحالات السابقة ، قد يرفع الرجل من قدر المرأة ولا يحط منه ... فهو يرفعها إلى مرتبة مثالية ويحيطها بهالة من التقدير تبلغ حد التقديس أحياناً ...

ولعل أشهر أمثلة هذا الاختزال ... المرأة " الأم " ... محط أساطير التفاني والتضحية ، والحب الذي لا ينضب ، والرجاء الذي لا يخيب ، والملاذ الأمين ، والعزاء الأكيد حين تقسو الحياة ويعز الصديق ... ومن الأمثلة أيضاً لهذا الاختزال ... مرأة

الوجاهة الاجتماعية... الوجاهة لجمالها أو لحسبها أو نسبها... فتصير مجرد دمية يتباهى الرجل بملكيتها أمام الآخرين.

ونرى في هذه الأمثلة، وغيرها كثير، أن الرجل استطاع باختزاله هذا للمرأة أن يحرمها من فرصة عيش كيانها بكل أبعاده وتنوعاته وتناقضاته... وهذا من أقسى صور القهر الذي تعرضت له المرأة أو تتعرض.

إن النتيجة المنطقية هي أنه لابد للمرأة أن تتمرد على الرجل الذي سخرها - دون أن يشعر بالإثم تجاهها - لتحقيق أغراضه... ولكن الذي يحدث أنه عندما يفاجأ الرجل بهذا التمرد، يتصنع البراءة، ويضع اللوم على المرأة وطبيعتها. فيدافع عن نفسه بمزيد من اختزاله لها وتبخيسها... فيستبدل الاستكانة بالتمرد والصراع... وفي هذا قهر جديد.

فالاستكانة أسوأ من التمرد... لأنها بالتحديد تتخذ طابع التوافق الزائف بين الرجل والمرأة، كتوافق السيد والعبد، الذي هو مأساة أخرى من مآسي القهر في المجتمعات المتخلفة على وجه العموم والمجتمعات العربية على وجه الخصوص.

ج- دفاع المرأة ضد وضعية القهر وعلاقته بموضوع هذه الدراسة:

إذا كانت المرأة هي أكثر الكائنات غبناً وقهراً... فهذا لا يعني أنها لا تحاول الدفاع ضد وضعية القهر هذه... تلك الوضعية التي فرضها عليها الرجل... فهي أبداً لا تظل فاترة أو مستسلمة، وإنما تلجأ إلى العديد من الأساليب الدفاعية لمجابهة مأزقها... وهي عموماً أساليب تتراوح بين الاعتداد بقيم أنوثتها وخصائصها، وبين سيطرتها الخفية على الرجل... وتفصيل ذلك هو كالآتي:

1- تضخيم قيم الأمومة والأنوثة والمظهر:

فنجد أن المرأة تسعى باستمرار إلى تضخيم قيمتها كأم أو كأنثى أو كعارضة جاه أو ثراء:

فوظيفة الأمومة تتضخم اجتماعياً لدرجة مفرطة في المجتمع المتخلف... فتصبح المرأة بموجب هذه المكانة قيمة تندفع بها إلى التمركز حول ذاتها أي حول جسدها الخصب الذي ينجب الذرية للزوج والأسرة... وهي بهذا

تشعر بالرضى الداخلي لما تحاط به الأمومة عادة من معاني السمو والقدسية ووظيفة الأنثى تقلب بها الأدوار ... فهي تحول التحريم الذي فرضه الرجل على جسدها وعلى حرية حركته وتعبيره عن رغباته إلى سلاح للسيطرة على ذات الرجل الذي صار محروما جنسياً ... فتجعله يتلهف إليها كما يتلهف الطفل إلى حنان الأم وحليبها ... وهي بهذا أيضاً تشعر بالانتصار ودورها كعارضة جاه أو ثراء من خلال ما تلبس أو تتحلى به يجعلها تشعر بالنشوة إلى الحد الذي يلهيها عن قيمتها الذاتية وثرائها العاطفي أو العلائقي.

ومن جانبنا نرى أن هذه الأساليب وإن كانت المرأة تجد فيها التعويض والعزاء إلا أننا يجب ألا ننسى أن هذا التعويض هو بدوره يدخل ضمن حالات الاستلاب الذي تتعرض له المرأة جنسياً وعقائدياً على النحو السابق ذكره ... فهو أيضاً من صور القهر ...

2- السيطرة غير المباشرة (أو الخفية) على الرجل :

كذلك من الأساليب الدفاعية التي عادة ما تلجأ إليها المرأة للخلاص من وضعية القهر التي فرضها عليها الرجل أن تستغل ضعفها الظاهري كسلاح للتمويه على قوتها الضمنية ... فهي توهم الرجل أنه هو الذي يمتلك زمام الأمور ، كي تحركها هي - بشكل مستتر - تبعا لرغباتها ... ومن ذلك أيضاً ، سلاح الاحتيال والمكر ...وفي الحقيقة ، فإننا نرى أن علاقة المكر هذه ما هي إلا نتاج مباشر لوضعية القهر ، وإنها مظهر من مظاهر التشويه الذي كان لابد أن يصيب أي علاقة قوامها السيطرة والرضوخ .

وأخيراً وليس آخراً - قد تلجأ المرأة " المقهورة " في حربها ضد الرجل إلى سلاح الابتزاز أو سلاح التنغيص ... فنجدها تطارد الرجل بلا هوادة حتى تسمم حياته وتقضي على سكينته ، إلى أن تخرجه عن طوره لتدفع به إلى الهروب بعيداً عن العلاقة الزوجية التي فرضت عليها القهر وحتى إذا عجزت عن استخدام أيٍّ من الأسلحة الهجومية السابقة ، فهي لا تفقد القدرة على رد الفعل الدفاعي ، كأن تحتمي مثلاً بالمرض أو تلجأ مثلاً إلى السيطرة

الخرافية على المصير بالسحر أو الشعوذة ....

ونرى أن جميع هذه الدفاعات ما هي إلا تعبير عن حالات مرضية لأنها وليدة علاقة مرضية بين الرجل والمرأة ... ونعني بذلك علاقة التسلط والقهر.

ونرى أيضاً، تحت هذه الظروف، أنه لا يمكن لإنسان في هذا العالم أن يصل إلى التوازن النفسي إلا إذا تحرر أولاً من وضعية القهر الذي فرض ويفرض عليه ... ومن ثم لا يمكن للرجل أن يتحرر إلا بتحرر المرأة ... ولا يمكن للمجتمع أن يرتقي إلا بتحرر أكثر فئاته غبناً ولعل هذه هي المعضلة الأساسية التي نسعى إلى حلها من خلال طرح هذه الدراسة.

3- مدى فعالية المرأة في البلاد العربية في الجاهلية والإسلام:

مسألة المرأة في الفكر العربي مازالت تدور في اعتقادنا حول سلوكها وزينتها ولباسها وليس حول دورها وفاعليتها الوظيفية.

ومن ثم فإن الاهتمام بأمر المرأة لم يكن جاداً ولا هادفاً إلى منحها دورها الحقيقي بقدر ما يهدف في كثير من الأحيان إلى تعميق النظرة المتخلفة إلى المرأة ودورها حتى تكون المرأة مطيعة للرجل ويكون مكانها مجتمع النساء، مجمع الحريم الجواري.

أي أن فاعلية المرأة في المجتمع العربي كانت تتحدد بتحديد علاقة الرجل بالمرأة في الفكر العربي، أي علاقة الرجل بالمرأة قبل الإسلام وبعده:

أ) علاقة الرجل العربي بالمرأة في العصر الجاهلي[2]:

ففي العصر الجاهلي نجد أن علاقة الرجل العربي بالمرأة قبل الإسلام يمكن استخلاصها من النص القرآني التالي:

" وإذا بُشّرَ أحدُهُم بالأنثى ظلَّ وجهُهُ مُسوداً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سُوءِ ما بُشِرَ به أيُمسكُهُ على هُون أم يَدُسُهُ في التراب ألا ساء ما يحكمون "[3].

فمن الواضح من النص القرآني أن مصير المبَشَر به إذا كان امرأة هو الموت وبصورة قطعية وإذا ما أضطر إلى تركها على قيد الحياة ففي حالة محتقرة ومهانة أي موت كذلك حتى وإن كان موتاً نفسياً.

إذاً العلاقة بين الرجل والمرأة في العصر الجاهلي كانت علاقة غبن ومهانة. هذه العلاقة لم تكن شخصية

بين الرجل والمرأة فقط بقدر ما تعارف عليه العرب وارتضته تقاليدهم وأخلاقهم الاجتماعية ، أي أن المجتمع العربي في عصر الجاهلية صور المرأة بمنبع الرجس والنجاسة وأصل الشر والبلاء .

فالعقل العربي في عصر الجاهلية لم يجرد المرأة من كل حقوقها فقط بل جردها حتى من خصائص الإنسانية .

ومن ثم رفض الإنسان العربي في عصره الجاهلي أي علاقة مع المرأة أصلاً ، حيث كان يكره ولادة البنات ويجعلها لله وهو ما تمثل في وأد البنات، حيث أبقى لنفسه الذكور فقط ففي ولادة البنات دلالات العار ، ومآل الفقر ، فالبنات " لا يقاتلن ولا يكسبن وقد يقعن في السبي عند الغارات فيجلبن العار ، أو يعيش كلاً على أهليهن فيجلبن الفقر " [5].

فالعلاقة بين الرجل والمرأة والمتمثلة في عملية الزواج تحديداً لم تكن منظمة في المجتمع العربي الجاهلي، بل كانت في شكل إباحية أي غير محظورة ليس في العدد فقط بل حتى في إطار القرابة والنسب .

فالمرأة العربية في العصر الجاهلي بشكل عام لم يكن لها أي دور يذكر (ناهيك عن الحقوق) بل كانت عبارة عن أداة من الأدوات التي يقتنيها الرجل العربي ومن ثم سادت العلاقة التي مثل فيها الرجل دور المخير أي دور المالك والمرأة دور المسير، أي دور البهيمة ، حيث كانت المرأة تباع وتشترى وتؤجر وتورث كسلعة أو كبهيمة .

ب) علاقة الرجل العربي بالمرأة في عصر الإسلام :

ثم جاء الإسلام مستنكراً للمجتمع العربي الجاهلي ، المجتمع الذي تسيطر عليه القيم الذكورية المنحرفة عن المثل السماوية العليا والمعبرة عن أمراض نفسية شائعة ومعممة . جاء الإسلام لتصحيح التصورات والأوضاع الجماعية المنحرفة ، بدءاً بتصحيح العلاقة بين الرجل والمرأة وهو ما ورد في النص القرآني التالي بخصوص هذه العلاقة في قوله سبحانه وتعالى :

" يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ... " [6].

أي إن حكمة الله اقتضت أن تكون قاعدة الحياة هي الأسرة من ذكر وأنثى ، بمعنى الأنثى أصيلة في نظام الحياة بمثل

ما هي أصالة الذكر ، "بل ربما كانت أشد أصالة لأنها هي المستقر "[7] .

وهو ما نجده في النص القرآني التالي:
" هُوَ الذّي خَلَقَكُم مِن نّفسٍ وَاحِدِة وَجَعَلَ مِنهَا زَوجها ليسكن إليها " .[8]

بمعنى هي السكن وهي الاطمئنان وهي الأنس وهي الاستقرار حتى تتحقق حياة التراضي بين الرجل والمرأة وليست حياة ممارسة سلطوية للرجل على المرأة .

فعندما كرم الله الإنسان استتبع هذا أيضاً تكريمه للأنثى ووصفها بأنها شطر النفس البشرية [9]. أي أنها صنو الرجل وشطر نفسه[10].

إذا العلاقة بين الرجل والمرأة التي نص عليها الإسلام هي علاقة متساوية في صورة تكاملية وليس تماثلية ، بمعنى خلق التناسق في أداء الوظائف والأعمال لكل من الرجل والمرأة ووفقاً للقابلية والاستعداد .

لذلك جاء النص القرآني التالي مكملاً للنصين السابقين وبذلك تكتمل صورة العلاقة بين الرجل والمرأة في قوله تعالى:
" ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ... " [11].

4- دور المرأة الوظيفي في الإسلام:

تمثل دور المرأة الوظيفي في الإسلام فيما يلي:

أ) المساواة بين الزاني والزانية من حيث درجة العقوبة وكيفية تنفيذها وهي مائة جلدة لكل منهما والتشهير بهما وبشهادة طائفة من المؤمنين على كل منهما ، وفي هذا الصدد نورد قول الحق سبحانه وتعالى :
" الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين "[12] .
وكذلك الحال بالنسبة لعقوبة السارق والسارقة:
" والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما "[13].

ب) المساواة بين الرجل والمرأة أمام القانون وفي جميع الحقوق المدنية حتى وإن كانت متزوجة فلها شخصيتها المدنية الكاملة .

ج) المساواة في استقلالية التملك فكما يكون للرجل أن يتملك تملكاً خاصاً كذلك تكون للمرأة ثروتها الخاصة

بـها والمستقلة عن ثروة زوجها .

وهو ما أقره الإسلام بقوله تعالى:

"للرجل نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن " [14].

ولا يجوز لـه أخذهـا أو التصـرف فيها إلا بـرضاها وهذا ما يتضح في قوله تعالى:

" ولا يحـل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً " [15].

د) المساواة بين الرجل والمرأة في تنفيذ عملية خطوات الزواج بـدءاً باستئذانها وأخذ موافقتها وحقها في التعرف والاختيار إلى حقـها في طلب العصمة الزوجية حسـب النص الوارد في قوله تعالى:

" وإن طلقـتموهن من قبـل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح " [16].

هـ) كما أقر الإسـلام حـق المرأة في أهلية التعاقد في البـيع أو الشـراء وفي أهلية تحمل الالتزامات وحقها في المشـاركة السياسـية وحقـها في تولي المناصب أي حقها الكامل في المشاركة الفعلية في المهام الوظيفية [17].

مما تقدم يتضح لنا أن الإسـلام قد أقـر للمرأة دوراً فاعلاً واعترف لها بـهذا الدور من قبـل الهيئة الحـاكمة وهو ما يتجسد في اعتراف عمر بـن الخطاب على سبيل المثال للمرأة التي شـاركت في نقـاش موضوع المهر، حيث قـال **" أصابت امرأة وأخطأ عمر "** [18].

فهذا ثاني خليفة على الأمة الإسـلامية بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام يعترف وعلى الملأ بـأفضلية رأي امرأة عربية على رأيه .

فما هو يا ترى رأي الإنسـان العربـي المعاصر في مسـألة المرأة من حـيث دورها وفاعليتها ؟

5- رأي الإنسان العربي المعاصر في مسألة المرأة من حيث دورها وفاعليتها:

من المعروف أن المجتمعات العربـية مازالت عبـارة عن مجتمعات تسـيطر على تركيبـتها قـيم ومعايير وتقـاليد ذكورية. هذه الوضعية الاجتماعيـة فـي الوطن العربـي والمطبـوعة بالطابـع الأبـوي جعلت من الصعب على المرأة أن تمـارس دورهـا وفاعليتهـا ، فهـذه

المجتمعات العربية الأبوية لم تتقيد بالنصوص القرآنية الداعمة لمكانة المرأة ودورها المكمل لدور الرجل الهادف إلى خلق مجتمع متوازن، متناسق وخال من رواسب الجاهلية بل استبدلتها بنصوص قانونية وتفسيرات فقهية إسلامية ذكورية [19]. لكي تحط من مكانة المرأة وتصورها في علاقة دونية مع الرجل ، لتسجيل المواقف والانتصارات كما هو الحال في عصر الجاهلية .

وإذا كانت هذه الصورة لم تعد مطابقة لواقع المرأة العربية اليوم فهذا يسري فقط على المرأة العربية في مجتمعات المدن . ففي المجتمعات العربية التقليدية مازالت العائلة هي التي تقرر مصير الفتاة والشاب وخصوصاً بالنسبة للزواج وتعتبر الفتاة هي العرض ، وإن هذا العرض يخص كل العائلة . باختصار يمكن القول بأن دور المرأة في المجتمعات العربية التقليدية يكاد يكون معدوماً ، وهذا راجع إلى أن الأفكار السائدة في هذه المجتمعات هي أفكار الرجل "بصفته عنصر الإنتاج الرئيسي وبصفته الأكثر خبرة وتعليماً [20]. والمرأة لا تشكل إلا تابعاً خاضعاً لجميع آرائه ولا تملك من حريتها الاجتماعية إلا القدر الضئيل والذي لا يمكنها من التعبير عن ذاتها وتطلعاتها وآمالها في التعبير [21].

ومن ثم فإن مسألة العلاقة بين الرجل والمرأة مازالت تتمرجح في الفكر العربي بين التراث العربي الجاهلي وبين التراث العربي الإسلامي من جهة وبين التناقض في التركيبة النفسية للشخصية العربية فيما يخص قضية الجنس من جهة أخرى . وما انتشار البغاء وظاهرة الغيرة على المرأة في المجتمعات العربية الاخير دليل على هذه التركيبة المتناقضة في الشخصية العربية [22].

وهناك كثير من التفسيرات الفقهية الإسلامية العربية الذكورية التي تخطئ فتنسب للإسلام كثيراً من السلوكيات والعادات الضارة من أجل الحط من دور المرأة وفاعليتها والإسلام منها برىء ، أي أنهم ينسبون إليه ما ليس فيه . من هذه التفسيرات نذكر مفهوم تعدد الزوجات كحق مكتسب للرجل يبيح له أن تكون في عصمته أربع نساء في وقت واحد . حيث أصبح هذا المفهوم من المفاهيم المسكوت عنها لإحالة الحياة الزوجية إلى غاية للذة الجنسية وبأساليب

حيوانية كالتنقل المزاجي بين الزوجات واستبدال البعض منهن بمن هي أصغر سناً وأكثر حيوية [23] وذلك من منطلق التأكيد على صيغة النص من حيث العدد فقط مثنى وثلاث ورباع ....

ولو كان الأمر كذلك لما اشترط ربنا سبحانه وتعالى ضرورة العدل بين النساء بقوله تعالى:

" ... فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا " [24].

وإنما أضاف:

" ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم " [25].

أي أن الله أجاز تعدد الزوجات ولم يحرمه من حيث المبدأ ولكن قيده أي رخصه برخصة إسلامية من حيث الممارسة في الحالات الواقعية ، كحالة مرض الزوجة بمرض لا يتيح للزوج أن يعاشرها معاشرة طبيعية، أو أن تكون عقيمة من حيث التكوين ، أو أن تكون قد تجاوزت فترة الإخصاب (والتي تقف في المرأة عادة عند سن الخمسين تقريباً) والزوج يرغب في الخلفة أو مازال يرغب في الخلفة حيث تمتد فترة الإخصاب عند الرجل حتى ما بعد سن السبعين أحياناً [26].

ومن الحالات الواقعية الأخرى كحالة اختلال التوازن بين عدد الذكور والإناث في مجتمعاتنا الإسلامية بزيادة عدد الفتيات الصالحات للزواج عن عدد الشباب المقبلين على الزواج التي يجوز فيها ممارسة هذه الرخصة أي رخصة الزواج بأكثر من واحدة . ثم يساق النص التالي بنفس الكيفية وفي صيغة مبتورة تركز على ما يمكن أن يحد من دور المرأة وفاعليتها . ومن ثم يتردد هذا الجزء من النص القرآني في شكل محاجة " الرجال قوامون على النساء " بينما يردد النص القرآني في صيغة متكاملة من حيث الأداء الوظيفي بقوله تعالى:

" الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ... " [27].

فالقوامة من حيث صيانة نواة المجتمع وهي الأسرة وحمايتها من التفسخ ، أي أن يكون الرجل أهل الإدارة المؤسسة

الأولى في الحياة الإنسانية كتأهيل داخل كيان الأسرة وليس كاستئثار بحق المرأة ومصادرة دورها وإلغاء شخصيتها[28] .

ومن العادات الضارة ، عادة تحجب المرأة العربية تحجبا كلياً لإعاقة حركتها وعادة ختان المرأة وتشويهها جنسياً .

فالحجاب [29] مثلاً لم يكن من إبداعات العرب بقدر ما هو من مظاهر الزي عند نساء الإغريق انتقل إلى العرب لاحقاً بعد أن حوره رجال الكنيسة في العصور الوسطى إلى حجاب للتحكم في سلوكيات المجتمع النسائي[30] .

وكذلك عادة ختان المرأة في الأصل عادة أفريقية أكثر منها عربية .

6- الحاجة إلى إعادة صياغة مفهوم العلاقة بين الرجل والمرأة لتفعيل التنمية السياسية :

إذاً فاعلية المرأة[31] تكمن في إعادة صياغة مفهوم العلاقة بين الرجل والمرأة في العالم العربي الراهن على أساس الاحترام والتقدير المتبادل بينهما والمنصوص عليهما في العقيدة الإسلامية كما جاء في قوله تعالى:

" ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة "[32].

حتى تصبح فاعلية المرأة من منطلق مكانتها الاجتماعية ودورها الوظيفي المكمل لدور الرجل ، وليس من واقع العنصر النوعي الذي هو الجنس .

فالمستقرئ لتاريخ الشعوب يدرك تمام الإدراك أن النظرة النوعية التي هي الجنس كانت المعول الأول الذي قضى على الحضارات القديمة كالحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية وتسبب في طرد العرب من الأندلس .

وأخيراً نقول:

الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعباً طيب الأعراق[33]

مصطلحات رئيسية	key Terms
مدخل التحليل الإحصائي	**Statistical Analytical Approach**
الحروب الصليبية من وجهة النظر العربية	Die Kreuzzuge aus arabischer Sicht

الهوامش

(1) راجع : د. مصطفى حجازي ، التخلف الاجتماعي ، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، لبنان ، 1998 ، ص 179 - 266 ونود أن نشير هنا إلى أن هذا المرجع قد استعنا به في بناء الفقرتين الأولى والثانية من هذا الفصل .

(2) العصر الجاهلي لا يعني الجهل نقيض العلم أو السفه نقيض العقل بل يعني العصر الذي لم تكن فيه لبلاد العرب عموماً جامعة أو نبي مرسل موحى إليه من الله ولا قرآن فيه من الآيات ما يكفل السعادة والخير العام للجميع.
فالجاهلية وصفها جعفر بن أبي طالب كناطق باسم المهاجرين إلى ملك الحبشة بقوله " أيها الملك : كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف " انظر السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية . تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية ، ص 85 .

(3) سورة النحل ، الآيات 58 ، 59 .

(4) وإذا الموءودة سُئلت بأي ذنب قُتلت . سورة التكوير ، الآيات 8 - 9 ، لدرجة أن المرأة كانت أحقر شأناً من الرقيق حتى بلغ الأمر بالآباء التخلص من بناتهم في قسوة ووحشية لا عهد للبشر بها من قبل إذ كانوا يدفنوهن وهن على قيد الحياة عجباً لهذه العقلية ، خاصة عندما نردد قول البارئ سبحانه وتعالى " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً " (النحل: 78) .
وللمزيد حول هذه السلوكيات الوحشية والعادات اللا أخلاقية كأن يسخر الرجل العربي مهما علا قدره نساءه في احتراف البغاء ، أو يبعث بزوجته إلى رجل آخر أو يتبادل عربيان ما لديهما من نساء ، انظر : أحمد حسين ، الإسلام والمرأة ، دار الشرق الأوسط للنشر ، القاهرة ، 1990، ص 6 - 7.

(5) السيد قطب ، في ظلال القرآن ، الطبعة الشرعية السابعة عشرة ، المجلد الرابع ، دار الشروق ، القاهرة ، بيروت 1992 ، ص 2178 .

(6) سورة النساء ، الآية 01 في آية أخرى "خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها" (الزمر : 6)، علاقة لا فضل فيها لذكر على أنثى أو أنثى على ذكر إلا بالعمل الصالح وقيام كل بواجبه كما جاء في قوله تعالى "يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" ، سورة الحجرات الآية 13 .

(7) السيد قطب : في ظلال القرآن ... ، ص 2178 .

(8) سورة الأعراف ، الآية 189 وكذلك قوله تعالى "والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً" (النحل 72).

(9) السيد قطب ، في ظلال القرآن ، ص 2178 .

(10) نفس المرجع ، ص 2178 .

(11) سورة النساء ، الآية 32 .

(12) سورة النور ، الآية 02 .

(13) سورة المائدة ، الآية 38 .

(14) سورة النساء ، الآية 31 .

(15) سورة البقرة ، الآية 229 .

(16) سورة البقرة ، الآية 237 .

(17) وللمزيد حول حقوق المرأة العامة والخاصة في الشريعة الإسلامية ، انظر ، أحمد حسين ، الإسلام والمرأة ، ص 12 - 14 .

(18) عبد الله عبد الدائم ، في سبيل ثقافة عربية ذاتية ، الثقافة العربية والتراث ، ص 136 .

(19) كالفكر الداعي إلى الفصل الكامل بين الجنسين والفكر المتطرف الداعي إلى اقتصار التعليم على الذكور فقط.

(20) فؤاد حيدر ، التنمية والتخلف في العالم العربي ، طروحات تنموية للتخلف ، ص 130 .

(21) المرجع نفسه ، ص 130 ، وكذلك سلوى الخماش ، المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف ، دار الحقيقة ، بيروت 1982 ، ص 56 . وتذهب (سلوى الخماش) إلى أبعد من ذلك في تحليلها لأسباب النظرة المغلقة إلى جهل المرأة ، حيث ترى أن المجتمع العربي بأسره يقيم مفاهيمه على أساس من الجهل والخرافة ، ويتساوى في ذلك (على رأيها) المتعلم وغير المتعلم ، حيث تتحكم في حياة الفرد الروحانيات والغيبيات (المرجع نفسه ، ص 40).

(22) انظر ، محمود الذوادي ، الجنس والإسلام ، مجلة المستقبل العربي ، السنة 10 ، العدد 99 ، أيار / مايو 1987 ، ص 164 ، محيي الدين صبحي ، ملامح الشخصية العربية في التيار الفكري المعادي للأمة العربية ، الدار العربية للكتاب ، لندن 1978 ، ص 68 .

(23) أبـو بـكر أحـمد باقـادر ، في مراد الذات والضرة ، تعدد الزوجات كما تراه المرأة ، مجلة الفكر العربي ، العدد 88 ، السنة 18 ، ربيع 1997 ، ص 194 .

(24) سورة النساء ، الآية 03 .

(25) سورة النساء ، الآية 129 .

(26) حسـب رأي الأطبـاء ، انظر ، موقــع ياهو على شبـكة الإنترنت ، ترتيب الأمر ، الموضوع ، الصحة - الطب - النساء والولادة - عدم الإنجاب (www.vahoo.com) .

(27) سورة النساء ، الآية 34 .

(28) السيد قـطب ، في ظلال القـرآن .... ، ص 648 ، ففي هذا الإطار يولي علماء الاجتماع اهتماماً كبيراً للفروقات الفردية بين الذكور والإناث ، حيث تأتي تفسيراتهم متبـاينة حـول هذه الفروقـات . فمنهم من ينطلق من الاعتبارات الاجتماعية التي ترتبـط بـالظروف البيئية مثل التنشئة والسلطة والقوانين التي تنظم حياة الأفراد بـمن فيهم الذكور والإناث على حـد سـواء ، ومنهم من ينطلق من اعتبـارات طبـيعية ذاتية ترتبط بالنواحـي النفسـية والعضوية التي تخص المرأة نفسـها ، وللمزيد حـول أدبـيات مسـألة التمايز بـين الذكور والإناث نشـير إلى أن هناك زخماً كبـيراً من الدراســات حاولت إبراز الأسباب التي تحول دون المشاركة الحقيقية للمرأة العربية نذكر منها الدراسة الغنية التي أعدها أحمد الأصفر واتبـع فيها أسـلوب التحـليل النظري والتطبيقـي بـاعتماد مدخل التحـليل الإحصـائي كمنهـج بحثي (Statistical Analytical Approach) ، انظر : أحمد الأصفر ، الشـروط الاجتماعية لعمل المرأة وأثرها على مسـتويات الأداء المهني في القــطاع الصناعي ، مجلة الهيئة القـومية للبحـث العلمي للعلوم الاجتماعية والإنسـانية ، السـنة الثانية ، العدد الأول، طرابـلس، الجماهيرية العظمى 1996 ، وكذلك دراسـة باقـر النجار حـول ، المرأة العربـية وتحـولات النظام الاجتماعي العربـي ، حـالة المرأة العربـية الخليجية ، مجلة العلوم الاجتماعية ، المجلد (13) ، العدد (4) 1985 .

(29) عبد الله عبد الدائم ، في سبيل ثقافة عربية ذاتية ... ، ص 169 ، ورد ذكر الحجاب (النقـاب) في القـرآن الكريم مرة واحـدة في قـوله "يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بـيوت النبـي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحـديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سـألتموهن متاعاً فاسـألوهن من وراء حـجاب ذلكم أطهر لقلوبـكم وقلوبـهن وما كان لكم أن تؤذوا رسـول الله ولا أن تنكحـوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما (سورة الأحـزاب ، الآية 53) ، هذه الآية تتحـدث عن نسـاء النبي صلى الله عليه وسلم ليس من منطلق ضعف ثقة الرسول بنسائه ولكن من منطلق مكانة نسائه

بقوله تعالى "يا نساء النبي لستن كأحد من النساء" (سورة الأحزاب، الآية 32) وحول الزعم والادعاءات الباطلة حول نزول هذه الآية ومحاولة تحويلها إلى قاعدة عامة في كل زمان ومكان وأن تتخذ ذريعة لإساءة الظن بالنساء وأن لا سبيل لصلاحهن إلا بالتداري خلف الحجاب، حول كل هذا وذاك وحول دواعي نزول هذه الآية وخصوصيتها، انظر: أحمد حسني، الإسلام والمرأة، ص 56 وما بعدها.

(30) من جراء تجنيد الكنيسة كافة الرجال لحروب الفرنجة التي يسميها المسيحيون بالحروب الصليبية، حيث تمكنت الكنيسة من تجنيد 26 ملكاً أوروبياً وما لكل هؤلاء الملوك من جنود. للمزيد حول الحروب الصليبية من وجهة النظر العربية، انظر إلى المصادر العربية المختارة من مكتبة الشرق لدار النشر ارتيمس والمترجمة إلى اللغة الألمانية من قبل:
فرسيسكو فبريلي (Francesco Gabarieli)
في إطار السلسلة العلمية لدار النشر الألمانية "كتاب الجيب" حسب الإصدار التالي:
Die Kreuzzuege aus arabischer Sicht, aus den arabischen Quellen ausgewaehlt und uebersetzt von Francesco Gabrieli. Deutscher Taschenbuch Verlag, Münechen, 1976

(31) للمزيد حول دور المرأة العربية، انظر مركز دراسات الوحدة العربية بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية حول "المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية" مركز دراسات الوحدة الغربية، الطبعة الثانية، بيروت، آذار / مارس 1986. كذلك معهد الإنماء العربي، الذي نظم هو بدوره ندوة فكرية حول: "المرأة العربية بين الذات والموضوع"، مجلة الفكر العربي، العدد 64، السنة 22، نيسان - حزيران / أبريل - يونيو 1991 وكذلك زينب شاهين: المرأة والتنمية والمجتمعات الحضرية الفقيرة، مجلة الفكر العربي، العدد 88، السنة 18، ربيع 1997، ص 261 - 270 إضافة إلى الدراسة الجيدة التي قدمتها الباحثة السورية هيفاء فوزي الكبرا حول العوامل الاجتماعية والاقتصادية التي تسهم في تعزيز عمل المرأة وتأكيد مشاركتها في النشاط الاقتصادي، انظر: هيفاء فوزي الكبرا: دراسة ميدانية لواقع المرأة العاملة في سورية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق 1987.

(32) السورة الروم، الآية 21.

(33) الشاعر العربي حافظ إبراهيم.

متابعات ثقافية

المرأة والتنمية في ظل الاتحاد الأفريقي

(حلقة نقاش)

أ. نادية بن يوسف

المائدة المستديرة

حول التعليم العالي والتنمية في الجماهيرية

ندوة علمية بجامعة الفاتح

مفاتيح القرن الحادي والعشرين

(مراجعة كتاب)

مراجعة:
محمود أحمد أبو صوة

من إصدارات المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

هذا الكتاب

المجتمع والمرأة

إشكالية العلاقة في فكر معمر القذافي

إن ما يميز فكر معمر القذافي في أطروحاته الفكرية، هو تناوله لما هو مكبوت في المجتمع، ومسكوت عنه بالقهر والمنع والحرمان. في جرأة ثورية قل نظيرها، وتحليل عميق يمتاز بالبساطة والإقناع في لغة ميسرة هي لغة الجميع.

يقول معمر القذافي "الأفكار الثورية التي تطرح في مجتمعاتنا تصطدم بالواقع الرجعي الموجود، الأمر الذي يجعل صاحب أي فكرة جريئة. وفكرة ثورية، مثل الأفكار التي أعبر عنها، أحياناً تجدها تطرح بشكل خجول .. لأنك تطرح أفكاراً في مجتمع لا يقبلها.

وما يميز فكره أيضاً أنه لا يتناول القضايا التي تعتبر ترفاً فكرياً ترضي غرور المجتمع، إنما هي قضايا جوهرية ينحاز فيها إلى مسيرة تحرر الإنسان نحو الانعتاق النهائي منبهاً المقهورين في العالم إلى أن الإنسان الحر لا يمكن أن يعيش في مجتمعات الإعاقة والإقصاء والتهميش إلا بالثورة عليها.

المرأة والتنمية في ظل الاتحاد الأفريقي

أ. نادية بن يوسف

حلقة نقاش:
في إطار اهتمامات الاتحاد الأفريقي بالمرأة الأفريقية ، وسعياً نحو تأكيد مشاركتها في التنمية بكافة مجالاتها ، وتمكيناً لها من تحقيق أهدافها الاجتماعية والاقتصادية ومشاركتها في اتخاذ القرارات السياسية، ونظراً للعوائق التي تحد من مساهمتها الفعالة في نمو القارة وتقدمها.

ومن أجل التصدي لأشكال القصور في البنية الأفريقية ، وعلاج الخلل المترتب عن غيابها في مسيرة المجتمع ، ولخلق آليات فعالة لتنمية أفراد المجتمع الأفريقي .

انعقد في مقر المركز الأفريقي للبحث التطبيقي والتدريب في مجال الإنماء الاجتماعي بمدينة طرابلس حلقة نقاش بعنوان " المرأة والتنمية في الاتحاد الأفريقي " وذلك يوم الإثنين ، الموافق 2003/4/28ف .

شارك في أعمال الحلقة النقاشية هيئات الأمم المتحدة العاملة بالجماهيرية ، وأمانة تجمع دول الساحل والصحراء (س ص)، وأمانة الشؤون الاجتماعية بمؤتمر الشعب العام ، والمركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ، وبعض المنظمات الأهلية المعنية بالموضوع ، والأكاديميين والباحثين المختصين والمهتمين بهذا الموضوع .

واستهدفت حلقة النقاش تفتيح موضوعات متنوعة تتعلق بتفعيل دور المرأة الأفريقية في تقويم وضعها في المجتمع الأفريقي ، وتحديد انعكاساته وتأثيراته على التنمية المستدامة ، ووضع نقلة إيجابية تدعم

مساهمتها في التنمية وتسهم في بناء مؤسسات الاتحاد الأفريقي بغرض التحضير لجلسات عمل الندوة المقبلة التي تهتم بنفس الموضوع .

وتضمنت حلقة النقاش المحاور الآتية :

1- دور المرأة في التنمية الاجتماعية والاقتصادية .
2- الاتحاد الأفريقي والمرأة : دعم متبادل .
3- المرأة وآفاق المستقبل في أفريقيا .

وألقيت في حلقة النقاش ست ورقات بحثية شارك فيها عدد من الباحثين والأكاديميين ، غطت في مجملها محاور وموضوعات حلقة النقاش تمثلت في :

1- دور مؤسسات المجتمع المدني في دعم الاتحاد الأفريقي .
2- بعض المؤشرات عن المرأة الأفريقية (التجربة الليبية نموذجا) .
3- المرأة والصحة من أجل مستقبل أفريقيا .
4- التعليم والمرأة الأفريقية آفاق المستقبل .
5- دور المرأة الأفريقية في التنمية الاقتصادية .
6- دور المرأة الأفريقية في التنمية الاجتماعية .

وشارك المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ، في هذه الحلقة العلمية بمداخلة قدمها (د. ميلود المهذبي) مدير إدارة العلاقات الخارجية بالمركز ، حول دور التشريعات في دعم المرأة في الاتحاد الأفريقي .

حيث أشار في مداخلته إلى أن التحدث عن المطلق في التنمية والمرأة ، يعد خللا منهجيا تتولد عنه نتائج خاطئة .

كما أوضح أننا قمنا باستيراد أنماط جاهزة للتنمية ، قضت على تنميتنا ، وساهمت في تأخير خصوصياتنا الأفريقية .

ودعا إلى ضرورة التفريق بين محتوى النص وبين التطبيق ، وتحديد حقوق المرأة في التشريعات حتى يمكن المطالبة بها والدفاع عنها .

ونبه على وجود قصور في التشريعات المتعلقة بالمرأة ، وعلى ضرورة توريث وثائق منظمة الوحدة الأفريقية للاتحاد الأفريقي .

وأوصى في ختام مداخلته بضرورة تفعيل النصوص التشريعية - فلا نكتفي بوجودها فقط - حتى نتمكن من تفعيل دور مؤسسات المجتمع المدني .

التعليم العالي والتنمية في الجماهيرية

المائدة المستديرة
بجامعة الفاتح
19 من شهر الطير 2003 ف

في إطار اهتمامات الجماهيرية بالتعليم العالي، ووعيها الكامل والمستمر بالدور البارز والفعال الذي يلعبه التعليم العالي في مجال التنمية خاصة الاقتصادية منها .

وانطلاقاً من مفهوم تعليم جيد يؤدي إلى تنمية جيدة ، والثورة الرهيبة التي حدثت في عالم الاتصالات، وسطوة ثورة المعلومات، وما تفترضه العولمة واقتصاديات السوق من تحديات ، تتطلب إعادة النظر في أهداف التعليم العالي ، وعلاقته بالتنمية ، ولتحقيق الحرية وصنع النهضة والتقدم ، انعقدت في الجماهيرية ، وضمن برنامج المائدة المستديرة ، ندوة علمية حول التعليم العالي والتنمية في الجماهيرية تحت شعار (نحو تعليم عالٍ يعزز الحرية ويصنع التقدم) ، وذلك بمنتدى أعضاء هيئة التدريس بجامعة الفاتح ، في 19 من شهر الطير (أبريل) 2003 ف .

شارك في الندوة عدد من الباحثين والأكاديميين المختصين بهذا المجال ، من أساتذة الجامعات ، ومن المركز العالمي للكتاب الأخضر . واستهدفت المائدة تفتيح موضوعات جديدة تتعلق بالتعليم والتنمية في الجماهيرية ، للمشاركة بها في ندوة حول التعليم العالي والتنمية في الجماهيرية ، المقرر انعقادها في مطلع شهر التمور القادم .

وألقيت في المائدة عدد من الأوراق البحثية ، التي غطت في مجملها الموضوعات الآتية :

1- واقع التعليم والتنمية .

2- البعد الاقتصادي في علاقة التعليم العالي بالتنمية في الجماهيرية .

3- التعليم العالي وتحديات العولمة .

وافتتح الدكتور أمين اللجنة الشعبية للجامعة ، الجلسة ، حيث أشار في بداية كلمته إلى العلاقة بين التعليم والتنمية ، ونبه إلى أن التنمية مفهوم معقد ، وأن التعليم أداتها ، فلا تنمية في غياب التعليم .

وأوضح أن الاقتصاديين يختصرون مفهوم التنمية إلى التنمية الاقتصادية ، والتي تعني ارتفاع الدخل الحقيقي في المجتمع خلال فترة زمنية معينة ، وإن التنمية ليست اقتصادية البعد فحسب ، بل لها أبعاد سياسية واجتماعية .

وبين أن تعريف التنمية بالمفهوم الاقتصادي يعطي صورة كروكية ، تتميز بالسهولة والوضوح بما يساعد على إدراك العلاقة بينها وبين التعليم .

كما أضاف أن التنمية مفهوم معقد ، وأنها تعني بتحريك مجموعة من القوى الاقتصادية وغير الاقتصادية ، وفق علاقات تحكمها مجموعة من القوانين الاجتماعية ، تتعدد بتعدد المجتمعات وتنوعها ، إلى جانب تحكم مجموعة من المتغيرات فيها .

وذكر أن التنمية الاقتصادية تصاحبها عدة تغيرات بعضها غير اقتصادي، ولكن أغلبها يرتبط بالحصيلة الانتاجية وإشباع الحاجات.

ثم تحدث عن علاقة التعليم بالتنمية ، وذكر بعض المتغيرات التي ينبغي التركيز عليها منها :

- نظام التعليم:

فاعتبر أن التعليم الجيد والمتماسك يؤدي إلى تنمية جيدة ، وأن عملية

الإنتاج وفاعليتها وانعكاساتها على الدخل القومي ، ترتبط ارتباطاً مباشراً بما يحدث في العملية التعليمية .

ودعا إلى ضرورة مسايرة التعليم لطبيعة العصر ، وثورة المعلومات المتجددة والمتغيرة كي يساهم بنجاح في عملية التنمية .

- المناهج:

نبه إلى أن بعض المناهج لا تساير روح العصر ، وتعرقل عملية التنمية ، وتساهم في تعميق التخلف .

- أدوات التعليم :

المدرس ، الوسائل التعليمية ، الطالب .. وغيرها من أدوات ينبغي أن يعنى بها التساير روح العصر وحتى لا يحدث تخلف .

كما شدد على ضرورة دراسة ظاهرة العزوف عن العلم والبحث العلمي ، المتفشية في الدول النامية ، وتحليلها والوقوف على أسبابها خاصة في الجامعات حيث التركيز يكون على التحصيل العلمي بشكل أوضح .

وفي ختام كلمته أكد أمين اللجنة الشعبية للجامعة على أهمية الصبر والمثابرة على طريق العلم رغم صعوبته، وأضاف أنه على الرغم من إيماننا بقيمة العلم إلا أنه ينبغي التوفيق بين هذه القيمة ومردودها ليكون للإنسان حافزاً لطلب العلم ومن ثم التقدم .

ثم بدأت جلسات العمل بورقة بحثية ، تضمنت واقع التعليم والتنمية في الجماهيرية أثار فيها الباحث عدة تساؤلات تبرز العلاقة بين التعليم والتنمية وتمثلت في :

1- هل التعليم يساهم بصورة أساسية وجوهرية في عملية التنمية ؟

2- هل التعليم بوضعيته الراهنة قادر على المساهمة في العملية التنموية ؟
وإن كانت الإجابة بنعم فإلى أي مدى ؟

3- وإن لم يساهم فما الأسباب الجوهرية التي تعرقل ذلك ؟ وما الخطوات الإيجابية الواجب اتخاذها لتحقيق التنمية ؟

وأجاب الباحث عن هذه التساؤلات بالتعرض إلى أهمية التعليم باعتباره ركيزة التنمية ودعامتها ، واستشهد برأي (الفرد مارشال) ... في قوله: إن الإنسان بالعلم والمعرفة والوعي والطموح والقدرة

على الإبداع والإنتاج يستطيع أن يسخر كل موارد الطبيعة .

وأوضح أن وفرة الموارد الطبيعية لا تكفي لتحقيق التنمية ، فغياب التعليم يجعل من الأفراد مجرد عمالة عادية تقودها الشركات الأجنبية لتحقيق أهدافها ، كما تعجز - أي العمالة - عن سد احتياجاتها .

ثم تطرق إلى الترابط بين التعليم والتنمية ، فالتعليم يزود التنمية بالموارد البشرية المدربة، ويعد الإنسان المثقف ، ويصقل عقله ، بينما التنمية تحقق الحياة الكريمة للإنسان وتتيح له فرص الارتقاء المادي وزيادة دخله .

وركز على فكرة أن التعليم الجيد يؤدى إلى تنمية جيدة ، وأن العلاقة بين التعليم والتنمية تحدد مدى مساهمة التعليم في التنمية ولخصها في :

* المؤتمرات والندوات ونتائج الرسائل العلمية ، أكدت جميعها ضعف التعليم العالي والبحث العلمي .
* اعتراف المؤسسات بضعف العاملين لديها وهم من خريجي الجامعات .
* شكاوي أولياء الأمور من تدنّي المستويات العلمية لأبنائهم .
* الملاحظات الشخصية لأعضاء هيئة التدريس وراصدى الظواهر الاجتماعية .

وتوصل من الملاحظات السابقة إلى ضعف مساهمة قطاع التعليم في التنمية ، خاصة مساهمة الجامعات باعتبارها الرائدة في هذا المجال .

كما حدد أسباب ضعف المستوى التعليمي في انعدام الطموح العلمي لدى الطلاب ، وسعيهم وراء الشهادات بأي وسيلة ، فضلا عن تساهل المسؤولين وتسامحهم في الإشراف والمتابعة وتقييم مستويات الطلاب ، وعدم متابعة أولياء الأمور لأبنائهم ، وضعف التعليم في مرحلة الأساس ... وغيرها .

ثم تعرض إلى المرتكزات الأساسية في العملية التعليمية ، المتمثلة في المناهج والوسائل التعليمية والمخصصات المالية، والتجهيزات والمقررات ، واعتبرها حبيسة الماضي ومحدودة في محتواها ومداها ، إلى جانب سطحية المعلومات وقشرية المناهج ، والانفصال بين ما يتعلمه الطالب ، وبين ما يحتاج إليه في حاضره ومستقبله ، وما يستجد في عالم التقنية والاقتراحات .

ولفت الإنتباه إلى أن أي تعليم لا يحقق الأغراض الخمسة التالية ، هو غير ذي جدوى فتتعلم لتكون -لتعمل -لتنال -لتوفر -لتتجنب .

لتكون مبدعا خلاقا - ولتعمل لضمان حياة مناسبة - ولتنال الحظوة و التقدير - ولتوفر المال و الجهد - ولتتجنب المخاطر .

ونبه إلى عقم الوسائل التعليمية ، فهي مازالت وسائل لفظية تعمل على التكرار وحشو الأذهان ، وتبعث على الرتابة والسأم ، وتجعل من المتعلم مخزنا للمعلومات وليس مبدعا .

كما أشار إلى افتقار الكليات خاصة العلمية منها إلى التجهيزات العلية كما ونوعا ، بشكل ساهم في تدني المستوى التعليمي ، وانتقال أثره إلى الأجيال المقبلة.

وخلص الباحث في نهاية ورقته إلى ضرورة الاهتمام بالبحوث العلمية ذات الصلة بالواقع لحل مشاكل المجتمع ، ونادى بضرورة الدعم المادي اللا محدود للبحث العلمي ، حتى لا نجعل من جامعاتنا مدارس ثانوية ثانية .

أما الورقة البحثية الثانية فتناولت موضوع البعد الاقتصادي لعلاقة التعليم بالتنمية .

حيث أشار الباحث إلى أهمية التعليم ، وإلى دوره في تنمية الموارد البشرية ، وإحداث تغيرات اقتصادية واجتماعية تساهم في التخلص من التخلف .

ودعا إلى ضرورة الاستثمار في الصحة والتعليم بصفة عامة ، والتدريب التقني بصفة خاصة .

ثم تحدث عن العلاقة بين التعليم والتنمية ، كما تناولتها الأدبيات الاقتصادية ، (فآدم سميث) أكد على أهمية التعليم في إحداث الاستقرار السياسي والاجتماعي ، وأنه شرط أساسي للتنمية ، و (ألفرد مارشال) اعتبر التعليم نوعا من الاستثمار ، فما ينفق على التعليم لا يقاس بالعوائد المباشرة منه، واعتبر (كارل ماركس) أكثرهم وضوحا في تحديد العلاقة بين التنمية والتعليم ، حيث ركز على أهمية كل من التعليم والتدريب في التنمية .

كما أوضح أن الثروة البشرية ، لا تقل أهمية عن رأس المال المادي ، وأن الاستثمار البشري يحتاج إلى فترة زمنية حتى تجنى عوائده ، علاوة على أنه محفوف بالمخاطر .

وأشار إلى أن الاهتمام بالتعليم العالي ، يرجع إلى قرب الأخير من سوق العمل ، إضافة إلى أنه مؤشر هام لانعكاس السياسات التعليمية في المجتمع .

كما اعتبر التعليم صناعة كبرى في كل الدول، ويتضح ذلك من تزايد الإنفاق عليه ، والاهتمام بقياس عوائده وآثاره على التنمية الاقتصادية .

وحث في ختام ورقته على ضرورة إخضاع مدخلات التعليم ومخرجاته إلى القياس ، وربطها بالإنفاق العام على التعليم وبالناتج المحلي ، وقياس أثر الرسوب والفاقد في الموارد المالية .

أما الورقة البحثية الأخيرة فاهتمت بموضوع التعليم العالي وتحديات العولمة ، حيث أشارت إلى أنه رغم التطور الكمي لإعداد الطلاب وأعضاء هيئة التدريس إلا أنه من الصعوبة بمكان الاعتراف بوجود مساهمة لقطاع التعليم في التنمية .

كما ركزت على ضرورة تحديد نوعية الأجيال المطلوبة للمستقبل ، وإلى إعادة الاعتبار للصلة بين التربية والتعليم ، التي ترتب عن غيابها ظهور افرازات غريبة للقيم السلوكية ، تمثلت في تدني احترام عضو هيئة التدريس أو ظهور التيارات السلفية ... وغيرها .

ولخصت التحديات التي تفترضها العولمة في ثلاثة عناصر هي :

- التقدم الرهيب في الاتصالات .
- الثورة الرقمية والهندسية .
- سطوة المعرفة وانتشار السلع والخدمات التي تعتمد بكثافة على عنصر المعرفة .

ونبهت الورقة البحثية إلى ضرورة تغيير وتطوير فلسفة التعليم ، والتركيز على الدقة المعرفية والتخصصية ، وإعادة صياغة مفهوم المؤسسات التعليمية وتحديد دور أعضاء هيئة التدريس فيها .

كما تطرقت إلى مجموعة من الاتجاهات العامة التي توضح أن التعليم والتربية هما المشكلة والحل ولخصتها في :

- الزيادة الملحوظة في عدد السكان .
- الانفجار المعرفي وتلاحق وتيرة الانجازات العلمية بشكل كبير .
- التغير في مفهوم الوقت وصلته بالتحولات التقنية .
- الأزمة في النظام الاجتماعي .

وأوضحت أن الزيادة في عدد السكان، تعني زيادة الطلب على التعليم ، وبذلك

تواجه البنى التعليمية ضغطاً هائلاً، إلى جانب مشكلة عدم التوازن بين الإمكانات الموجودة والطلب على التعليم. والتحدي يكمن في البحث عن طريقة جديدة وبأقل النفقات .

كما أبرزت أن الانفجار المعرفي هو أهم التحديات ، ويبدو في انقسام العالم إلى أغنياء المعرفة وفقراء المعرفة ، والتحدي يتطلب تغيير فلسفة التعليم بما يتناسب مع متطلبات المعرفة .

ثم تطرقت الورقة إلى التغير في مفهوم الوقت ، ومشكلة وقت الفراغ ، وعزت ذلك إلى التطور التكنولوجي الذي ساهم في إنقاص ساعات العمل ، وزيادة أوقات الفراغ .

وأضافت إلى أننا بعيدون كل البعد عن الاستفادة من أوقات الفراغ ، وأن هناك فجوة عميقة بين التوظيف الكامل للإمكانات المتاحة ، وبين القيام بالأعباء الاجتماعية .

كما أكدت على ضرورة الاستفادة من تجارب الآخرين لتحقيق التطور المستمر في الوظائف التربوية ، وأفادت أن تجاهل تلك التحديات يحقق خسائر كبيرة .

ودعت إلى ضرورة الدمج بين المعلومات التقنية والمعارف ، ومجاراة الآخرين في استفادتهم من إمكاناتهم . وأضافت أن تجربة شيلي وشركة اركسون خير مثال على ذلك .

وبينت الورقة التحديات التي فرضتها العولمة على المجتمعات الغربية ، والتي منها إعادة الاعتبار للأسرة والرؤى الاجتماعية .

وأوضحت أن مجتمعاتنا العربية مازالت تحتفظ بهذه القيم ، إلا أن الثقافة الاستهلاكية تعمل على تعميق السلوك المغاير لهذه القيم .

وحرصت على ضرورة تغيير أهداف التعليم لمواجهة هذه الظاهرة . وخلصت الورقة في نهايتها إلى اعتبار التعليم مشكلة وحلاً في آن واحد ، وينبغي ألا يترك للتربويين فقط، باعتباره قطاعاً هاماً يهم كل الخبراء والمختصين في كافة المجالات .

وفي الختام توصلت فعاليات المائدة إلى مجموعة من النتائج والتوصيات أهمها :

1- شمولية مفهوم التنمية ، وحتمية تناولها في إطار تخصصي .

توصيات المائدة المستديرة
(التعليم العالي وعلاقته بالتنمية في الجماهيرية)
يوم 19 / 4 / 1371 و.ر

1- التأكيد على ضرورة دراسة وتتبع علاقة التعليم العالي بعملية التنمية .

2- العمل على تحفيز وتشجيع أعضاء هيئة التدريس وطلبة الدراسات العليا بالجامعات الليبية على القيام بالبحوث والدراسات ذات العلاقة بعملية التنمية .

3- التأكيد على أهمية إقحام القطاع الأهلي للمساهمة في الدفع بالتعليم العالي وتعزيز علاقته بالتنمية.

4- الحد من العوامل الاجتماعية ذات التأثير السلبي على العملية التعليمية .

5- الدفع نحو تطوير الإدارة داخل مؤسسات التعليم العالي وتفعيل دورها كإدارة تطويرية وتجاوز كونها فقط إدارة تسييرية .

6- التأكيد على ضرورة تفعيل العلاقة بين مخرجات التعليم العالي ومتطلبات آليات النشاط الاقتصادي في المجتمع .

7- العمل على استشراف الملامح المستقبلية للتعليم العالي وإبراز دوره في التنمية في إطار المتطلبات المحلية والمتغيرات الدولية .

8- التأكيد على إقامة منشط علمي كبير بالجامعة يتناول المواضيع المطروحة بالدراسة والبحث .

مفاتيح القرن الحادي والعشرين

مراجعة كتاب

مدير عام اليونيسكو، اليونيسكو 2000

Les cles du XXI siecle. Preface de Koichiro Matsuura, Paris. Seuil/Unesco. 2000, Pp. 515

أعد المراجعة
محمود أحمد أبو صوة
أستاذ التاريخ / جامعة الفاتح

يتكون هذا الكتاب الذي، يتجاوز عدد صفحاته الخمسمائة صفحة، من خمسة محاور تحمل العناوين التالية:

المحور الأول:

مستقبلية وريب: ما هو مآل المستقبل.

المحور الثاني:

مستقبل الجنس البشري، ومستقبل الأرض: نحو عقد طبيعي.

المحور الثالث:

أراض جديدة للثقافة المتعددة وللتعليم: نحو عقد ثقافي.

المحور الرابع:

لنتعلم العيش في توافق: نحو عقد اجتماعي جديد.

المحور الخامس والأخير:

العالم والعولمة: نحو عقد أخلاقي. هذا وقد تم تقسيم هذه المحاور / الفصول إلى مجموعة مقالات / تأملات تجاوزت في مجملها السبعين مقالة / تأملا.

إن هذا الكتاب الذي وضع في الأساس للمساهمة في النقاش العالمي الدائر حول الرهان الكبير على المستقبل ساهم فيه

العديد من المثقفين والأساتذة الجامعيين ، فضلاً عن بعض العلماء أذكر منهم على سبيل المثال (llya Prigogine) الحاصل على جائزة نوبل في الكيمياء ، و Luc Montagnier الذي اكتشف العامل المسبب لمرض فقدان المناعة ، و christian de portzampare الحاصل على جائزة pritzker في الهندسة المعمارية ، وهي جائزة تعادل جائزة نوبل . والأمر اللافت للنظر أنه وبالرغم من أن العمل يستشرف مستقبل الإنسان فوق كوكبنا هذا ، فإنه خلا من أي مساهمة خاصة ببلدان الوطن العربي . والمساهمتان العربيتان في هذا العمل لكل من محمد العربي بوقرة " التلوث الكيميائي والتلوث غير المرئي : مستقبلية ودروب العمل [ص107-112] ، وهالة الباجي (والتي وجدت صعوبة كبيرة في نقل اسمها من الرسم الفرنسي " Hele Beji " إلى العربي) النساء غداً [ص377-380] خلتا من أي معالجة تمس مشاكل التلوث والمرأة في المنطقة العربية . ففي حين يستند بوقرة في تحليله إلى خطورة مبيد الحشرات (DBCB) على الإنسان إلى شاهد يتعلق بالعمال الهندوراسيين ، فإن هالة الباجي اكتفت بتسليط الضوء ، وفي عجالة ، على أهمية المرأة ، أي امرأة ، في صنع الاستقرار ؛ والملاحظة نفسها تكاد تنطبق على مداخلة بطرس بطرس غالي قروض القرن الواحد والعشرين [ص491-506] . فبحكم وظيفة هذا الأخير السابقة (الأمين العام للأمم المتحدة) ووظيفته الراهنة (السكرتير العام للفرنكوفونية) تمحورت محاولاته حول السلام والتنمية ، فضلاً عن المساعدات والقروض ، ومستقبل المؤسسات العالمية .

وإذا ما تركنا جانبا الغياب شبه الكلي للمساهمة العربية في هذا الملف والتي تشكل ، في اعتقادي إحدى سلبيات هذا العمل ، وهي سلبية قد لا تسأل عنها منظمة اليونيسكو كلياً ، فإن المواضيع التي أثيرت والآراء التي تم طرحها هي على درجة كبيرة من الأهمية . ففكرة استشراف المستقبل ، على سبيل المثال ، التي شكلت أبرز ملامح هذا الكتاب ، تم التعامل معها من زوايا مختلفة، ولكنها تكاد تتفق على أمر واحد ، إن هذا الأمر يتعلق من ناحية بصعوبة التنبؤ ، وبمسؤولية الإنسان من ناحية أخرى ، وقدرته على صنع المستقبل . فبالنظر إلى أن هذا الأخير يقول

(Stephen Jay Gould) خاضـــع للتحول الثقافي، فإنه من الصعب التنبؤ به . ولكن أليس هذا في حـــد ذاته أمراً مغرياً ؟ فهذا يعني أن كل شيء يتوقف علينا نحـن ، والفكرة في حد ذاتها ، يسترسل صاحـب المقـــالة ، مســـكرة (grisánte) ! وفي نفس الســـياق تقريبـــاً يذهب (Edgar Morin) إلى أن مستقبـــل الإنســـانية كان على الدوام غير أكيد ، وسبب ذلك أن الأجيال السابقة لا يدركون ذلك ، إما لأنهم عاشـــوا في زمن دائري حـيث تتكرر الأشـياء دائماً ، أو لأن ذلك الزمن قاده " الجاذب " أو " سهم التقدم " . لذلك فإن أول ما يتوجب القيام به في الوقت الراهن هو السعي إلى الإجابة عن تحديات القرن الواحد والعشـرين ؛ وهذا الأمر لا يتأتى إلا من خلال طرح الأســئلة الجيدة والإجابة عنها قبل فوات الأوان . فالأسئلة التقـليدية للفيلسـوف كانت ، على سبـيل المثال ، كانت تتمحـور حـول الذات . لذلك يتوجب إعـادة صياغتهـا وفـق منظـور مستقبلـي تستبدل فيه " أنا " بـ " نحـن " . وهكذا تتحول أسئلته التقليدية ماذا يمكنني أن أعرف ؟ وماذا علي أن أفعل ؟ ومـا هو الأمل المسموح لي بـه ؟ إلى ماذا يمكننا أن نعرف ؟ ومـاذا يمكننـا أن نفعـل ؟ ومـا هـو الأمل المسموح لنا به ؟

وصعوبـــة البحـــث في المستقبـــل واستشـرافه لها أبعاد أخرى لعل أهمها على الإطلاق اقتصار منطلقات المساهمات على مســؤوليات وواجبـــات أغنى دول العالم وأكثرها قـوة . وإذا ما استثنينا تأمل الباحث الصيني (Zeng Yi) " مستقبلية التقدم في الســـن : حـــالة الصين ومقـــارنات عالمية" (ص71-73)، ومقالات الأفارقـة سليمان بشـير ديان "حـكاية إفريقـــية " (ص28-31)، وأمادو توماني توري ، وهو بالمناسبـــة رئيس سابـــق لدولة مالي، "منع النزاعات وحـــلها : مفاتيح المستقبـــل " (ص477-483)، ومداخلة الســـــــيدة (Gertrude Mongella) " اقـتصاد المستقبـــل في أفريقـــيا " (ص484-487) فضلاً عن بـــعض التأملات الثانويـة الأخـرى ، فـإن المتصفـح لهذا العمل يكاد لا يعثر على أي مســـاهمة تبحث بالتفصيل في قضايا دول العالم الثالث من منظور مستقبـلي ؛ ولكن غياب التركيز على قضايا الآخر لم تمنع جميع المشـاركين من معالجة مواضيع المستقبـــل وفق رؤية خالية وإلى حد كبـير من الصور السلبـية ، ومن الأحكام المسبقة ؛ ليس هذا فحسب ، بل

إن العديد من المشاركين حملوا الدول المتقدمة مسؤولية العديد من المشاكل التي يعاني منها الجنس البشري . فالعولمة على سبيل المثال ، يقول هؤلاء ، خلقت ثروات عظيمة ، فاليوم نحن أغنى ثلاث مرات مما كنا عليه ثلاثين سنة مضت ، ولكن الذي استفاد من هذه الثروة - يستطرد هؤلاء - هو ثلث سكان العالم فقط . وفي مداخلة لـ (Hans-Peter Martin) " هل العولمة فخ ؟ " (ص455-458) إشارة إلى أن نسبة المتضررين من العولمة أكبر بكثير من النسبة المقترحة . ففي عملي السابق - يقول صاحب المداخلة - نبهت المسؤولين السياسيين والاقتصاديين إلى ظاهرة قيام مجتمع " الخمس " ، أي المجتمع الذي يدير شؤونه خمس ويستهلك سكانه 80% من الموارد .

كما انتقد هؤلاء مظاهر أخرى وعديدة من مظاهر العولمة . فنحن نعيش في سلام ، غير أننا نعبر في الوقت نفسه مرحلة مليئة بعدم الأمان ؛ فالحكومات التي تجاوزتها الأحداث لا تمتلك الإجابة المناسبة لمسألة العولمة ، والمنظمات غير الحكومية التي تسعى جاهدة إلى التعامل مع هذه المسألة كثيراً ما تخطئ ، وتكون النتائج بالتالي وخيمة . بل إن بعض المشاركين ذهب إلى أبعد من ذلك ؛ فالأحداث لم تتجاوز المنظمات غير الحكومية والحكومات فقط بل طالت أيضاً العاملين في حقل استشراف المستقبل . يقول (Kimon Valaskakis) إن الأحداث تجاوزتنا نحن المستقبليين أيضاً لذلك يتوجب القيام بنقد ذاتي جاد (mea culpa) ، وسعي حثيث لمعرفة لماذا نحن ، المتخصصين في المستقبل ، نفاجأ كما تفاجأ بقية العالم ؟ إن هذا الخلل يكمن ، على ما يبدو في أن استشراف المستقبل لم يعد حكراً على العاملين في هذا الحقل . لماذا ؟ هنالك ثلاثة أسباب . السبب الأول أن العاملين في هذا المجال يحاولون إقناع مقتنع (Prechent des convertis) ، السبب الثاني أن الاتصال بغير العاملين باستشراف المستقبل ضعيف للغاية ، الأمر الذي أدى إلى ظاهرة تهميش ذاتي ، السبب الثالث أن العاملين بحقل استشراف المستقبل ، وبحكم خجلهم الشديد ، لم يجرؤوا على المخاطرة .

إنه وفي ظل هذه الرؤية المزدوجة ، أي إبراز أهمية استشراف المستقبل من

ناحية ، ودور الإنسان وقدرته على صنع مستقبله من ناحية أخرى ، تطرق العديد من الباحثين لمسائل تغطي إلى حد ما هذين الجانبين . وحيث إن عدد المقالات / التأملات - وكما سبق القول - يفوق السبعين ، فإنه من غير الممكن التوقف عندها كلها . بناء عليه ، وحتى يتمكن القارئ من رؤية بقية المواضيع التي تم التطرق إليها في هذا المؤلف رأيت أن أنتقي بعضها ، والتي تمثل ، في اعتقادي ، أبرز مفتاح ، وليس مفاتيح القرن الواحد والعشرين ، وأعني بذلك العولمة .

فمن منطلق استشراف المستقبل يحتاج المرء مثلاً إلى معرفة مآل المستقبل في العقود القادمة ، وما أهم تغير سيعرفه العالم في القرن القادم ؟ فوفقاً لإحدى المساهمات إن العالم سيعرف في القرن الواحد والعشرين تغيرات في غاية الأهمية ؛ فالقرن القادم ، يقول (Andre Malraux) سيكون قرن دين أو لا يكون ! ولكن غيره من الخبراء يجزمون بأن هذا القرن سيكون قرن الهجرات العالمية (Par-excellence). ولكن التطورات اللاحقة لم تؤكد لا هذه النبوءة ولا تلك . فإذا ما كانت نسبة المهاجرين الصينيين والهنود ثابتة ، أي أن عدد المهاجرين من هذين البلدين بقيلا على ما كان عليه في السابق (25 مليون صيني ، و 20 مليون هندي) فإن نسبة المهاجرين من بقية بلدان العالم أصبحت أقل عشر مرات مما كانت عليه في بداية القرن . وعجز الخبراء عن استشراف المستقبل لا يشكل غير وجه واحد للمسألة . فالمسألة وكما سبق التنويه لها وجهان . فصعوبة التنبؤ أظهرت في ذات الوقت أن سبب هذه الإخفاقات، لم يكن "فوق طبيعياً" بل كان من جراء تدخل الإنسان وقدرته على تجهيز المستقبل . فالجميع ، جميع العاملين بقضايا استشراف المستقبل ، كان على يقين من أن تطور وسائل النقل ستفضي إلى تحويل الهجرة من هجرة مؤقتة إلى هجرة دائمة . ولكن سرعة التنقل وانخفاض تكلفته سمحا بالتنقل المؤقت فقط ؛ كما أن سياسة مراقبة الهجرة غير القانونية تسببت بدورها في انخفاض عدد المهاجرين .

إن فهم القرن الواحد والعشرين ، قطب كل الأحلام وكل الكوابيس ، يستدعي التوقف أيضاً عند جزئية الثقافة / الثقافات التي شكلت ولا تزال تشكل حجر الزاوية

لمن أراد اكتشاف علاقات الشعوب بعضها ببعض . ودون الدخول في تفاصيل فرضية صدام الحضارات (Francis Fukuyama. Samuel Huntington) ، فإن تعايش الثقافات المختلفة لا يؤدي بالضرورة إلى المواجهة . فالمتطرفون لا يسيطرون مثلاً على جميع الأديان ؛ كما أن التراث ، تراث أي أمة لا يفهم على الدوام على أنه كل متلاحم ومغلق . كيف يمكن فهم هذا التراث في القرن الواحد والعشرين ؟يقترح العديد من المساهمين في هذا العمل الاحتكام للعولمة إفالعولمة ، وفقاً لـ(Nestor Garcia Canclini) كفيلة بتشكيل نمط جديد للعلاقة بين الثقافات . ولكن لا يوجد - يستطرد هذا الأخير - اتفاق عام حول تأثيرات العولمة . فبالنسبة للبعض تمثل العولمة عملية دمج عالمية حيث تذوب شيئاً فشيئاً الفوارق العرقية والوطنية . انطلاقاً من هذه الرؤية قام (Yukinori Yanagi) بتجربة طريفةحيث وضع مائة علم لبلدان مختلفة بمحاذاة حائط مكونة من علب صغيرة مملوءة بالرمل الملون . وقد شدت الأعلام إلى بعضها البعض بأنابيب لدائنية يتنقل عبرها النمل . وأثناء عملية التنقل حمل النمل معه المادة الملونة . وبعد شهرين أو ثلاثة أشهر ، لم يعد بالإمكان التعرف على الأعلام . إن هذا الأثر بالإمكان اعتباره مجازاً العمال المهاجرين حيث مجرى الحياة يفكك تدريجياً النزعات القومية والنزعات الإمبريالية . ولكن وبهجرة الملايين من سكان أمريكا اللاتينية إلى الولايات المتحدة أصبحت مدينة لوس أنجلوس المدينة المكسيكية الثالثة ، ومدينة ميامي المدينة الكوبية الثانية في العالم . صحيح أن هؤلاء وهؤلاء قاوموا المجانسة المتولدة عن العولمة ، ولكن هذه الروابط الثقافية لم تتسبب في تغذية نزاعات جديدة ، بل بالعكس سمحت بظهور تبصر حول التهجين النامي لعالمنا .

صحيح أن الكتاب لا يتضمن في عنوانه أي إشارة إلى موضوع العولمة ولكن المتصفح للعديد من المحاور الثانوية ، يرى كيف أن نسبة المواضيع التي تطرق أصحابها فيها إلى مفهوم العولمة مرتفعة جداً . وكما تم التنويه بأهمية العولمة ودورها في بعث ثقافة الهجين ، وظف بعض المساهمين المفهوم نفسه عند قيامهم بتحليل موضوع الديمقراطية ، ولكن يجب التنبيه - وكما سبقت الإشارة - إلى أن استخدام هذا المفهوم

لا يعني اعتناقه على علاته . فكما تم التنويه به ، تم نقده وبنفس الحماس تقريباً . فوفقاً لـ (Michael Walzer) إن فقدان الثقة في فاعلية الدولة السياسية ، سببه العولمة الاقتصادية والأسطورة التي صاحبت العولمة (ص322) . وفي نفس السياق تقريباً تناول الباحث الإفريقي (Elika M'Bokoto) عملية الديمقراطية المفروضة من الخارج . فالمرء ينتابه إحساس بأن الديمقراطية المعنية تهتم بالمظاهر ، وفي بعض الأحيان بنمط محاكاة ظرف ، أكثر من اهتمامها بالتطبيق الفعلي الذي يضطلع الفاعلون الاجتماعيون به . إن أحد الأسئلة التي تضع السلم الخاص أو المؤقت للميول الديمقراطية يتعلق بالضغوطات الخارجية ، والتي كثيراً ما اعتقدنا ولفترة طويلة بأنها ضرورية ومفيدة ؛ ليس هذا فحسب بل إننا اعتقدنا بأنها المحرك الرئيسي للتحول الديمقراطي في الجنوب . والسؤال الذي يمكن طرحه الآن:

هل ستنتهي هذه النزوعات التي نلاحظها نحو هذا الاتجاه أم أنها ستتخذ اتجاهاً مغايراً ؟

في اعتقادي - يقول صاحب المداخلة - إن هذه الميول لن تتخذ هذه الوجهة .

هذا ويعتبر موضوع حقوق الإنسان - وفق المنهجية التي تم تبنيها في عديد المواضيع - موضوعاً مكملاً لموضوع الديمقراطية. بناء عليه فإنه وكما انتقد العديد من الباحثين مواضيع العولمة والديمقراطية ، انتقدوا أيضاً سياسة الغرب التي اتسمت بالتقاعس ، خاصة في مجال التنمية ، تنمية دول العالم الثالث بطبيعة الحال . وفي هذا السياق يستهل (Federico Mayor) مداخلته بالسؤال التالي : ففي فجر القرن الواحد والعشرين يوجد سؤال من المفترض أن يلاحق المجتمع الدولي : هل نمنح نحن وسائل تطبيق المبادئ السياسية والاجتماعية والفردية التي تعهدنا بتشجيعها ؟ وهل جعلنا من حقوق الإنسان حقيقة كل يوم ، والبداية والنهاية للسلام وللتطور وللديمقراطية ؟ في سنة 1963 قارن (Martin Luther King) إعلان استقلال الولايات المتحدة ووعود المساواة بين الرجال بصك ، مضيفاً أن المجتمع الأسود الأمريكي لم يقبض هذا الصك بعد .

هذه بعض التأملات التي تضمنها هذا العمل الذي حاول المساهمون فيه اكتشاف

القرن الواحد والعشرين من منطلقات قد لا تروق للكثيرين منا ، ولكنها مساهمات تعكس حساً مرهفاً وصدقاً حقيقياً لا يرقى الشك إليه . صحيح أن البعد النظري / التنظيري كان هو الغالب على هذه التأملات ، وهو أمر له ما يبرره ؛ فاستشراف المستقبل - وكما أجمع المساهمون - ليس بالأمر الهين ، إذ إنه ينطلق مما هو "معلوم" "للغوص في المجهول . والسؤال الملح الذي ما انفك يطرح نفسه علينا :

هل نحن على دراية بما حصل في الماضي وبما يجري الآن ؟

يقول الفيلسوف الإسباني (Ortega Y Gasset) نحن لا نعلم ماذا يجري ، وهذا بالتحديد ما نعرفه !

وإذا ما جاز لي التوقف عند بعض " عيوب " هذا العمل فإنني أجملها في جزئيتين ، تتعلق الأولى بكثرة المداخلات القصيرة جداً التي لم تسمح لأصحابها بحسن عرض أفكارهم . صحيح أن الكتاب تضمن قائمة مراجع تغطي جميع المواضيع ذات العلاقة بمحاور الكتاب ، ولكنه ليس من الممكن العودة إليها كلها ، إلا إذا كانت غاية الكتاب مقتصرة على التعريف بهذه المواضيع ، ومن أراد التفاصيل فعليه اقتناء الكتب ذات العلاقة من المكتبات ؛ أما الجزئية الثانية فهي الأهم في اعتقادي خاصة وأن الدعوة إلى الاهتمام بالثقافات الأخرى والنهل منها أثار اهتمام عدد لا بأس به من المشاركين ؛ فتجاهل هؤلاء لجهود / مساهمات الباحثين العرب في مجال استشراف المستقبل أمر لا يتفق والدعوة المنوه بها . فعلى الرغم من أنه سبق لمركز دراسات الوحدة العربية ومركز الدراسات العربية المعاصر بجامعة جورجتاون تنظيم ندوة عن العقد العربي القادم : المستقبلات البديلة (سنة 1986) وهي ندوة لم يتعرض المشاركون فيها لقضايا القرن الواحد والعشرين ، فإن المواضيع التي أثيرت - حتى وإن اقتصرت محاورها على العالم العربي - لا تختلف منهجياً عن المنهجية / الفلسفة التي يتبناها مكتب التحليل والتنبؤ التابع لليونيسكو ؛ وهذا الموقف لا يقلل في حقيقة الأمر من قيمة هذا العمل ، بل بالعكس إن صدور مثل هذا الكتاب ، قد يساعد العديد من الباحثين العرب ، خاصة إذا ما تم نقله إلى اللغة العربية ، على رؤية الوجه الآخر لاستشراف المستقبل .

اللغة

التجربة الشعرية في الصدر الأول: خفوت بعد تألق أم عثار في التخلق

د. عمرو أحمد علي

مضامين الإرهاب والتطرف في اللغة والاصطلاح

د. محمد الأصيبعي

من إصدارات المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر



قراءة في أدب

معمر القذافي

لـ مجموعة باحثين

التجربة الشعرية في الصدر الأول خفوت بعد تألق أم عثار في التخلق

إعداد: د. عمرو أحمد علي
أستاذ مشارك / كلية الآداب
جامعة السابع من إبريل

مقاديم الحديث:
تباينت آراء النقاد في حكمهم على المستوى الفني لشعر الإسلام في خطاه الأولى، وذهبوا- قدامى ومحدثين- إلى أكثر من رأي، مستمسكين في ذلك بأسباب مختلفة، إذ اعتقد بعضهم أن الإسلام كان وراء ضعف الشعر وسقوطه إبداعاً وتألقاً،

فيما ارتد الرأي ببعضهم إلى تبرئة الشعر الإسلامي من تهمة الضعف هذه تبرئة كاملة، يسوقهم إلى ذلك حسن الطوية ويحدوهم صدق التوجه، فهم يربأون بالإسلام أن يتهم بالحيلولة دون إبداعات المرء وانطلاقاته البريئة في رحاب الخلجات النفسية، أو أن يمسك به عن اجتناح قلبه إلى عوالم من نبض العواطف ورفيف المشاعر، وبين هذا وذاك يقف آخرون مواقف اعتدال وتأليف.

وهذا بحث يستضيف قضية الضعف زمن النبوة المحمدية في إطار من الانتقائية المركزة، فيثير صفوة ما علل الذاهبون هذا المذهب مقالاتهم بها ويناقش مدى اقتراب عللهم من فيصل المقال في مسارب التبرير والتعليل، مؤملا تجلي كلمة الصواب واستبانتها بشيء من التحليل المتأدب، كل ذلك مشفوعاً بشاهد تبياني في منزع موازنة ومقارنة يسمح بمعاودة القول في مثل هذا الموضوع.

إثارة المسألة:

قال عبد الملك بن قريب الأصمعي في واحدة من أبرز المقالات النقدية التي سادت حقل تقييم الشعر الإسلامي :

" الشعر نكد ، بابه الشر ، فإذا دخل في الخير ضعف ، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره " [1].

ويخطو الأصمعي خطوة أخرى بهذا الكلام المشتبه الغامض فيفصل قليلاً ما أجمله في الجزء الأول مشيراً في ثنايا كلامه إلى شيء من أسباب هذا الضعف الذي لاحظه ، يضيف قائلاً:

طريق الشر إذا أدخلته في باب الخير لان ، ألا ترى حسان بن ثابت علا في الجاهلية والإسلام فلما دخل باب الخير من مراثي النبي صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر وغيرهم لان شعره ، وطريق الشعر هي طريق الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحلة والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والافتخار ، فإذا أدخلته في الخير لان) [2].

إن هذا الحكم الذي أطلقه الأصمعي في نهاية القرن الثاني من الهجرة كان له بالغ الأثر في تكوين وتأسيس الرأي القائل يضعف الشعر في صدر الإسلام الأول ، ومما ينبغي أن يؤبه له قبل تحليل كلام الأصمعي في جزئه الأول هو أنه مجمل شديد الإيجاز يعوزه التعليل والإيضاح ، شأنه في هذا شأن جل الملاحظات النقدية التي بدأت تتبلور على أيدي جماعة من علماء العربية الذين كانوا يرصدون ما يعبر عنه من إحساسات أدبية تمليها التجارب الشعرية المتلاحقة، ومن هنا كانت هذه الأحكام في أغلبها أحكاماً انطباعية عامة ، يحس أصحابها بشيء من الرأي فيعبرون عنه ، فيصيبون في الحكم ولكنهم قد يخطئون العلة الحقيقية التي تفسر ذلك الحكم ، وهو أمر طبيعي يلازم كثيراً من العلوم في بداياتها الأولى .

نلاحظ بادئ الرأي أن الأصمعي قد تحفظ في الجزء الثاني من تتمة حديثه النقدي المهم من استعمال كلمة (السقوط) واستبدل بها كلمة أخرى أدل منها حدة في توجيه تهمة الضعف إلى شعر المرحلة المعنية ، فقد جرت على قلمه كلمة (الليونة) التي تومئ - ولو لم يكن

الأصمعي يقصد ذلك - إلى فضاء نقدي أرحب وألطف مما تشير إليه كلمة السقوط فهي أكثر مرونة وطواعية ، إذ من الليونة ما يمكن أن يتعلق بالأساليب الحضرية المهذبة والديباجة الشعرية الصافية فتكون مقبولة مرضية ، وقد علل بعض النقاد - كما سنرى - ضعف الشعر عند حسان بن ثابت بخلفيته الحضرية وعيشته المدنية ، ومن الليونة ما يمكن أن يتصل بقلة الأسر وهلهلة النسج وغياب الصور والخيال فتكون مذمومة مذعومة .

لمناقشة ملاحظة الأصمعي التي أصابت في بعض جوانبها ، يجدر بنا التوقف قليلاً عند مصطلح (الفحولة) وما يدور حوله من مفهومي (الخير) و (الشر)، علّ هذا يسعفنا في التعرف على ما يستتر خلف ذلك من شمولية تتجاوز دلالاتها القريبة ، فنقول : إن هذه الأغراض الشعرية التي مثّل بها الأصمعي (للفحولة) وجعلها معياراً نقدياً يقوي شعر الشاعر باقترابه من التمكن فيها ويضعف و (يلين) بالقصور أو التقصير دونها ، هذه الأغراض لا يمكن عدها كلها من باب (الشر) بمفهومه الديني الأخلاقي ، وإنما يمكن القول بأن مصطلح (الشر) هنا جاء هكذا عاماً ليشمل كل ما يتعلق بالحياة القديمة مما هو معهود لدى الشعراء الجاهليين ، فقد استعمل الأصمعي (باب الشر) ليقابل قيم الدين الجديدة وما اتصل بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم من مشاهد وغزوات وفتوح مما يندرج بحق تحت (باب الخير). وإنه لمن نافلة القول ألا يعد كل ما قاله الجاهليون شراً وحسبنا النظر في كثير من حكم عبيد بن الأبرص وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى وفي عفة عروة بن الورد ومروءة عنترة بن شداد ومعاني الخفر في تائية الشنفرى الأزدي وغير ذلك من القيم الإنسانية الرفيعة التي عبر عنها الجاهليون في لحظات التجلي مما هو مثبوت هنا وهناك في ثنايا شعرهم - حسبنا النظر في ذلك لنعلم أن ما عناه الأصمعي ومن سلك سبيله من النقاد بهذا المصطلح إنما هو المقابلة بين مضامين الإسلام التي تندرج كلها بالضرورة والفعل تحت (باب الخير) وبين ما كان مألوفاً لدى الجاهليين مما أطلقوا عليه (باب الشر) تغليباً لمضامين الهجاء المقذع والثأر الفاحش والفخر المتعالي والغزل المتهتك وما واكب ذلك الركام الجاهلي من مقاصد ورؤىً لا

تتجاوز أقدام القوم بله أن تلتفت إلى الآخرة . ومما يستأنس به لتعضيد هذه القراءة في كلام الأصمعي هو أنه عبر عما يفضي إلى الفحولة بـ (طريق الفحول) ، أي ما كان يمكن أن تكون هناك فحولة في شعر الإسلاميين في شق مضامينه الجديدة ما لم تكن هناك سبيل عابرة يطرقها من أراد الفحولة ممن أوتي مقوماتها .

من اللافت للنظر أن الحديث عن ضعف الشعر قد تمحور جله حول حسان بن ثابت وذلك لأنه كان الرائد الذي التزم قضايا الإسلام واتصل بقيمه وتعاليمه اتصالاً مباشراً وارتبط به ارتباطاً وثيقاً حيث نهض بعبء المنافحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم والدفاع عن دعوته ، من هنا كان لابد من أن تتجه أنظار دارسي الشعر الإسلامي إلى كل ما يتصل بحياة حسان بن ثابت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وما قبله ، بحثاً عن الأسباب التي من شأنها أن تبعد تهمة الإضعاف هذه عن الإسلام ولتحديد ما يمكن أن يكون العامل الحقيقي وراء هذه الظاهرة ، فلما آلوا إلى ما كان يحيط بحسان الشاعر من ظروف خاصة بحياته وعمره وعامة تتصل بالدعوة المحمدية وأوضاعها ، أوحت إليهم هذه الظروف والأوضاع مجتمعة جملة من الحقائق استخلصوا منها أسباباً حصروها في نقاط أربع : الشدة والانبهار ، الكذب والصدق في الشعر ، قول الشعر وتقدم السن ، الارتجال الشعري [3] . إذا نظرنا في هذه الأسباب التي أثارها هؤلاء الدارسون نجد أنها لا تكفي وحدها - عند التدقيق - لتعليل ظاهرة الضعف التي أصابت جانباً من جوانب الشعر الذي قيل في صدر الإسلام، وذلك لأننا إذا أخذنا بهذه الأسباب والعلل فإننا نحكم مسبقاً بتدني المستوى الفني - هكذا بضربة لازب - لكل شعر يقال في مثل هذه الظروف ، وما هكذا يبدو الأمر - إذا استثنينا الشدة والانبهار - مع الشعر تحت الظلال المماثلة في أزمنة تالية ولا كان كذلك مع كل شعر يعني بقيم الإسلام ومضامينه في مختلف الأزمنة والعصور ، فهذه وقائع الأدب وأحداثه تقدم لنا شواهد يرتقي فيها الشعر المعني ارتقاءً رائعاً ويسمو سمواً حميداً يدعونا إلى الالتفات إلى وجهة أخرى لتوخي العلة التي كانت مسؤولة عن ذلك التدني ، ولتوضيح ما أجمل هنا نناقش هذه العلل بشيء من التفصيل .

أولاً- الشدة والانبهار:

إن القول بأن حسان بن ثابت - وقد اتفق على رمزيته وتمثيله للشعر المعني - قد انبهر بأسلوب القرآن العظيم وشده بما جاء به النبي الكريم، لا ينهض سبباً لتفسير ظاهرة الضعف، لأن الانبهار بالقرآن العظيم وأسلوبه الحكيم إما أن يبعث على حالة من البهت ومن ثم يدعو إلى العجز والانسحاب من حلبة القول الشعري، وبخاصة إذا ما امتلأت نفس الشاعر بأنوار الدعوة وفاضت جنباتها بهديها كما كان الأمر مع لبيد بن ربيعة الذي آثر الصمت في الأغلب الأعم في أيامه الإسلامية اكتفاء بآي الذكر الحكيم وإما أن يكون القرآن والسنة رافدين مهمين من روافد البيان الراقية التي تعمل على تنويع ثقافة الشاعر وتطوير أساليبه الفنية وإثرائها، فيرقى عندئذ الشعر ويسمو وتتهذب لغته وتصفو ديباجته مقارنة بالشعر الجاهلي الذي يكون حينئذ قد استلهمت تجاربه كلها واستضيفت إلى جانب هذه المنابع الصافية الجديدة، وإن ظلت - بالطبع - المسافة بين لغة هذا الجهد البشري وبين لغة المعجزة السماوية، القرآن الكريم - شاسعة شسوع المشرقين، فطبيعة القرآن غير طبيعة الشعر وما كان لجهد الأرض أن يقترب من وحي السماء، بله أن يقارن بينهما. من هنا ينبغي استبعاد عامل الانبهار والشدة من عوامل التأثير المهمة في تدني المستوى الشعري.

ثانياً- الكذب والصدق في الشعر:

إن قول حسان بن ثابت نفسه عندما سئل عن هذه الظاهرة في شعره:

(إن الإسلام يحجز عن الكذب)[4]

ليس مقصوداً به هنا قلب الحقائق وتزييفها، إذ لا يمكن أن يكون حسان قد عنى شيئاً من ذلك، وإنما المقصود هو التفخيم الشعري والأخيلة الفنية والأساليب البلاغية التي يستوحيها الشاعر من مخياله الأدبي، ويبدو أن حسان بن ثابت قد بحث دون تأمل كبير عن هذه الصور والأخيلة فلم يجد لها حضوراً يذكر في العالم الشعري الجديد الذي كان ما يزال يتخلق على أيدي الشعراء، فظن أن الشعر قد تدنى مستواه لأن الإسلام حجزه عن ذلك، ولو تمهل حسان قليلاً لأدرك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يؤثر عنه أنه منع هذا النوع من الصور والأخيلة ما لم تكن صدّاً عن

سبيل الله أو طعناً في أنساب الناس وأعراضهم أو تزييناً لمنكر ، فالصور والأخيلة مباحة مادامت مقصودة لذاتها وفي مجال الأسلوبية الفنية التي درج عليها الشعراء يستعينون بها على إحداث التأثير المطلوب في عالم المشاعر الداخلية ، فهذا كعب بن زهير قد وقف بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم يغترف من هذه الصور التي وصفها حسان (بالكذب) في موضوع غزلي صريح في دلالاته الحسية فلم يعترض عليه الرسول الكريم[5] وأنشد النابغة الجعدي عندما وفد مع قومه على الرسول صلى الله عليه وسلم قوله:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا

وإنا لنبغي فوق ذلك مظهراً [6]

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أحس في شعره بما يشبه الفخر القبلي وكبرياء الجاهليين :

(إلى أين يا أبا ليلى) ؟

فأجابه النابغة - وقد فطن لما يعنيه سؤال النبي الكريم:

(إلى الجنة يا رسول الله)

فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام وقد أعجب بمنطقه:

(لا يفضض الله فاك)[7].

هذا ، ولو نظر حسان في ثنايا شعره لوجد فيه شيئاً غير يسير من مثل هذه الأخيلة والصور التي لا نظير لها في دنيا الواقع ، وإنما هو (الكذب الشعري) كما أسماه . يقول حسان بن ثابت في قصيدة إسلامية أنشدها بعد معركة بدر الكبرى يفتخر فيها ويعير الحارث بن هشام بفراره عن أخيه أبي جهل :

تبلت فؤادك في المنام خريدة

تسقي الضجيع ببارد بسام

كالمسك تخلطه بماء سحابة

أو عاتق كدم الذبيح مدام

نفج الحقيبة بوصها متنضد

بلهاء غير وشيكة الأقسام[8]

ولا يعتقد أن سيدنا حسان قد جاءته هذه الخريدة في يقظة أو في منام وإنما هو الخيال الشعري في (طريق) الأقدمين ، يمسك به الشعراء عند القول كما يمسك الخطباء بخيوط القصص الوعظي .

ثالثاً- الشعر وتقدم السن:

إن عامل السن لا يصلح سبباً لتعليل الضعف في شعر الإسلاميين في سنواته الأولى ، لاسيما إذا عرفنا أن هذا الضعف

قد اعترى على وجه الخصوص ما يمس القضايا الطريفة وأغراض الدعوة الجديدة، هذا ، والسن من ناحية أخرى كان ينبغي أن تزيد الشاعر تمكنا من تجاربه الفنية وتكسبه قوة في أساليبه وتجعله أكثر تبصرا بأدواته ويكون هذا الفهم أكثر إلحاحاً إذا ما عرفنا أن المضامين الروحانية الجديدة هي أقرب إلى النفس الهادئة المطمئنة منها إلى النفس المنطلقة المتفلتة ، فأولى الناس بالإبداع في مثل قضايا الإسلام هم الذين عركتهم تجارب الحياة وبلغت بهم السن مبلغاً ، لا لأن الإسلام لا يحرك طاقات الشباب الإبداعية ولا لأنه لا يملأ مشاعرهم - فهم بهذا المعنى أولى الناس به - ولكن لأن الشيوخ لا يجدون في حياتهم كثيراً من الهموم مما يزاحم هذه القضايا الضخمة ، من هنا اعتقد أن تقدم العمر لدى الشاعر قد يحدث انعطافاً في الموضوعات التي يطرقها ولكنه - في الأغلب - لا يضعف من مستواه الفني .

رابعاً- الارتجال في الشعر:

تبقى علة الارتجال في قول الشعر ، وهو ما قد يفسر بعض الضعف الذي أصاب القصائد المرتجلة ، فلا ينتظر من قصيدة مرتجلة أوحت بها مناسبة خاطفة أن يرقى مستواها الفني إلى مستوى قصيدة نظمها صاحبها على فترة من الزمن وتعهدها بالمراجعة والتهذيب ، بيد أن هذا العامل لا يسعفنا عندما نقرأ تحت ضوئه بعض النصوص المعنية ، فهو لا يفسر ظاهرة الضعف الذي رافق الشعر الإسلامي في عمومه ، ثم إنه إذا نظرنا في بعض القصائد فإننا نجد الشاعر يسمو ويجيد في مقطع من القصيدة ، يعالج فيه مضامين مألوفة لديه كالمدح بالكرم والشجاعة وكالمعايبة بالأنساب والأيام وكالغزل اللاهث وراء المظاهر الحسية وما إلى ذلك مما هو مركوز في ذهن الشاعر ومنه له في ذاكرته مخزون طيب . بيد أن أجزاء أخرى من القصيدة ذاتها يضعف مستواها وتتعثر أساليبها الفنية عندما تعالج قضايا الدعوة الجديدة وقيم الإسلام الطريفة مما لا يجد له الشاعر رصيداً في موروثه الجاهلي كما سنرى لاحقاً .

المقاربة الحديثة لمصطلح الليونة

يقول عبد الرحمن البرقوقي في معالجته لقضية ضعف الشعر الإسلامي المتجلية في شعر سيدنا حسان بن ثابت : " وإذا صحت الأشعار اللينة التي تنسب إلى حسان ، فإنه يسهل تعليل هذه الليونة بأشياء " ، وبعد أن يثير جل ما تم نقاشه من علل وأسباب ، يضيف علة أخرى يرى أنها " تسهل " تعليل ما أسماه بظاهرة " الليونة " في شعر حسان ، فيعتقد : " أنه شاعر مدني نشأ في المدينة وخالطت بشاشة هذا الدين قلبه فكان لابد أن يلين جانبه وترق حاشيته فيتجافى عن جفوة الأعراب وخشونة الجاهلية ويبتعد عن الغلو والإفراط في الزخرف وما إلى ذلك من كل ما هو بسبيل من الكذب الذي يعنونه بقولهم أصدق الشعر أكذبه " لا يخفى ما في هذا التعليل من بعض الالتباس الذي يجعلنا نخلط بين الليونة التي تعني الهلهلة الشعرية ومنزع التقريرية المباشرة في نسج الصور وبين الليونة التي قد تكون رقة الحاشية وصفاء الديباجة مما يعد من مواصفات الشعر الناتج عن طبع الحياة المدنية المتحضرة

ولا أظن أن ظاهرة الخشونة والجفوة - إن وجدت عند الجاهليين تمت إلى قوة الشعر أو ضعفه بسبب لأن المسألة نسبية يتباين تقييمها من جيل إلى جيل ومن زمن إلى آخر ، فما من ناقد فيما أعلم قال بأن من سمات الشعر القوي الخشونة والجفوة ، وكل ما كانوا يحمدونه في الشعر الجاهلي هو جزالته ومتانته وقوته والفارق شاسع بين هذا وذاك .

أما الغلو والإفراط فعزوه إلى المدنية والتحضر أولى ، فمما عرف عن خصائص شعر الجاهليين هو تنكبه لسبيل الغلو والإفراط ، إلا ما ندر كما يلمس القارئ في معلقة عمرو بن كلثوم التي تشير إلى تيه الجاهليين وتوهانهم .

وبأي معنىً أخذنا مصطلح (الليونة) عند البرقوقي فإنه - اتساقاً مع هذا الفهم - كان ينبغي أن لا يكون هناك تباين فني بين شعر حسان الذي قاله في الجاهلية وشعره الذي قاله في الإسلام من حيث إنه كان شاعراً مدنياً في تكوينه الأول في بلاطي الغساسنة والمناذرة . فالأخذ بهذه القراءة لمصطلح الليونة كما أراده البرقوقي هو وسم لشعر حسان بهذه ا(الليونة) و (الرقة) في كل مراحل حياته

الشعرية ، وما هكذا قيم رجال الأدب شعره ، غير أن عبد الرحمن البرقوقي يضيف ملاحظة ثانية فيصيب بها بعض المفصل ويكاد يضع يده على العلة الحقيقية التي كانت وراء الضعف الذي اعترى الشعر الإسلامي في الصدر الأول ، فهو يقول :

" على أن من تكليف الأنفس ما ليس في وسعها أن يتوقع من شاعر جاهلي أكان حسان أم غير حسان إذا هو عرض لمدح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيد الإجادة المنتظرة في مثل هذا الموقف " (11)

وهذه ملاحظة ثمينة ، لا تأتي إلا من أمثال عبد الرحمن الذين ارتبطوا بالتراث ارتباطاً جليلاً ، لو طوعها لكل المضامين الجديدة التي طرقها حسان وصحبه من شعراء الصدر الأول لقالت كل شيء في هذا الموضوع إلا أن عبد الرحمن كان - كما يبدو - مشغولاً بالجانب المهم من شعر حسان ألا وهو الشعر الذي أوقفه على مدح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورثائه ، فكأن عبد الرحمن استحضر الموقف وهيبته في حضرة الرسول الكريم وجلال النبوة ، وما يجده الشاعر من صعوبة في الإلمام بجوانب هذه الشخصية النورانية التي (بهرت أنوارها) أنظار من استقبلتها مباشرة دون استعداد زمني كحسان وغيره .

مكمن العلة:

إذا كان البرقوقي قد قاربت يده من العلة الحقيقية في مسألة الضعف الشعري ، فإن عبد القادر القط يحاصر القضية ويوجزها في ملاحظتين فاصلتين ، أولاهما قوله: إن " الضعف الذي لاحظناه على الشعر الإسلامي كان قد بدأ في الحقيقة قبيل الإسلام لا بعده ، وكان قد انقضى (عصر الفحول) ولم يبق منهم إلا الأعشى الذي مات - كما تقول الرواية - وهو في طريقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليمدحه ويعلن إسلامه، ولبيد الذي كان قد بلغ الستين وأوشك أن يكف عن قول الشعر ، ولم يبق عند ظهور الإسلام إلا شعراء مقلون، بعضهم مجيد في قصائد مفردة ولكنهم لا يبلغون شأن هؤلاء الفحول "(12) .

قيمة هذه الملاحظة التي تمهد لفيصل القول في الموضوع لا تكمن في كونها تنفي ارتباط الضعف الفني في شعر الصدر الأول بالإسلام وتعاليمه وتبعد وجود ما توهم من علاقة بينهما وحسب ، بل قيمة الملاحظة في كونها تومئ من طرف آخر - ولو لم يرد بها ذلك - إلى أن ألطافاً إلهية كانت ترعى العرب في جاهليتهم لتمكن لهم في مضمار القول والفصاحة وتعدهم بلاغياً لاستقبال القرآن الكريم ، معجزة النبي البيانية وفهم معنى الإعجاز الذي تحداهم ببلاغته وسمو مضامينه وبيانه ، حتى إذا ما انتهى دورهم انتهى عصر الفحول وكان على القوم أن يبدعوا مسيرة التمكن الشعري فيما يجدّ عليهم من مضامين على سنن التدرج والمران .

وتأتي ملاحظة عبد القادر الثانية لتتم ما مهدت به الأولى فتضعنا أمام العلة الحقيقية في هذه المسألة ، فهو يقول :

(ليس من اليسير على شاعر قضى الجانب الأكبر من حياته في الجاهلية كحسان بن ثابت مثلاً - أن يجد لنفسه اسلوباً جديداً من الشعر يحسن التعبير عن تلك القيم والقضايا الجديدة ويحتفظ في الوقت نفسه بتلك الخصائص الفنية التي نمت وتطورت في ظل مجتمع مختلف في قيمه وقضاياه) [13] .

ولربط التالي من القول بالأول والخلف بالسلف نقول إن استعمال القط لمصطلح " أسلوب " هو ما عبّر عنه الأصمعي بقوله: **" طريق "** .

صفوة ما تقدم أن الأمر في قضية الشعر قوة وضعفاً لا يتعلق عند التحقيق بالشر أو الخير ولا يتأثر باقترابه من الإسلام ديناً وقيماً أو ابتعاده عنه ، بقدر ما كان الأمر كله مرتبطاً بعدم النضج الفني في صدر الإسلام الأول ، فإذا ما اتصل الشعر بالأغراض القديمة والموضوعات المألوفة، خيرها وشرها، نجده مكتمل النمو تام التطور مستوى الأساليب مجنح الصور أو هكذا يؤمل له في الأغلب [14] .

أما إذا انعطف الشعر إلى القضايا الجديدة والتفت إلى القيم الطريفة فإنه يكون في حاجة إلى زمن تتخلق فيه هذه المضامين شعرياً وتتكون أساليبه وتتطور أدواته البلاغية الخاصة بعالمه الروحاني وتتكون صوره وفق منظور شعري جديد يحمل رؤى إسلامية طريفة [15] .

فكم من شعر جاهلي كان قد دار حول مفاهيم " الشر " بالمعنى الذي عناه النقاد ثم سقط من الذاكرة لسقوطه فنياً وما وصل إلينا من حقب الجاهلية إنما هو مما صقلته التجربة، في الأغلب، وهذبه المران الطويل.

شاهد تبياني:

لا يتجلى الأمر ولا يستبين كما يبدو بمثل شاهد تبياني ندلل به على صحة الرأي الذي يرى في طرافة الموضوع وجدة المضامين وغياب القوالب الفنية التي يمكن احتذاؤها آنئذٍ علة لما وسم تجارب الشعر الإسلامي الأولى من تخلف فني . نورد هنا مقطعين لشاعرين كبيرين يختلفان بيئة وزماناً ، بيد أنهما يصدران عن مشكاة واحدة من حيث المضمون إذ يعالجان موضوعاً إسلامياً واحداً ألا وهو الاستشهاد والجزاء ، نقارن بوقوفنا عند نصين لحسان بن ثابت وأبي تمام حبيب بن أوس بين السابق واللاحق لنرى كيف تنضج على يدي الثاني التجارب وتتبلور المفاهيم مخيالياً فيسهل السمو بها إلى مستويات فنية رائعة .

يقول حسان بن ثابت في رثاء شهداء وقعة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة :

تأوبني ليل بيثرب أعسر
وهم إذا ما نوم الناس مسهر

*****

رأيت خيار المؤمنين تواردوا
شعوباً وقد خلفت فيمن يؤخر
فلا يبعدنّ الله قتلى تتابعوا
بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا
جميعاً وأسباب المنية تخطر
غداة غدواً بالمؤمنين يقودهم
إلى الموت ميمون النقيبة أزهر
أغر كلون البدر من آل هاشم
أبيٌ إذا سيم الظلامة مجسر
فطاعن حتى مات غير موسد
بمعترك فيه القنا يتكسر
فصار مع المستشهدين ثوابه
جنان وملتفّ الحدائق أخضر(16)

ويقول أبو تمام في رثاء محمد بن حميد الطائي في موضوع الاستشهاد :

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر
فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

*****

ألا في سبيل الله من عطلت له
فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
فتى مات بين الضرب والطعن ميتة

تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنه
هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج رداته
فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردى ثياب الموت حمراً فما أتى
لها الليل إلا وهي من سندس خضر(17)

نلاحظ أن حسان بن ثابت وهو الشاعر الرائد الذي كان يغزل الخيوط الفنية الأولى لنسج مضامين الإسلام شعرياً قد سما بعض السمو الفني في وصفه لشجاعة الصحابي الكريم زيد بن حارثة قائد معركة مؤتة وبطلها ، وما كان ليسمو حسان في هذه الجزئية لولا أنه كان يغترف من رصيده الفني في الجاهلية ويستلهم مما تهيأت فيه للجاهليين تصاريف للقول متعددة الصور وأساليب يستضيفها الشعراء كلما عن لهم القول في سياقات مماثلة ، حتى إذا ما اقترب حسان من مفاهيم الإيمان والاستشهاد والجزاء وغيرها من المشاهد الروحية الجديدة نجد قواه الفنية تخور وأنفاسه الأدبية تتعثر فلا تصعد به إلى رحاب الفحولة التي عهدت عنده ، وما كان ذلك في حقيقة الأمر عن قصور في الملكات أو تقصير في التناول وإنما كان ذلك منه لطرافة الموضوع وجدته ، يستوي فيه حسان رضي الله عنه وامرؤ القيس :

نقرأ قول حسان بن ثابت :

" رأيت خيار المؤمنين تواردوا "

وقوله:

" فلا يبعدنَ الله قتلى تتابعوا "

وقوله :

" فصار مع المستشهدين ثوابه
جنان وملتف الحدائق أخضر "

نقرأ هذا ، وأمثاله كثير ، فنحس صدق حسان بيد أننا ندرك جيداً أنه كان يجتهد ما وسعه الاجتهاد في نسج المعاني الدينية الجديدة على منوال لا يمتلكه ويصب قوالبه على غير حذو سابق ويسلك سبيلاً لم تمهد بعد ، فارتبكت لذلك التجربة الشعرية بين يديه وتخلفت الصور الفنية في أبياته ونزع منزع التقرير والنظم واستسلم للرتابة والاسلوب المباشر ، فقد ذكر

حسان رضي الله عنه المؤمنين والثواب والاستشهاد والجنة والحدائق والخضرة دون أن يكون قادراً على الاهتداء إلى سبيل تمكنه من توظيف هذه المصطلحات والألوان توظيفاً فنياً .

لنقرأ الآن هذه القيم والمعاني ذاتها وقد أنضجتها التجارب واستقامت لها طرائق التعبير لنرى كيف ينخلها أبو تمام في نصه المماثل نخل العهن ، ثم يلفها في صور فنية رائعة يفلت بها على أجنحة الخيال من ربقة الحرفية المباشرة، فيقدمها في نسيج شعري محكم يوحي من خلاله كل ما أراد حسان التعبير عنه دون أن يتورط أبو تمام في التقريرية التي لمسناها عند سلفه .

انظر إلى هذا الحمد الذي يجعل منه أبو تمام رداءً يرتديه محمد بن حميد المجاهد ثم يلتقط له صورة أخرى يلبسه بها أكفان الأجر فيصل بين حياتيه بهذه الأردية التي يفصلها له ، ثم تأمل بعد ذلك كيف يتحدث عن الاستشهاد والثواب والجنة ونعيمها فيلون هذا العبور النبيل من الدنيا إلى الآخرة بألوان إيمانية مشرقة فيجعل من دماء الشهيد أردية حمراً ومن ثواب الآخرة حللاً من رقيق الديباج خضراً ، يفعل ذلك دون أن يذكر أياً من المصطلحات الدينية وإنما يبعث بها من خلال هذه الصور والألوان الجميلة في استعارات معبرة ، ويختصر أبو تمام رحلة الشهيد فيداخل بين لحظات الدنيا والآخرة ، فما أن يغدو المرثي مجاهداً في سبيل الله حتى تروح روحه الطاهرة صاعدة إلى ربها مع هدأة الليل حيث مستقر النعيم الخالد .

صفوة المقال :

إن المهمة التي كان يضطلع بها الشعراء في جاهليتهم من إعداد واستعداد بياني لاستقبال القرآن الكريم معجزة الرسالة الخاتمة كانت قد انتهت أدوارها بمجيء الإسلام ، ووضع الشعراء حينئذٍ أمام عالم جديد لا يملكون من موروث التجارب ما يمكنهم من التعامل الإبداعي معه كما كانوا يفعلون قديماً مع عوالم الجاهلية ، لقد كانت مرحلة التحولات الكبيرة التي وجد الشعراء أنفسهم أمامها وجهاً لوجه وجيزة الأنفاس وسريعة الإيقاع اضطروا معها إلى الاستجابة المباشرة والمرتجلة دون أن تصقلها التجربة المتأنية أو يهذبها المران الطويل ، فكان طبيعياً أن يأتي شعر هذه المجموعة

التي التحمت مع الدعوة المحمدية منذ انطلاقها موسوماً بما يمكن أن يعتري الخطى الأولى من تنكب وعثار .

هذا الشعر الذي كان حسان بن ثابت بحكم اتصاله الوثيق بالدعوة وصاحبها عليه السلام خير ممثل له ، لم يقو على النهوض بمهمة التعبير عن هذا الجديد في أسلوب يضاهي ما كان ألفه العرب في جاهليتهم من طرائق فنية مجنحة ، وهذا التخلف النسبي هو الذي قاد إلى الظن الخاطئ والمقارنة المجحفة بين فترة النضج التام والاكتمال الفني لشعر الجاهليين وبين فترة تلمس الطريق والبحث عن الوسائل والأدوات عند الشعراء الإسلاميين .

إن جلال المواقف الإيمانية التي وقفها المسلمون الأوائل وعظمة المشاهد الجهادية التي تلاحقت أحداثها سراعاً لم تمكن شعراء الطليعة الذين واكبوا خيل الرسول عليه السلام من بلورة المفاهيم الإسلامية السمحة والقيم الإنسانية الكبرى التي بشرت بها الدعوة المحمدية المباركة، ولم تمهلهم لوجازة المدة حتى يتمثلوا ذلك كله رؤى فنية واضحة المعالم وأنساغاً فكرية يسيرة التناول ، فيلونوا بها دنيوات الصور عندهم ويرفدوا بها مخيال الشعر لديهم .

إن هذه الحيوات الكبرى التي كانت تتخلق تباعاً أمام أعين هؤلاء الشعراء أظهرت تجاربهم الشعرية الأولى - وهي تؤسس بكل ما يعتري طلائع الأعمال من محاسن ومساوئ لتوجّه في الشعر فريد - وكأن الإسلام أضعفها وما هي في حقيقة الأمر كذلك وإنما كانت تشهد مرحلة أشبه ما تكون بفترة التخلق الجنيني لتجربة الشعر الإسلامي في بداياته الأولى .

الهوامش

(1) المرزباني ، أبو عبد الله محمد بن عمران : الموشح ، تحقيق علي محمد البجاوي ، نهضة مصر ، ص 71 .

(2) المصدر نفسه ، ص 71 .

(3) عثمان ، محمد علي : في أدب الإسلام : عصر النبوة والراشدين وبني أمية ، دار الأوزاعي ، بيروت ، ط2 (1986) ، ص 98 .

(4) الأنصاري ، حسان بن ثابت : شرح ديوان حسان ، وضعه وصححه عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (1981) ، ص 25 .

(5) يقول كعب بن زهير في لاميته التي أرست دعائم المدح النبوي ، مستهلاً على طريق الشعراء الفحول بالغزل :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا   إلا أغنّ غضيض الطرف مكحول

(بانت : ابتعدت ورحلت ، متبول : مغرم مستهام ، متيم : متعلق يتيم ، يفدى : يفك أسره ، مكبول : مقيد) إلى غير ذلك من الأوصاف الحسية التي نجدها في مقدمة القصيدة .

(6) ضيف ، شوقي : تاريخ الأدب العربي : العصر الإسلامي ، دار المعارف بمصر ، ط5 (1972) ، ص 101 .

(7) المصدر السابق ، ص 101 .

(8) الأنصاري ، حسان بن ثابت ، المصدر نفسه ، ص 415 ، (تبلت : أسقمت وذهبت بعقله ، الخريدة : الحسناء البكر ، عاتق : خمر قديمة عتيقة ، مدام : خمر ، نفج : مرتفعة ، الحقيبة : ما يضعه الراكب وراءه أي كبيرة المؤخرة ، بوصها متنضد : ردفها راكب بعضه فوق بعض ، بلهاء : غافلة عن الرذائل ، غير وشيكة الأقسام : غير سريعة اليمين أي رزان حصان) .

(9) الأنصاري ، حسان بن ثابت ، المصدر نفسه ، ص 28 .

(10) ضيف ، شوقي ، المصدر نفسه ، ص 219 .

(11) الأنصاري ، حسان بن ثابت ، المصدر نفسه ، ص 28 .

(12) القط ، عبد القادر : في الشعر الإسلامي والأموي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (1979) ، ص 13 .

(13) المصدر السابق ، ص 12 .

(14) انظر مثلاً كيف يوظف حسان بن ثابت ما يمكن وسمه بالصفات المشتركة بين عصري الجاهلية والإسلام ، فينسج منها لسيد الشهداء حمزة - وهو أهل لكل ذلك - ثوباً من صفات المجد المألوف وخصائص الشرف العربي الباذخ مما يجعل من سيد الشهداء مثالاً رائعاً للفقيد العربي المغوار على طريقة الجاهليين ، يقول في رثاء حمزة فقيد المسلمين في معركة أحد :

تساءل عن قرم هجان سميدع　　لدى البأس مغوار الصباح جسور

أخي ثقة يهتز للعرف والندى　　بعيد المدى في النائبات صبور

(قرم: سيد عظيم، هجان: زكي النسب كريمه، سميدع: شجاع موطأ الأكناف وسيم)

واقرأ قول النابغة الجعدي وهو يعالج قيمة إنسانية مجّدها الجاهليون كثيراً، فيسمو بها سمواً هش له النبي صلى الله عليه وسلم، يقول النابغة:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له　　بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له　　حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

(15) اقرأ قول الحارث بن مرة متمثلاً قول الله تعالى: "إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" (محمد، 7)، يقول:

بني عامر إن تنصروا الله تنصروا　　وإن تنصبوا لله والدين تخذلوا

وإن تهزموا لا ينجكم منه مهرب　　وإن تثبتوا للقوم والله تقتلوا

واقرأ قول النابغة الجعدي وهو من هو، عده ابن الإسلام مفلقاً من فحول الطبقة الثالثة:

يابنتَ عمي كتاب الله أخرجني　　طوعاً وهل أمنعن الله ما فعلا

فإنْ رجعت فربّ الناس يرجعني　　وإن لحقت بربي فابتغي بدلا

ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرني　　أو ضارعاً من ضنىً لم يستطع حولا

وهو يريد بذلك قول الله تعالى:

"ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج" النور، 61)، اقرأ هذا وغيره كثير من مضامين الدعوة التي كان يتمثلها الشعراء لتدرك كيف يسقط هؤلاء في النظم المباشر والتضمين الساذج.

(16) الأنصاري، حسان بن ثابت، المصدر نفسه، ص 232 (تأوبني: عاد مرة بعد أخرى، شعوب: المنية، ميمون النقيبة: مبارك طيب السجية، أزهر: أبيض، وهو يريد زيد بن حارثة).

(17) أبو تمام، حبيب بن أوس: شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه راجحي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2 (1994)، ج2، ص 218.

مضامين الإرهاب والتطرف في اللغة والاصطلاح

د. محمد الأصيبعي

كثر الحديث خلال النصف الثاني من هذا القرن عن الإرهاب والتطرف والجرائم الإرهابية والمنظمات المتطرفة وأهدافها ومراميها،

وعما إذا كانت تمثل حركات تحرر للشعوب التي تسعى لنيل استقلالها وتقرير مصيرها تبعاً للمبادئ الأممية التي أقرتها كافة الشعوب المنطوية تحت لواء الأمم المتحدة أو أنها منظمات "ومافيات" إرهابية تسعى لتحقيق مآرب ومصالح لعصابات إجرامية أو أنها أعمال لمنظمات من صنع أجهزة المخابرات في العديد من دول العالم تستعملها كأدوات لتنفيذ بعض مهامها القذرة، والباحث في موضوع الإرهاب والتطرف والمصطلحات التي تدل عليه يرى تعددها وتنوعها. وهذه محاولة لتحديد مضامينها واستعمالاتها على الرغم من عدم اتفاق العالم حتى هذه اللحظة على تعريف الإرهاب نظراً لاختلاف رؤى الشعوب وتشعب الأفكار والمنطلقات والمضامين التي يؤيدها كل جانب. وقد كان للدول العربية قصب السبق في هذا المجال حيث تمكنت من وضع تعريف للإرهاب والجرائم الإرهابية [1] وسنتولى بيان معاني المفردات التي تدل على الإرهاب والتطرف مستعينين في ذلك

بمعاجم اللغة وآراء من سبقونا في الاهتمام بهذا الموضوع الجديد والمتجدد والشائك، وسنتولى توضيح مدلول ومضمون المفردات التالية ونبين مدى صلتها بمفهوم الإرهاب والكلمات هي :

الإرهاب - التطرف - التشدّد - الغلو - التنطع - العنف

أولاً- الإرهاب:

جاء من كلمة رهب وتعني الكلمة الذعر والرعب والفزع والخوف ، وورد في معاجم اللغة (رهب الشيء رهْباً ورَهَباً ورهبة : خافه) .

(وأرهبه ورهبه واسترهبه : أخافه وأفزعه) ويقال ترهّب الرجل إذا أصبح راهباً يخشى الله [2] .

وقد ذكرت كلمة رهب في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة .

(يرهبون ، فارهبون ، ترهبون ، استرهبوهم ، الرهب ، رهبة ، رهباً ، رهباناً ، رهبانية) وكلها تدور حول معاني الخوف مع التحرز [3] .

وقال الراغب الأصفهاني في معاني الرهبة ومشتقاتها رهب الرهبة ، والرهبة مخافة مع تحرز واضطراب .

وفي السُّنة النبوية وردت كلمة رهب ومشتقاتها في الأحاديث النبوية بمعنى الخوف والفزع، ففي حديث الدعاء (رغبة إليك) بمعنى الخوف والفزع حيث جمعت الرغبة والرهبة ثم أعمل الرغبة وحدها .

وفيها أيضاً (لا رهبانية في الإسلام) لأن الرهبنة للنصارى وأصل الرهبنة الرهبة بمعنى الخوف كانوا يترهبون بالتخلي عن الدنيا ومشاغلها وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن أهلها وتعمد مشاقها ، وقد نهى عنها الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وأوجد بديلاً عنها يدعم مسيرة الإسلام فقال (صلى الله عليه وسلم):

" عليكم بالجهاد فإنه رهبانية أمتي ".

وبالمقارنة بين الجهاد الذي يبذل بموجبه المجاهد نفسه في سبيل الله وبين رهبانية النصارى التي تدعو إلى ترك الدنيا والزهد فيها نجد أن الجهاد أفضل عمل في الإسلام وفي هذا المعنى قال (صلى الله عليه وسلم):

" ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله " .

ثانياً- التطرف:

من الطرف في اللغة وقد وردت له عدة معانٍ في معاجم اللغة نذكر منها :

أ) الطرف العين لا يثني ولا يجمع لأنه في الأصل مصدر فيكون واحداً أو جمعاً قال تعالى:

" لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء "

كما يقال: (طرف بصره) إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر ، والمرة منه (طرفة) يقال أسرع من طرفة عين و(طرف) عينه أصابها بشيء فدمعت وقد (طرفت) عينه فهي مطروفة و (الطرفة) أيضاً نقطة حمراء من الدم تحدث في العين من ضربة وغيرها .

ب) طرف الشيء جوانبه ، قال تعالى:

" أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل " هود114

فطرف النهار الأول صلاة الصبح وطرفه الآخر صلاة الظهر والعصر وزلفاً من الليل صلاة المغرب والعشاء وقال تعالى:

" أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها" الرعد41

أي نواحيها وجوانبها، والطرف الجماعة من الناس قال تعالى:

" ليقطع طرفاً من الذين كفروا " آل عمران127

وأطراف الرجل جماعته وأخواله وأعمامه وكل قرابته كما يقال فلان كريم الطرفين يراد به نسب أبيه وأمه وأطرف البدن الرجلان واليدان والرأس .

ج) الطِرف بالكسر : بمعنى الكريم العتيق من الخيل. وقال أبو زيد: هو نعت للذكور خاصة والطرف بالفتح الشيء الطيب والنادر والتحفة ويقال أطرفت فلاناً إذا أعطيته شيئاً لم يملك مثله فأعجبه ، والطريف والطارف من المال المستحدث وهو ضد التالد والتليد ويقال ما له طارف ولا تليد ويراد به ليس لديه مال مستحدث ولا موروث من آبائه وأجداده [4] .

د) والمتطرف من الرجال هو الذي لا يثبت على أمر ، ورجل طرف وامرأة طرفة إذا كانا لا يثبتان على عهد وكل منهما يجب أن يستطرف آخر غير صاحبه [5] .

والتطرف في اصطلاح الناس هو مجاوزة حد الاعتدال والتنطع والغلو ومجاوزة حد الاعتدال بل واعتماد التشدد فيما ذهب إليه (6).

وقد يراد به خروج عن النسق السليم والنهج الصحيح للدين الإسلامي واتباع الأفكار والمذاهب الشاذة والضعيفة كمنهج ودستور لهم لفرضه على الآخرين سعياً للوصول إلى السلطة.

ثالثاً- التشدّد:

الشدة هي القوة والصلابة والتشدد هو طلب الشدة والمشادة هي المغالبة والمقاومة ومنه حديث " **ولن يشادّ الدين أحد إلاّ غلبه** " والمعنى كما أورد ابن حجر لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب ، قال ابن المنير في هذا الحديث علم من أعلام النبوة فقد رأينا ورأى الناس من قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة والمطلوبة بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال والمبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل.

رابعاً- الغلو:

أصل الغلو المجاوزة للشيء والزيادة، وقيل معناه لا تشددوا على الناس فتنفروهم وقوله تعالى:

" لا تغلوا في دينكم " المائدة77

قيل معناه لا تتجاوزوا فيه القدر الذي حدد لكم، ويدور المعنى لهذه الكلمة ومشتقاتها على معنى المجاوزة للحدود وللقدر المسموح به وتجاوز حد الاعتدال.

خامساً- التنطع:

التعمق في الشيء ومجاوزة حد الاعتدال في الأقوال والأفعال، والتنطع في الكلام، التعمق والمغالاة في الكلام الذين يتكلمون بأقصى حلوقهم تكبراً قال (صلى الله عليه وسلم):

" **هلك المتنطعون** " قالها ثلاثاً.

سادساً- العنف:

بالضم ضد الرفق نقول عنف عليه بالضم عنفاً وعنف به أيضاً والعنف الشدة والمشقة وهو مضاد للرفق ، قال ابن الأثير:

وكل ما في الرفق من الخير ففي العنف من الشر مثله.

وقد قال صلى الله عليه وسلم:

(يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه)

فالعنف يظهر في الغالب في معاملة الآخرين .

ومما تقدم نلمس بجلاء جملة من السمات المشتركة بين المفردات والمضامين السابقة نحاول أن نجملها فيما يلي :

1- إن الإرهاب والتطرف والتشدد والغلو والتنطع والعنف كلها مضامين ومعانٍ لأعمال وتصرفات لا يقرها الإسلام أساساً للتعامل في المجتمع الإسلامي الذي يدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وينأى عن الإرهاب والتطرف والتعصب والتشدد والمغالاة واستخدام العنف .

2- إن كل المصطلحات السابقة يمكن أن تستخدم كمترادفات ممقوتة لا يجوز أن تكون أسلوباً أو منهجاً للأفراد أو الجماعات لاستخدامها في هدم كيان الأمة الإسلامية والمساس بمقدراتها والإضرار بالمسلمين سواء في أرواحهم أو أعراضهم أو أموالهم .

3- إن منهج الإسلام وسياقه المعتمد في الدعوة يقوم على حرية الاختيار والإقبال على تعاليمه السمحة وهديه الرشيد عن وعي وقناعة وتبصر، وهذا ما لمسناه طيلة الفتوحات الإسلامية إبان تاريخنا المجيد ومن خلال الدعوة إلى الإسلام إلى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة إعمالاً لقوله تعالى:

" لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" (7) .

4- ينبغي على علمائنا ومفكرينا وجماعاتنا الإسلامية أيا كان المسمى ومهما كانت الأهداف أن يبشروا بهذه المعاني ويردوا على الأعداء والمتربصين بالإسلام والمسلمين من خلال آرائهم وكتاباتهم وأفكارهم ونهجهم العملي بما يدعم هذا الاتجاه حتى نصون أنفسنا وأمتنا وديننا من وصمة الإرهاب والتطرف ويعرف الإسلام على حقيقته دون لبس أو غموض حقيقي أو مفتعل ونرد كيدهم في نحورهم وننتصر لديننا ولأمتنا الإسلامية .

5- يتوجب على المختصين في المدارس والجامعات والمعاهد العليا أن يركزوا في دروسهم ومحاضراتهم على تحصين شبابنا من الانسياق وراء المتورطين في الجماعات الإرهابية والمتطرفة وأن يزودوهم بأسس ومنطلقات الدين القويمة وأن يحثوهم على الارتواء من نبع الإسلام الذي لا ينضب ومن نهره الدفاق الصافي بعيداً عن الآراء الغربية والشاذة والإسرائيليات المدسوسة والمذاهب الغريبة التي ما أنزل الله بها من سلطان .

6- أن تتولى الأسرة والمدرسة والمسجد بتعاون وتكامل بينها تنشئة الأطفال والتلاميذ والطلاب على نهج الإسلام وذلك وفق مناهج تتجاوز الأساليب التقليدية المبتورة التي ثبت فشلها والتي لا يستفيد منها الطالب في تكوين عقيدته وفهم شريعته القرآن الكريم شريعة المجتمع الجماهيري .

7- يا حبذا لو تم الاهتمام بإصدار كتب أو كتيبات حول الإسلام وبأسعار معقولة وبلغة سهلة وأسلوب جذاب وبروح عصرية لتكون في متناول عامة الناس وخاصتهم للتذكير وللمعاونة في فهم العقائد والعبادات والمعاملات، وكم يكون الأمر جميلاً لو تتعاون جمعية الدعوة الإسلامية وأمانة التعليم والأوقاف والإعلام وكافة هيئات المجتمع المعنية بهذا الشأن .

8- العمل على تجفيف منابع الإرهاب والتقليل من عوامله ومسبباته المتمثلة في الفقر والجهل والبطالة والعمل على تحسين أوضاع الناس ورفع المستوى المعيشي لهم والقيام برعايتهم ليكونوا في وضعية تنأى بهم عن الانحراف والتطرف، وتجعلهم قادرين على تحصين أنفسهم وأبنائهم بل والتعاون مع الأجهزة المختصة في الوقاية والتصدي لهذه الظواهر الشاذة والدخيلة التي لا يمكن القضاء عليها إلا بمعالجة جذور المرض، وتعاون الجهات المختصة في الدول المعنية والجمهور عن وعي وقناعة بالمخاطر المحتملة والمتوقعة لهذه العناصر والجماعات التي تسعى للإضرار بالدين والمجتمع الإسلامي والحد من تطلعه لتحقيق الازدهار والتقدم والرقي الذي يطمح إلى بلوغه بعزيمة أبنائه الصادقين وأفكار ورؤى قادته الحريصين على مصالحه ومعتقداته ومقدساته .

المراجع

(1) اعتمد مجلسا وزراء الداخلية والعدل العرب في دور انعقاد خاص جمع بينهما في شهر ابريل 1998 ف اتفاقية عربية لمكافحة الإرهاب وبينت الاتفاقية في الباب الأول تعريف الإرهاب على النحو التالي :

{كل فعل من أفعال العنف أو التهديد به أيا كانت بواعثه أو أغراضه ، يقع تنفيذا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي ، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أو ترويعهم بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم للخطر ، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق أو الأملاك العامة أو الخاصة أو امتلاكها أو الاستيلاء عليها أو تعريض الموارد الوطنية للخطر }

انظر في ذلك اللواء دكتور محمد فتحي عيد ، الإجرام المعاصر ، منشورات أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية ، الرياض 1999 ف ، العدد 204 ، ص 186 .

(2) ابن منظور ، لسان العرب ، 1 - 436 .

(3) ابن منظور ، لسان العرب ، 1 - 137 .

(4) الرازي ، مختار الصحاح ، ص 390 .

(5) د. ناصر الطريفي ، نظرة الشريعة لظاهرة الإرهاب ، ص 158 .

(6) الباحث وآخرين ، التطرف الديني ، الاتجاهات والأبعاد ، ص 5 .

(7) انظر في هذا المعنى محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، دار التراث ، بيروت ، مجلد 2 : 56 ، كان الباعث لحرب النبي صلى الله عليه وسلم هو دفع الأذى وتمكين الدعوة ولم يكن ثمة إكراه على الدين إعمالاً لقوله تعالى (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) .

DIRASAAT

A Quarterly Journal Issued
by the World Center for the Studies and Researches of the 'Green Book

Fourth year, Number 13, Summer, 2003

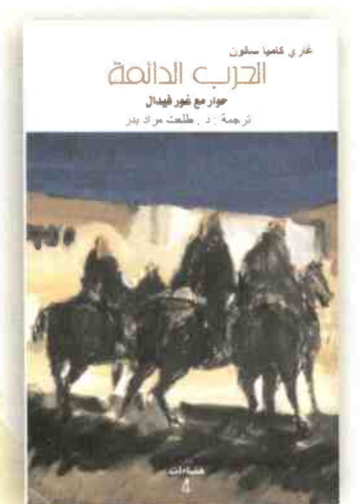
Tripoli, The Great Social Peoples Libyan Arab Jamahiriya
Tel: 3403612 - 3403611 Ext. 220
FAX: 3403693
P.O. BOX: 8021

www. dirasaat. Com

من إصدارات المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر







DIRASAAT

A Quarterly Journal Issued
by the World Center for the Studies and Researches of the Green Book

Fourth year, Number 13, Summer, 2003

13